سيرة القاهرة

ستانلي لينبول

ترجمه عن الإنجليزية

د. حسن إبراهيم حسن

د. علي إبراهيم حسن

إدوارد حليم

الكتاب: سيرة القاهرة

الكاتب: ستانلي لينبول

ترجمه: د. حسن إبراهيم حسن، د. علي إبراهيم حسن ، إدوارد حليم

الطبعة: **2018**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

لينبول ، ستانلي

سيرة القاهرة / ستانلي لينبول

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

396 ص، **18** سم.

الترقيم الدولى: **0 – 621 – 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **25430 / 2018**

سيرة القاهرة



من لم ير القاهرة لم ير الدنيا

فأرضها تبر

ونيلها سحر

ونساؤها حور الجنة في بريق عيونهن

ودورها قصور، ونسيمها عليل، كعطر الندى، ينعش القلب

وكيف لا تكون القاهرة كذلك، وهي أم الدنيا؟

مقدمة المؤلف

تعتبر القاهرة في الواقع مدينة من مدن العصور الوسطى، لأنه لم يكن لها وجود قبل تلك العصور. ثم إن حياتها الحافلة كحاضرة مستقلة، يتفق وقوعها في أثناء فترة الألف السنة التي تعرف بالعصور الوسطى في التاريخ، كما أنها مازالت تحتفظ في الوقت الحاضر بالكثير من طابعها ومظهرها.

وإذا كان المظهر يتغير، فإن الحياة لا تتغير، فالتقدم العجيب الذي أصاب المصري في العشرين سنة الماضية قد تناول بالتغيير حياته المادية، ولكنه لم يكن ليقوى على تغيير خلقه إلا فيما ندر. فلقد أوجدنا له نظمًا عامة يرتاح لها ويأمن إليها، وخففنا من وطأة الضرائب الفادحة التي كانت تثقل كاهله، وجعلنا له إدارة حكومية قادرة، وعدالة حكيمة، وثقافة عالية، وأهم من هذا وذاك ضمنا لكل فرد نصيبًا وافرًا من مياه النيل الغني. ومن أجل هذه المنح كلها – وعلى الأخص المنحة الأخيرة – نجد الفلاح قانعًا شاكرًا على الدوام.

غير أن الحال ليست كذلك بالنسبة للقاهري، فمهندس الرى يفتقر إلى روح الفلاح من هذه الناحية، فهو دائب الطلب لسد حاجاته الملحة، ولا يهتم بإصلاحات «الفرنجي» في كثير أو قليل، وإني لا أحب أن أوازن في هذا المقام بينه وبين الرجل الإثيوبي، ولكن مهما يكن من

شأن الزمن أو من أثر الاتصال بالأوروبيين، فإني على يقين من أن رجل القاهرة سوف يحتفظ دائمًا بقلبه البسيط الساذج الذي كان يحتفظ به في العصور الوسطى.

والشرق – من ناحية الدراسة «إنني لا أتناول الكلام على الأخلاق»– لا يتغير إلا ببطء، كما أن روح الرجل الشرقي لا تتغير على الإطلاق، فبائع المجوهرات في القاهرة الذي يساومك ساعة من أجل بضعة قروش، في الوقت الذي نراه يتسلل إلى الحياة الأوروبية الحديثة ويندمج فيما يقترن بها من جلبة وصخب – هذا الرجل تجرى الحياة الحديثة من دونه، فلا يمكن أن نعتبره جزءًا منها، وإنما هو ينظر إلى الوراء نظرة ملؤها الشغف والشوق، ويتطلع إلى أيام المماليك الزاهرة التي ينتمي إليها، آسفًا على ما تثيره في نفسه من عز ومجد. ومن ثم نراه يتساءل في شيء من الريبة عن الخير الذي يمكن أن يكون من وراء هذه الجلبة الحديثة، أو من وراء هذه العدالة، فلطالما احتاج الإنسان في وقت من الأوقات شيئًا من الجور والظلم. وكان التاجر الذي له مكانته يستطيع أن يشتري ذلك الظلم من القاضي قبل أن تتمخض العدالة أخيرًا عن المحاكم الحديثة. أما فيما يتعلق بالضرائب المحددة وعدم أخذ شيء كرهًا، فهذا مما يهتم به الفلاحون الجهلاء دون سواهم.

وعلى أي حال، فقد كان النظام القديم يتم في صورة بديعة حينما تتأخر أنت مثلًا في دفع ما عليك من ضرائب فيلزم جارك بدفعها بدلًا منك. وعلى ذلك ففيم كل هذه الجلبة عن المياه والشوارع والمجاري وما

إلى ذلك؟ حينما زود ويلكوكس (١) المساجد بالأنابيب والبالوعات وغير ذلك من الإصلاحات التي أدخلها في المساجد والتي تنم عن الكفر، فهل تحسنت صلاة الشخص عما كانت عليه يوم كانت الأحواض القديمة تنبعث منها هذه الرائحة الكريهة في كل مكان؟

كذلك مما لاشك فيه أن الشوارع قد أصبحت أوسع مما كانت عليه من قبل، حتى أصبح الفرنجة– سوَّد الله وجوههم– يمرون بعرباتهم ذات الجوادين ويلطخون المؤمنين بالأوحال. غير أن ذلك قد جعلهم يزيلون المقاعد الحجرية المريحة من أمام الحوانيت – تلك المقاعد التي شعر التاجر بفقدها بعد أن كان يجلس عليها ويقطع وقت فراغه وهو يدخن الشبك ويخيل إليه أن الوقت لن ينقضي. وقد يكون هناك من ضروب الإصلاح ما يعوضنا عن مثل تلك المقاعد أو غيرها. مثال ذلك الماء النقي والدراجات وعربات الترام. بيد أن هذه الأشياء كلها قبيحة لاروح فيها ولا تسلية. وما من شك في أن حياة القاهرة قد أصبحت مليئة بالضجر والملل اللذين يثيران اليأس منذ ذلك اليوم الذي دخل فيه الفرنجة هذه البلاد.

ويذكر لنا مستر مرديث تاونزند في إحدى مقالاته الشائقة في كتابه «آسيا وأوروبا»؛ كيف أن الحياة في الهند كانت بديعة ومسلية للغاية قبل أن يطرأ عليها التغيير الذي جاء به الإنجليز. والكثير من هذا يمكن أن يقال عن الحياة في القاهرة مع تعديلات ضئيلة، فمما لا ريب فيه أن الحياة كانت شائقة ممتعة في تلك الأيام الغابرة التي لم تمسها يد التغيير والتحوير. لقد كان يقع فيها الكثير من الأحداث– الأحداث التي يراها

الناس ويفكرون فيها، أو ربما يفرون منها – وطالما حدثت هناك اغتيالات ومذابح. غير أنه كان من السهل وقتذاك أن تغلق الأبواب الحديدية القوية من دون المماليك أو المغاربة، وأسوأ من هذا كله دون السودانيين إذا امتشقوا الحسام.

أما الآن فإن هذه الأبواب قد أزيلت، ولم تعد هناك تلك المواكب الرائعة للفرسان في زيهم العسكري الذي كان يضفي بهجة وبهاءً أينما ساروا. وفي تلك الأيام كان يمكن لكل رجل على جانب من الدهاء والحظ أن يصل إلى ما تصبو إليه نفسه من جاه وسلطان– ذلك الجاه الذي تعجز القاهرة الآن عن تحقيقه بعد أن لبس العصر الحاضر ثوب الصدق والصراحة. فلقد كان الترقي في ذلك الوقت متاحًا للجميع، وكان الباب مفتوحًا على الدوام لكل من أوتي القوة والدهاء والثروة. ماذا تكون إذن حوادث القتل أو السلب، أو حتى المجاعات أو الأمراض التي كانت تتفشى في بعض الأحيان– ماذا تكون هذه لو قورنت بما كان هناك من فرص سانحة وأبهة فخمة، وأيام ثائرة حافلة لم تكن لتقف عند حد، كما لم يكن يتطرق إليها السأم والملل؟

هذا هو ما يجيش به قلب كل قاهري أصيل، فأفكاره – سواء منها الخيرة أو الشريرة – تغابر أفكارنا من جميع الوجوه.. فهي ترجع في أصلها إلى العصور الوسطى، شأنها في ذلك شأن ملبسه ومعتقداته الدينية وتقاليده الاجتماعية وطريقة حديثه وعدم اكتراثه وتحفظه وإنكاره لما عساه أن يسبب له الضيق أو القلق.

وإذا استثنينا الطبقة الرسمية، أي طبقة الموظفين، فإننا نجد الرجل القاهري

مازال كما تصوره لنا قصص «ألف ليلة وليلة»، حتى مدنيته مازالت تصطبغ بما كانت تصطبغ به في العصور الوسطى، ولقد زال الكثير منها بفعل الزمن أو بفعل البدعة.

ومع ذلك فالزخارف الأوروبية كالدخيل، ومن ثم نجد المدينة الإسلامية القديمة تسخر في الوقت الحاضر وتتحدى تأثير الغرب. لقد أعيد بناء تلك المدينة المرة بعد الأخرى، وكانت في كل مرة تفقد جانبًا من بهائها، غير أنه قد تبقى ما من شأنه أن يرينا ماذا كانت عليه القاهرة منذ خمسمائة عام خلت. فالشوارع المزدحمة في الأحياء القديمة، وأشكال المنازل والأسواق التي لا يمكن أن تُنسى، وأهم من هذا وذاك الآثار التاريخية كل هذه تعود بنا إلى العصور الوسطى.

إن الغرض من هذا الكتاب هو أن ألبس آثار تلك المدينة من المعاني ما يكسبها قيمة ويزيد من شغف القارئ بها. فكثير من مباني القاهرة، وعلى الأخص تلك المساجد التي ترجع إلى عصر المماليك الأخير آية من آيات الجمال، ويمكن أن تعتبر في حد ذاتها تحفًا فنية رائعة بصرف النظر عن تاريخها. غير أن هناك في الوقت نفسه كثيرًا من القصور البالية، والأبهاء المتهدمة، والجدران المتداعية، والنقوش الدراسة، تلك الآثار التي لا تمت إلى فن العمارة بصلة، بل ستظل لا تحمل أى معنى حتى نكشف الستار عن تاريخها.

ولقد حاولت في أثناء تتبعي نمو القاهرة أن أكسب آثارها جوًا من التاريخ، فالطوبوغرافيا المجردة لا تستهوى غير عالم الآثار، ولا يمكن أن

يشغف العامة بها ما لم تمتزج هذه الآثار بألوان الحياة التي كان يحياها سكانها وطرق الحكم التي كان يسلكها حكامها. ولقد حاولت جهدي هنا ألا أخرج عن نطاق بحثي، وهو وصف حياة المدينة وتطور نموها. فليس هذا إذن تاريخًا عامًا لمصر، فكثيرًا ما أغفلت أشياءً كثيرة كنت أدعها تمر لأنها لا تمت إلى تطور هذه المدينة بصلة.

أما المراجع التي اعتمدت عليها فسوف يأتي ذكرها دائمًا في أسفل الصفحات. وإن أهم مصدر عربي هو طبعا كتاب "الخطط" للمقريزي الذي أشرت إليه كثيرًا. وقد كُتب في مستهل القرن الخامس عشر الميلادي «التاسع الهجري»، واستعمل كثيرًا من المؤلفات التاريخية والطوبوغرافية التي يرجع عهدها إلى أبعد من هذا التاريخ بكثير، والتي لم نكن لنعرف عنها شيئًا لو لم يتناولها هو بالبحث والتمحيص. ولا أجدني في حاجة إلى الثناء على دقة بحثه وتصويره للقاهرة، فإن هذا معروف في العالم أجمع.

وهناك غير المقريزي كثير من الكتاب مثل: المسعودي، وناصر خسرو، وعبد اللطيف البغدادي، وابن جبير «الذي يرجع الفضل إلى صديقي مستر جامى لى سترينج مؤرخ بغداد – الذي يعتبر أكبر حجة عندنا في جغرافية الخلافة – في الحصول منه على هذه المقتطفات»، وابن سعيد، وابن دقماق، والسيوطي، وأبو المحاسن، والإسحاقي، والجبرتي، وكل هؤلاء لهم آثار شخصية لها قيمتها، كما أن لكتاب لين «القاهرة منذ خمسين عامًا» فضلًا في تصوير هذه المدينة كما كانت عليه في سنة

١٨٣٥، أي قبل أن يبدأ محمد علي ومن بعده إسماعيل حركة إدخال التقدم الأوروبي إليها، ثم في تغيير مظهر هذه المدينة.

أما فيما يتعلق بعلم الآثار، فإني مدين إلى أبحاث كل من ماكس فان برشم، ورافيس، وكازانوفا، ولابد لي من أن أشير إلى اعتراض قد يوجه لى فيما يتعلق برجوعي إلى مؤلفاتي، وهو أمر يثير الاشمئزاز، وأجدني مضطرًا إلى الإشارة في شيء من التواضع إلى مؤلفاتي.

فلقد كنت أكتب على الدوام في موضوع القاهرة وفنها وآثارها وتاريخها منذ وقت بعيد. ومن ثم كان لابد لي أحيانا من أن أعيد ما كتبته من قبل. حقًا إننى عندما دونت ما كنت أريد أن أقوله في أحسن عبارة أستطيع أن أصورها بها، فإن ذلك يكون أكثر تكلفًا فيما يظهر إن حاولت البحث عن صيغة أخرى مختلفة للتعبير عما أريد. لذلك اقتبست – ولكن في إقلال– من كتابي «فن العرب في مصر» «نشر للجنة المجلس سنة ١٨٨٦» و«صور القاهرة» «الطبعة الثالثة نشرت سنة ١٨٩٨»، وكتابي «تاريخ مصر في العصور الوسطى» «نشر سنة ١٩٠١»، الذي يستطيع القارئ أن يرجع إليه إذا أراد المزيد من الناحية التاريخية. ولو كان هناك كتاب آخر باللغة الإنجليزية يتناول الكلام على مثل هذه الناحية، لأشرت إليه في سرور وفخر.

أما فيما يختص بالتاريخ القبطي، فيستطيع القارئ إذا ما أراد التوسع أن يرجع إلى كتاب مستر بتشر «تاريخ الكنيسة المصرية» «نشر

في سنة ١٨٩٧ في مجلدين»، وهو كتاب حافل بعبارات العطف والتقدير للقبط، ولكنه عرضة للنقد فيما جاء عن علاقات المسلمين.

وقد عملت على عدم كتابة الأسماء العربية بحروف إفرنجية حتى لا أضايق القارئ، وبدلًا من ذلك عمدت إلى تشكيل الأسماء بحيث تظهر المقاطع المهمة من غير المهمة، والحروف المتحركة تنطق كما في اللغة الإيطالية، وحرف **G** قد استخدم ليمثل الحرف العربي الساكن الذي ينطق في القاهرة مخففًا «كما في **Jet**» وفي البلدان الأخرى معطشًا «مثل **j** في **jet**». ويستطيع أولئك الذين يشوقهم معرفة ترجمة الأسماء العربية على حقيقتها أن يرجعوا إلى الفهرس الذي يراه القارئ في آخر الكتاب، حيث كتبت كل كلمة عربية بالحروف الرومانية وفسرت تفسيرًا يساعد على فهمها.

أما الصور فقد راعيت في اختيارها أن تكون بحيث توضح بقدر الإمكان مدينة القاهرة قبل أن يتسرب إليها التغيير الأوروبي. ومن أجل ذلك فإن أحسن الصور هي التي تلك التي رسمها روبرت هيي بين سنتي ١٨٢٦، ١٨٣٨، وزميله أوين كارتر حول سنة ١٨٣٠ عن الصور الأصلية المحفوظة في الغرفة التي أودعت فيها الصفائح المنقوشة بالمتحف البريطاني. وقد طبع بعضها على الحجر في كتاب هي «صور القاهرة»، فهذه الصور تمثل بقايا العصور الوسطى أصدق تمثيل بحيث لا يمكن للصور الحديثة أن تجاريها. ولكن مستر ج. ا سمنجتون قد ذيلها بصور أخرى تنم عن مهارة لا يمكن أن يبلغها الرسامون الذين عاشوا قبله.

ويجدر بي في ختام هذه الكلمة أن أشير إلى ما ذكرته في الفصل الأخير من هذا الكتاب عن موضوع لجنة حفظ الآثار العربية. وإلى يقظة هذه اللجنة وجهودها التي لم تفتر طوال العشرين سنة الماضية، يرجع الفضل في حفظ المساجد وغيرها من بقايا المباني الإسلامية من التهدم والزوال بقدر ما تسمح به الأحوال. فلم يحدث على الإطلاق في تاريخ القاهرة أن حفظت آثارها وأصبحت بمأمن من كل عبث يمثل هذه الصورة. ومن ثم كانا لزامًا علينا أن نعترف بفضل كل عضو من أعضاء هذه اللجنة التي تقدر جهود أفرادها.

ومنذ أن استغل لورد كرومر نفوذه في تحسين حالة اللجنة المالية، استطاعت في الخمس سنوات الأخيرة أن تقوم بأعمال علمية واسعة النطاق لحفظ هذه الآثار على أسس علمية. وكل من يزور القاهرة يستطيع أن يتحقق من نتائج هذه الأعمال، وأن يفحص المجموعات التي تم جمعها تحت إشراف كبير مهندسيها ماكس هرتز بك في متحف الفن العربي.

دبلن- ٣١ يناير ١٩٠٢
ستانلي لينبول

الباب الأول

المدينتان

القاهرة الأوروبية والقاهرة المصرية – مناظر شرقية – التجار المحافظون– متاجرهم– منازلهم– باب زويلة – أحد المنازل الخاصة – المندرة – حجرات النوم– الحياة اليومية – حياة النساء– الأعياد في القاهرة– الحسين– شارع محمد علي – مشهد من القلعة.

هناك قاهرتان مختلفان، تتميز إحداهما عن الأخرى، ولو أنهما لا تختلفان كثيرًا في الموقع. أما الأولى فهي القاهرة الأوروبية، وأما الثانية فهي القاهرة المصرية. وكانت هذه الأخيرة قاهرة – أى منتصرة – في يوم من الأيام، وضع أساسها عند مطلع كوكب المريخ. أما الآن فإن انتصارها قد قل كثيرًا، بل لقد أصبحت بلا ريب مغلوبة على أمرها إلى حد أنها صارت لا تعرف إلا بالأحياء الوطنية أو بالأسواق حسب الطريقة الهندية.

والقاهرة الأوروبية في الواقع تكاد لا تعرف شيئًا عن أختها القاهرة المصرية مدينة العصور الوسطى. حقيقة إن آلاف السائحين يركبون الحمير ليزوروا الأحياء الوطنية في فصل الشتاء، غير أن هؤلاء لا يمتون إلى القاهرة الأوروبية بصلة. فهم كالطير التي لا تقيم في مكان

واحد على الدوام، إنما هم نزلاء زائرون لفترة قد تقصر أو تطول. أما المواطن الحق فهو ذلك الذي يقيم في حي كالإسماعيلية في منزل ظليل يقيه الحر، به شرفة يتخللها النسيم، ويحيط به مئات من القصور المريحة التي تماثلها. وهذا المواطن لا يركب الحمير كما يفعل السائح، بل قد يذهب إلى الأسواق وهو مكره تحت إلحاح زائر يشوقه أن يرى مثل تلك الأماكن الغريبة عنه.

غير أنه حتى في القاهرة الأوروبية نرى دلائل على أنه ثمة قاهرة أخرى– قاهرة إسلامية شرقية – لا تبعد عن القاهرة الأخرى كثيرًا. ولندع الجالية البريطانية لا تقترب البتة بعضها من بعض، وتتجاهل الأحياء الوطنية أو تنظر إليها على أنها مجرد أمور تستدعي حكومة عادلة وإصلاحات حكيمة، ولا يمكنها أن تذهب بعيدًا، أو حتى تفتح آذانها في داخل حجراتها دون أن تدرك أنها تعيش في عالم شرقي، ذلك العالم الذي لا يمكن بدونه أن يكون لها وجود.

وأنت إذ تذهب إلى مكتب البريد، على مسيرة بضع دقائق من معظم فنادق المدينة، لا تلبث أن ترى مظاهر الامتزاج بين الشرق والغرب. هنالك تجد ممرضة ألمانية مع الابنة الصغيرة للأسرة تسأل من نافذة الخطابات الواردة عن خطابات مرسلة باسمها، وفي المكتب المجاور تجد شيخًا مسنًا يرتدى القباء والعمامة يصرف حوالة من النقود أو يرسل خطابًا مسجلًا، وعلى طول الطريق تجد صفًا من كاتبي الخطابات جالسين إلى مكاتبهم في غير قلق أو ضيق في انتظار عملائهم من غير المتعلمين.

أما الشوارع، فإنها تصخب بعربات الأتوبيس والترام، وتضج بالأصوات المزعجة المنبعثة من أبواق السيارات، وأما هؤلاء الذين يجلسون تحت المظلات على المقاعد فإنهم ليسوا من الأوروبيين، وإنما هم مصريون، لفيف من الأفندية والكتبة والتجار والمشايخ، وهم عادة من الفلاحين الغفل الذين أتوا إلى المدينة لقضاء بعض المصالح، وركبوا من بولاق أو قصر النيل.

وأما أفاريز الشوارع – وهي دائما غير ممهدة وملطخة بالأوحال بخلاف الطرق التي تعني بتنظيفها الفتيات الصغيرات – فإنها تشهد مزيجًا عجيبًا من العناصر الشرقية والغربية، وعلى الأخص اليونانية والألمانية والإيطالية، فالنساء السودانيات المتحجبات بالبراقع الناصعة البياض التي لا تكشف إلا عن حواجبهن القاتمة وعيونهن السود، والفتيات المصريات في أرديتهن الزرق وبراقعهن السود التي تتدلى في غير إحكام وتكشف عن الرقبة الجميلة والوجنة اللطيفة ولا تحجب إلا الفم – ذلك الجزء الذي تعمل جميع نساء الشرق على إخفائه – والبدو وقد أخذوا يذرعون الطريق وحول رءوسهم الكوفيات المخططة، وقطار الجمال المحكمة الوثاق المحملة بالبرسيم – علف الدواب الأول في مصر– يسوقها صغار الصبية، وكتبة الحكومة الأصاغر، أو الأفنية، وقد ارتدوا الحلة الإسلامبولية والطربوش وامتطوا ظهور الحمير – كل هذه الطبقات المختلفة يتكون من مجموعها جمهور متدفق محتشد، ولكن على جانب من دماثة الخلق. كما أنك تستطيع أن تشم هنا وهناك رائحة الشرق الخاصة التي تتضح أمارتها في كل مكان.

وحتى الأحياء الأوروبية لا تزال تصادف فيها مناظر الشرق وتسمع أصواته، فأنت إذ تطل من نافذة غرفتك في الفندق الذي تقيم فيه، تشاهد رجلًا جائلًا ينشد على ربابته أنشودة، ويحمل إليك أنغام البلد الأصيل. ثم لا تلبث أن تسمع أصواتًا أخرى كأصوات الأطفال الرضع تنبعث من صنوج «الشربتلي» الجوال الذي يحمل على جنبه إناءً زجاجيًا كبيرًا يصب منه شرابًا من الأرز «السوبياء» أو من عصير البرتقال، في تلك الأوعية النحاسية التي لا ينفك يوقع عليها بين لحظة وأخرى بدون ملل، أجراسًا وأنغامًا تسترعي أسماع المارة.

وفي الهزيل الأخير من الليل لا تعدم أن تسمع من أصوات الشرق ما يقض عليك مضجعك. من ذلك تلك النغمات التي تنبعث من قرع الطبول وتنبئك بأن حفلًا للزواج يجوب شوارع المدينة. وإذ تأخذك الرغبة أو حب الاستطلاع. في استجلاء الأمر، حينئذ تشاهد لونًا من تلك الألوان التي تصطبغ بها مدينة القاهرة، والتي يمتزج فيها القديم بالحديث بصورة تدعو إلى الدهشة. وفي بعض الأحيان قد ينضم إلى هذا الاحتفال بالزواج احتفال آخر بالختان مراعاة للاقتصاد، فتجد موكبًا حافلًا تتقدمه علامة الحلاق الذي يقوم بعملية الختان، وهي عبارة عن إطار خشبي مرفوع إلى أعلى يتبعه اثنان أو ثلاثة من الجمال المحملة بأبهى الأشياء وأحسنها، والتي تستأجر في مثل هذه المناسبات، ويجلس على كل من هذه الجمال طبال. وهذه الجمال من شأنها أن تمهد الطريق لما يتبعها من عربات مملوءة بصغار الأولاد كل واحد منهم ممسك بمنديل نظيف

ناصع البياض وضعه على فمه ليقيه من الشيطان ويحفظه من العين الشريرة!

ثم تأتي عربة منفصلة مغطاة من كل جانب بشال كبير مصنوع من الكشمير، يمسك به من أسفل ويعمل على إحكامه إخوة العروس المحبوسة وغيرهم من الأقارب، ويتبع ذلك عربات أخرى تحمل سائر جمهور المشاركين في الفرح والسرور، وقد يحدث في بعض الأحيان أن تحمل العروس في هودج مغطى بشال كشمير ومحمل على جملين يسير أحدهما خلف الآخر. وتكون رقبة الجمل الخلفي تحت الهودج، ومن ثم يكون في حالة لا يحسد عليها من عدم الراحة، شأنه في ذلك شأن العروس نفسها التي تصاب في العادة بدوار يشبه دوار البحر من جراء حركات الهودج التي لا تنقطع.

وقديمًا كانت العروس تسير في الطرقات تحت مظلة يحملها أصدقاؤها، أما الآن فلم يعد ذلك من التقاليد، بل إننا نجد العربات الأوروبية تحل حتى محل الهودج. أما الشال المصنوع من الكشمير وكذلك الخمار فلن يزولا سريعًا.

ومما يلاحظ على المرأة المصرية أنها في العادة – أو على الأقل حينما تظهر في المجتمعات– متواضعة إلى حد كبير. فهي تختلس نظرة إلى الغريب في سرعة سحرية حتى ولو بدا للجميع أنها تنظر إلى الناحية الأخرى من الطريق. وفي الحال نجدها تُحكم وضع النقاب على فمها وأنفها. وإذا ما أتيح لها أن تلقاك وجهًا لوجه، فإنها لا تسبل عينيها

الواسعتين كما تفعل الغربيات، وإنما تحولهما عنك في بطء يأخذ بمجامع القلوب.

وحالما تترك الحي الأوروبي حيث الفندق الذي تنزل فيه وتبتعد عن واجهات المحال التجارية والتجار اليونانيين في شارع الموسكي، تبدو المدينة الشرقية لك على حقيقتها ويأخذ سحرها يتسلط عليك. وإنه لمن السهل تمامًا أن تضل الطريق في ثنايا شوارع القاهرة الإسلامية القيمة، حتى إنك لا تستطيع أن تستدل على الطريق إلا بمعاونة أحد المارة، إن جانبًا كبيرًا من القاهرة لم يطرأ عليه فساد يُذكر، فهي مازالت إلى حد كبير مدينة «ألف ليلة وليلة».

وفي أحد الأركان تجد حانوتًا فيه حلاق شيخ يباشر عمله وهو يسرد مغامرات إخوته التعسين على من يسوقه سوء الحظ إلى الجلوس على كرسيه. وفي تلك اللحظة نفسها قد تجد ثلاثة من الشحاذين يقومون بتسلية البوابة وأخواتها الجميلات ويقصون كيف أن المصائب كانت تلاحقهم على الدوام.

وإن أنت انتظرت حتى يرخي الليل سدوله فإنك قد ترى هارون الرشيد الطيب بنفسه – على الرغم من أنه عاش حقًا في بغداد– وهو آت في إحدى جولاته الليلية الخفية، يصحبه جعفر الوزير ويتقدم الاثنين مسرور الخادم ليفسح لهما الطريق. ومن السهل علينا حينما نجد أنفسنا في تلك الشوارع البعيدة عن الأحياء الأوروبية، أن نتصور أننا نقوم بدور تمثيلي في رواية «ألف ليلة وليلة»، تلك الرواية التي تعطينا وصفًا دقيقًا للقاهرة وسكانها كما كانت في العصور الوسطى وكما هي الآن إلى حد

كبير، ومما يسهل علينا ذلك التصور ذلك التهدم الذي نراه في كل مكان، فالمنازل الشرقية المتداعية التي لا يفكر أحد في إصلاحها، هي بطبيعة الحال مساكن العفاريت والجن التي تبعد عنها كل ساكن يخشى الله. غير أنه قد يكون هناك أحيانًا في المباني المتهدمة من الآثار ما يعود بنا إلى العصر الذهبي للفن والثقافة العربية. فالجوامع والمدارس وبقايا القصور المتهدمة كلها أمثلة بينة لما كانت عليه الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة الأرجاء من تقدم في فن البناء في حقبة من الزمان.

حقيقة إن دمشق وأصبهان وأجرا ودلهي وقرطبة وغرناطة وبروسة والقسطنطينية، كلها تملك الكثير من عناصر الفن ومظاهر أساليبه مما تفتقر إليه القاهرة، وهي توسع وتكمل معلوماتنا عن الفن العربي، غير أننا لو نظرنا نظرة خالصة إلى ذلك الفن من حيث نقائه دون أن تفسده الزخرفة الآلية كما حدث في قصر الحمراء، أو الزخرفة الزائدة عن الحاجة كما نشاهده في دلهي، لوجب علينا أن نقوم بدراسة جوامع القاهرة ومشاهدها.

ومن حسن الحظ أن تحفظ الشرق قد أبقى لنا على الجانب الأكبر من المدينة القديمة بما تحويه من أطلال رائعة برغم عدم تنسيقها. وهناك بطبيعة الحال منازل جديدة ووجهات أعيد بناؤها بل وإطارات النوافذ من الزجاج. فالمشربيات الفاخرة بصنعها المعقد المتقن قد اختفت جميعها تقريبًا وبدأ يحل محلها ذلك الطراز الإيطالي الحديث، كذلك تلك المقاعد

الحجرية التي كانت أمام واجهات المحال التجارية قد اختفت تمامًا وحلت محلها المواقف الجديدة للعربات.

غير أن الصبغة العامة للشوارع لم تتغير تغيرًا جوهريًا في السنوات الأخيرة، فالناس الذين يزدحمون في الأزقة الضيقة أو يجلسون في حوانيتهم الصغيرة لاستقبال زبائنهم، كل هؤلاء لم يطرأ عليهم تغيير كبير، فهم يلبسون كما كان يلبس أسلافهم منذ أجيال، كما أن أفكارهم وثقافتهم لم تتعد ما كانت عليه أفكار أسلافهم وثقافتهم، على الرغم من أن المدارس الجديدة تعمل دائمًا على نشر الأفكار الحديثة. ومع هذا فهم لا يزالون على ما عُرف عنهم من اللين والوداعة اللتين عرفوا بهما من قبل.

أما التغيير الحقيقي، فإنه يتجلى لنا في اختفاء الشبك، ذلك الأنبوب الطويل، الذي يحوى الطباق وغيره من الأعشاب، والذي كان يستخدمه الناس كضرورة من ضرورات الكيف، وإحلال اللفائف محله. هذا ولا تزال أنابيب جوز الهند «النارجيل» تستخدم حتى الآن لتدخين الحشيشة بين الطبقات الدنيا.

ويلاحظ أن التجار يمثلون العنصر المحافظ في مصر كما هو الحال في كل بلد آخر، أما الطبقات الراقية فإنها تتحرر من شرقيتها عامًا بعد عام في عاداتها ومظهرها الخارجي، ذلك أننا نراهم يرقصون مع الراقصات «الكافرات» ويرتدون الملابس الإفرنجية وينعمون بمشاهدة المسرحيات الفرنسية الصغيرة التي تمثل في حديقة الأزبكية، بل إن الأقداح التي يشربون فيها القهوة تصنع في أوروبا.

ولولا الطربوش الأحمر وبعض الصفات العقلية والخلقية التي يتميزون بها – والتي لا محل لذكرها هنا – لكان من الممكن أن يبدو الرجل المصري كما يبدو الفرنسي للجمهور الباريسي كأنه واحد منهم، فالتاجر إذن هو الذي يحمل الماضي إلى أذهاننا، وهو الذي يحافظ على العادات والتقاليد القديمة، وهو الذي يمشي في الأزقة القديمة.

إن ما يحدث في سائر أنحاء العالم لا يحدث عادة في الشرق إلا فيما ندر. وبينما أخذ موكب التقدم والرقى يسير بخطى واسعة في الغرب، إذا بالتاجر القاهري لا يحرك ساكنًا ولا يحاول على الإطلاق أن يلحق به.
وسنحاول الآن أن نلقي نظرة على هذا المخلوق الساكن وهو في إحدى طرقات القاهرة المهمة، فنحن إذ نترك الحي الأوروبي وراء ظهورنا، ولا نهتم كثيرًا بتلك الحوانيت اليونانية والإيطالية في الموسكي الجديد، حينئذ نتجه يمينًا إلى الغورية وهي من أكبر شوارع القاهرة، ولو أنها من الأزقة التي يطلق عليها شوارع أو طرق عامة، فمثل هذا الشارع تجد على جانبيه حوانيت صغيرة هي أشبه ما تكون بالصناديق، وهي في الوقت نفسه تكون حدود الشارع في صورة منظمة وغير منقطعة، اللهم إلا حينما يعترضها مدخل أحد المساجد، أو إحدى الميضآت العامة، أو تقاطع شارع آخر، حينئذ فقط يخرج صف الحوانيت على نظامه الدقيق. غير أنه ليس هناك مدخل خاص أو نافذة مما اعتدنا أن نشاهده في أوروبا من شأنه أن يشذ فيفسد منظر الحوانيت المصطفة. ثم إنك تجد بضعة حوانيت متجاورة ولمسافة طويلة يتجر أصحابها في نفس السلعة، فلتكن هذه سكر نبات وتلك أحذية الغرفة «شباشب».

ولاشك أن لهذا النظام مزاياه، فإذا كان أحد التجار يبيع بأسعار مرتفعة، فقد تجد جاره يبيع بسعر أرخص منه، ثم إن التنافس المستمر بين التجار المتجاورين من شأنه أن يؤدي إلى خفض كبير في الأسعار. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يجب أن نعترف بأنه ليس أشق علينا من أن نشتري الرداء من ستة حوانيت في أماكن مختلفة، فنشتري القماش من مكان، والأزرار من مكان آخر، والخيط من مكان ثالث، والبطانة مكان رابع، ثم نضطر إلى المسير إلى مكان آخر مختلف تمامًا حيث نجد خياطًا لتفصيل هذا القماش وصنع الرداء المطلوب منه. وإذا كان من الضروري أن نساوم كل بائع من هؤلاء، وقد تصل المساومة إلى حد شرب القهوة أو التدخين مع البائع، فإننا نستطيع أن نضع أنفسنا في عداد الأشخاص المشهود لهم بالنشاط وسرعة البت في الأمور إذا استطعنا أن نشتري رداءً على هذا النحو في صبيحة يوم واحد.

وفي واحدة من تلك الخزانات التي تقوم مقام الحوانيت، قد نجد ذلك التاجر الذي نبحث عنه وقد لا نجده، فقد يتصادف أنه ذهب ليؤدي فريضة الصلاة، أو ليزور صديقًا له، أو ربما لم يشعر بالميل للعمل في ذلك اليوم، وفي إحدى هذه الحالات نراه يغلق مصراع النافذة. ولما كان لا يسكن بالقرب من متجره، وحتى لو كان كذلك، فليس ثمة جرس أو باب خاص أو مساعد يمكن أن يدلنا عليه. وعلى ذلك فإن علينا أن ننتظر هناك إلى ما شاء الله، حيث نسأل ولا من مجيب.

وقد يخبرنا جاره التاجر في لطف وأدب بأن ذلك الرجل الممتاز الذي نسأل عنه قد توجه إلى المسجد. وحينئذ قد نتعرف إلى هذا التاجر الجديد ونطلب منه ما جئنا لنطلبه من زميله.

إن صديقنا الجديد هذا يجلس في مكان يبلغ كل من طوله وعرضه خمسة أقدام، أما ارتفاعه فقد يتجاوز ستة أقدام بقليل، والمكان كله يرتفع عن الأرض بمقدار قدم أو قدمين. ومن الغريب أن صاحبنا استطاع في مثل هذا النطاق الضيق أن يضع جميع السلع التي يظن أنه يستطيع بيعها، كما أنه استطاع أن يترك مكانًا لنفسه ولعملائه حينما تصل المساومة معهم إلى حد الجلوس وشرب القهوة والتدخين.

وبطبيعة الحال إن ما يودعه هذا التاجر في متجره لابد أن يكون محدودًا جدًا، غير أن زملاءه التجار على استعداد لأن يقدموا إليه يد المساعدة على الدوام. وأنت حينما لا تستطيع أن تجد ما تحتاج إليه في حدود جدرانه الأربعة، فإنه لا يعدم أن يدعك تذهب بعد أن يكون قد قدم إليك إبريقًا من الشاى العجمي، بينما يذهب هو ليأتي إليك بطلبك من عند أحد زملائه التجار المجاورين.

وبينما أنت تشرب القهوة ذات النكهة العطرية وتشاهد الجموع المحتشدة من المارة، إذا ببضعة جمال محملة بالدريس أو التبن أو البرسيم تمشي بخطوات متثاقلة، حتى أنه ليخيل إليك أنها سوف تنتزع كل شيء وكل شخص من مكانه، وتجد سكان المدينة المحترمين راكبين حميرهم الشهب أو السمر، وأولئك الصبية الذين لا رحمة ولا شفقة في قلوبهم

وهم يجرون وراءها، فيحملون هذه الحيوانات على أن تسرع في السير يمنة أو يسرة وهي تلتوي في غير هوادة كما لو كان قد وضع في وسطها مفصلة كمفصلة الباب.

أما السراة فإنهم يركبون العربات التي يجرها جوادان، ومن أمامهم عداءون يلهثون من فرط التعب ويفسحون لساداتهم الطريق، وهم ينادون بكل ما أوتوا من قوة وصوت مرتفع: «شمالك يا ولد!» «يمينك يا ست!»، «افتح عينك يا عم!» وما إلى ذلك.

وتجد النساء وقد حملن فوق رءوسهن الصينيات ومن فوقها ألوان الطعام، والسقاء وقد حمل تحت ذراعيه الماء في قربة مصنوعة من جلد الماعز، كما تشاهد جمهورًا آخر محتشدًا من الرجال والنساء قد ارتدوا جميعًا رداءً أزرق اللون وجاءوا ليقضوا بعض الحاجات، غير أنهم يسيرون ويقضون حاجتهم في تأنٍ ومهل، فعلى الرغم من أن الجمهور قد يبدو محتشدًا متدفقًا في جملته إلا أنه يتحرك في بطء، شأنه في ذلك شأن كل شيء في الشرق.

ثم يعود صاحبنا التاجر يحمل الشيء الذي ذهب للبحث عنه عند زملائه التجار، فنتقبله بادئ الأمر ولكن في شيء من الحذر، ثم لا نلبث أن نسأل ذلك السؤال المعهود: «كم ثمنها؟» فيكون الجواب عادة ضعف الثمن المعتدل، ومن ثم نعقب على ذلك الثمن الباهظ بقولنا «ياالله!» «من فداحة الثمن»، ثم لا نلبث أن نقترح ثمنًا يكون في العادة نصف الثمن الذي طلبه التاجر، غير أن صاحبنا يهز رأسه، وينظر إلينا في شيء

من اليأس وعدم الرضا! ويقول لنا إنه لم يكن ينتظر مثل هذا القول من أناس في مثل مظهرنا، ثم يضع السلع جانبًا ويجلس ليشعل سيجارة جديدة. وبعد مساومة أخرى غير مجدية، ننادي صاحب الحمير ونتأهب للرحيل. حينئذ يلين جانب التاجر ويعرض علينا ثمنًا أقل من ذلك ونأخذ في الابتعاد فعلًا، فيتبعنا ويبدى شيئًا من الموافقة على الثمن الذي عرضناه عليه، وهنا نعود إلى المتجر، وندفع الثمن ونتسلم ما اشتريناه، ثم ننصرف بعد أن ندعو الله أن يحفظه.

أما إذا لم يصل بنا الاتفاق إلى ما تقدم، فإن المساومة قد تستمر حتى نصل إلى مترل صاحبنا التاجر. وهذا المترل هو في العادة صورة لما عليه منازل الطبقة الوسطى في القاهرة. والواقع أن مسكن الطبقة الوسطى في القاهرة قد يتصادف أن يكون في بعض الأحيان بمثابة قصر من القصور، ونحن في العصر الحاضر نجد الباشا يحتقر قصور النبلاء التي كانت في أيام المماليك موضع فخر وإعجاب كثير ممن هم أحسن منه. ونراه يؤثر الإقامة في «شارع رقم ٢٩»– ذلك الطريق الذي لا ظلال فيه – أو هناك حيث المنازل الحديثة المصنوعة من القرميد، والتي تشبه الجنان وتعرف بحي الإسماعيلية. وهنا قد تجد التاجر يشغل في بعض الأحيان مترلًا من المنازل التي كان يسكنها أحد البكوات الكبار في وقت من الأوقات، أولئك البكوات الذين كانوا يأمرون أتباعهم بالاصطفاف حينما يقتضي الأمر توجيه ضربة قاضية للوصول إلى العرش المتداعي الذي كان يقع دائمًا في أيدى قواد أقوى الفرق.

ولكن جميع منازل القاهرة القديمة قريبة التشابه إلى حد كبير، ولكنها تختلف من حيث الحجم وكثرة الزخارف أو قلتها. وإذاكان منزل صاحبنا التاجر أفضل من معظم المنازل المجاورة له، فما علينا إلا أن نتخير غرفة أو غرفتين من الغرف الفاخرة فيه نضاهي بينها وبين غرف المنازل الأخرى، ليتكون لدينا فكرة واضحة عن ذلك المنزل.

إن الشارع الذي ندخله الآن يختلف كل الاختلاف عن ذلك الذي تركناه. فلقد كنا منذ لحظة وجيزة نطوف لنشتري من هذه الحوانيت، حيث نشترى السلع الرخيصة في أحد أنحاء القاهرة المزدحمة، والتي تواجه ذلك البناء الفخم لجامع السلطان المؤيد المملوكي، ذلك الجامع الذي تقوم مئذنتاه على باب قديم بديع «باب زويلة»، ولو أن الناس في الوقت الحاضر يطلقون عليه عادة «باب المتولي»، لأنهم يعتقدون أنه كان فيما مضى مقرًا «للقطب المتولي» زعيم الأولياء في ذلك الوقت، والذي يحوط حياته شيء من الغموض والإبهام. وهذا الولي المقدس له قدرة عجيبة في التنقل من مكات إلى آخر بحيث يكون خافيًا على الأنظار، فهو يطير دون أن يراه أحد من أعلى الكعبة في مكة إلى باب زويلة، وهناك يستقر في مخدع خلف الباب الخشبي.

والمؤمنون بهذا الولي يسبِّحون وهم يمرون بجانب هذا المخدع على حين يدفع غيرهم الفضول إلى أن يختلسوا النظرات ليتحققوا هل الولي هنالك حقًا. وإذا انتابك صداع فليس من علاج ناجع إلا أن تدق مسمارًا في الباب. والعلاج المحقق لألم الأسنان هو أن تنتزع السن الذي

يسبب لك الألم وتضعه في نفس تلك البقعة المقدسة. ولربما كان انتزاع السن أو الضرس في حد ذاته علاجًا للألم. غير أن الإيحاء يشتم منه رائحة الكفر والإلحاد. ومن ثم فإنه من الأفضل على أى حال أن ينتزع الضرس ويثبت هناك، حيث تجد الباب يحفل بالكثير من النذور من أمثال هذه الأشياء الغريبة وغيرها. ولو كتب لهذه النذور جميعها النجاح لكان هذا القطب طبيبًا بارعًا من غير شك.

وهذا الشارع الذي يعترضه باب زويلة عريض بالنسبة لمدينة القاهرة، ويحده الحوانيت والجوامع والخانات والميضات، وعلى عكس هذا تمامًا تجد الشارع الذي ندخل فيه الآن، حينما نطوي زقاقًا ضيقًا، ثم ننحرف فجأة نحو اليسار، وهذا الشارع خالٍ من الحوانيت، ولو أن به جامعًا صغيرًا، لعله ضريح أحد الأولياء الموقرين، ويقع في أحد الأركان، وقد طُليت جدران هذا الضريح بمختلف الألوان من أصفر وأحمر أو أبيض وأزرق مما يضفي كثيرًا من البهجة على الزقاق الذي يقع فيه.

أما جانبا هذا الطريق الضيق فإنهما يتكونان من جدران المنازل الخلفية العالية البيضاء اللون، والتي ليس عليها شيء على الإطلاق سوى النوافذ المنقوشة القريب بعضها من بعض. وهذا الطريق الضيق يتفرع منه بين الفينة والفينة زقاقات أخرى أضيق منه، تمتد إلى مسافات بعيدة في مدينة القاهرة، وفي أفنية هذه الدور تكثر المشربيات، على حين لا تجد الكثير منها في الطرق الواسعة الآهلة بالسكان، فالسكان في العادة يحتفظون بالمشربيات الجميلة لنوافذ المنزل الداخلية التي تطل على الفناء أو الحديقة. ولكن في الوقت نفسه نرى في القاهرة شوارع غير قليلة

حيث يقف المارة ويتأملون صفوف المشربيات البديعة التي تضفي على المنازل بهجة وبهاءً.

واسم «المشربية» مشتق من الأصل وهو الفعل «يشرب»، ثم استُعمل للنوافذ المصنوعة من الأعمدة الخشبية الرفيعة المشتبكة، وذلك لأن أوعية الماء ذات المسام المصنوعة من الفخار كثيرًا ما توضع عليها حتى تبرد بفعل الهواء، وفي أغلب الأحيان تجد هنالك مشكاة صغيرة نصف مستديرة تبرز من وسط المشربية لتوضع فيها «القلة» أو الإبريق. والقطع الصغيرة الدقيقة التي تتكون منها المشربية، يقترب بعضها من البعض الآخر بحيث لا يستطيع الجيران أن يروا من خلالها أى شيء في داخل المنزل، غير أنها تحتوي في الوقت نفسه على مكان كافٍ يسمح بتخلل الهواء إليه.

فالمشربية في الواقع مكان رطب للإنسان كما هو بالنسبة لقلال الماء. كما أن الجالس فيها يمكنه أن يرى الناس بالشارع من حيث لا يرونه، فتستطيع نساء «الحريم» أن يشاهدن المارة دون أن يتمكن هؤلاء من رؤيتهن. ومع ذلك فهناك نوافذ صغيرة مناسبة في المشربية يمكن فتحها إذا رغب أصحابها في ذلك. وليس جميع نساء القاهرة الجميلات ممن يدعن المارة يمشون في الطريق دون أن يأخذهن الزهو بأنفسهن فيفتحن النوافذ ليرى هؤلاء المارة أنهن جميلات حقًا.

وفي بعض تلك الحارات الضيقة نجد أنفسنا أمام مدخل دار يعلوه قوس، وهنا ننزل من على الحمار ونقيده في حلقة قريبة. والباب الذي

نقف أمامه خليق بالدرس في حد ذاته. فالجزء العلوي منه تحيطه النقوش العربية التي يتكون من مجموعها مربع مزركش في أعلاه. وهذه الزخارف تكسب الباب في العادة صورة بديعة رائعة إذا قيست بالأبواب القديمة. وفي بعض الأحيان نجد على الباب الخشبي نفسه بعض النقوش العربية، وقد نقش عليه «الله الخالق الصمد» لتبعد المرض والشياطين وعيون الحساد، وتذكر رب الدار بالموت كلما عاد إليه، وليس هناك ناقوس، لأن النبي قد أعلن أن الناقوس آلة الشيطان الموسيقية، وأنه لا يمكن أن تكون هناك ملائكة في مكان به ناقوس. وفي بعض الأحيان لا يكون للباب حلقة فنضطر إلى قرع الباب بيدنا أو بعصا؛ وفي العادة قد يستمر القرع بعض الوقت حتى يسمع سكان المترل، وهذه بلاد لا يعرف من عليها للعجلة أو للإسراع أى معنى.

ألم يقل سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) إن العجلة من الشيطان؟ وعلى هذا فإننا نسير وفق ما جرت عليه الأمور في هذه البلاد، ونواسي أنفسنا بتلك الآية الكريمة التي تقول «إن الله مع الصابرين»، وفي نهاية الأمر نسمع صوتًا غريبًا من الناحية الأخرى. إنه بواب الدار قد أخذ يحاول معالجة الباب، فهو يحمل قضيبًا صغيرًا به أسنان نحاسية مرتبة ترتيبًا خاصًا، ويحاول أن يدخله في ثقب في طرف المتراس، ومن هذه يتكون القفل والمفتاح في القاهرة.

وفي داخل الدار ممر ينعطف فجأة بعد خطوة أو خطوتين، ويحول دون مشاهدة أى شيء في الداخل وأنت بالباب الخارجي. وفي نهاية هذا

الممر نجد أنفسنا أمام فناء متسع به بئر للمياه المالحة في أحد الأركان الظليلة. وفي أغلب الأحيان نجد شجرة عتيقة للجميز. وفي هذا المكان لا نتلمس دليلًا على أن ثمة حياة. فالأبواب مغلقة في إحكام إمعانًا في الغيرة والحذر، والنوافذ تحجبها تلك الستائر الخشبية البديعة التي تروق عين الفنان، وتغري الكثير من الغواة باقتنائها، والفناء الداخلي لا يقل في هدوئه وسكونه عن تلك الأجزاء التي تطل على الشارع نفسه.

وهنا لا نرى أية علامة لحياة هؤلاء السكان المترلية، لأن غرف النساء منعزلة تمامًا عن هذا الفناء ولا تطل عليه، إنما تطل عليه غرف الرجال وحجرات الاستقبال وما إلى ذلك. والواقع أن هذا المكان الهادئ منعش جدًا حينما يأوى إليه المرء بعد أن قاسى الكثير من الجلبة والصخب في الشارع. حينئذ يشعر المرء أن المهندسين المصريين قد أدركوا لحسن الحظ ما تقتضيه الحياة في الشرق. فهم يجعلون الشوارع ضيقة، ويظلوها بالمشربيات البارزة حتى لا تصل أشعة الشمس المحرقة إليها، كما هو الحال في شوارع المدن الأوروبية الواسعة، حيث تستطيع أشعة الشمس أن تنفذ إلى هذه الدور، ولكنهم يجعلون المنازل نفسها فسيحة الأرجاء، ويحيطوها بالحدائق والأفنية، لأن حرارة الشمس لا تطاق في الغرف في أثناء الصيف ما لم يتخللها الهواء. إن فن المهندس الشرقي يتلخص في أنه يبني لك مترلك بحيث لا تستطيع أن ترى شيئًا من خلال نوافذ جارك وبحيث لا يستطيع جارك في الوقت نفسه أن يرى شيئًا مما يدور خلف نوافذ مترلك.

والطريق الواضح للوصول إلى هذه الغاية، هو أن تكون الحجرات بحيث يحيطها فناء واسع فسيح الأرجاء، وأن تكون النوافذ محتجبة بالستائر الخشبية المتشعبة التي تسمح لقبس ضئيل من النور أن يدخل، وتدع قدرًا وفيرًا من الهواء يتخلل أجزاءها، كما يسمح بالنظر من خلال هذه النوافذ دون أن يرى الغرباء من المارة ما بداخلها، والستائر الخشبية والفناء المنعزل من شأنهما أن يعملا على تحقيق ذلك النظام الذي يحتمه الإسلام بفصل الجنسين بعضهما عن بعض.

والحجرات السفلى التي تواجه أبوابها الفناء مباشرة، هي تلك الحجرات التي يستطيع الشخص أن يمشي فيها آمنًا ولا يخشى أن يرى وجهًا لأية امرأة في البيت.

وإلى إحدى تلك الحجرات السفلى يتقدمنا مضيفنا طالبًا إلينا في أدب جم أن نوليه الشرف بأن نظهر كما لو كنا في بيوتنا الخاصة. إنها حجرة الاستقبال، أو المنظرة، وهي بمثابة أنموذج لما ينبغي أن تكون عليه الغرف في العادة. والجزء الذي ندخل منه في الحجرة منخفض عن بقية الأجزاء. وإذا كان المنزل أنيقًا حقًا، فإننا نجد هذا الجزء المنخفض مغطى بالرخام المصنوع من الفسيفساء، وفي وسطه نافورة تعمل على تبريد الهواء، وبإزاء الباب تجد قطعة مسطحة من الرخام محملة على أقواس، حيث توضع قلال الماء وأقداح القهوة وأدوات غسيل الأيدي.

ونحن نخلع أحذيتنا الخارجية ونتركها على الجزء الرخامي من الحجرة قبل أن نطأ ذلك الجزء المغطى بالبسط، وهناك تجد الأرض مغطاة

ببسط من الصوف الخشن، كما نجد بمحاذاة ثلاثة من أضلاع الحجرة «ديوانًا» منخفضًا. وفي الحائط الخلفي مشربية بداخلها وسائد مريحة، وبأعلاها نحو ستة من النوافذ مكونة من قطع صغيرة من الزجاج الملون، ومن حولها إطار من الطلاء، فتكون بذلك على شكل زهرة. وهذه النوافذ من شأنها أن تسمح لنصف الضوء فقط بأن يمر من خلالها.

أما الجانبان الآخران فمطليان بالجير، وليس بهما خشب أو قرميد، بل أعدت بها بضعة أصونة خشبية منخفضة لها أبواب صغيرة تفتح بطريقة هندسية معقدة. وعلى جانبي كل صوان من هذه الأصونة كوة صغيرة مقوسة، وفي أعلاه رف وضعت عليه الأطباق الزخرفة والأوعية وغيرها من أدوات الزينة المنقوشة. أما سقف الحجرة فيتكون من ألواح مثبتة في جذوع ضخمة، ولونه في العادة أحمر قاتم، غير أنه في البيوت القديمة تجد في السقف غالبًا بعض النقوش الجميلة، ولا نجد في الحجرة مناضد أو كراسي أو مدفآت أو أى شيء من الأثاث الذي يعرفه الأوروبي، وحينما يحين وقت الطعام، يحضر خوان صغير مستدير، وإذا كان الجو باردًا قدم موقد أوقد فيه فحم الخشب. وبدلا من الكراسي نجد القاهري يضع رجليه من تحته على الديوان ويجلس القرفصاء، تلك الجلسة التي إذا فكر الأوروبي أن يجلس مثلها أصيب بتشنج في الأعصاب.

وهناك في أغلب الأحيان غرفة استقبال أخرى مرتفعة عن الأرض، ولابد للوصول إليها من أن تصعد بضع درجات من الفناء الذي تطلب عليه

الغرفة من خلال واجهة مفتوحة ومقوسة. كذلك نجد في العادة منخفضًا في الفناء تحت إحدى الحجرات العليا به ديوان يمكن الجلوس عليه حين يشتد الحر. ومن الفناء باب يطل على الدرجات التي تؤدي إلى غرف الحريم. وهنا لا يستطيع أى رجل أن ينفذ منه اللهم إلا رب الدار.

وكلمة «حريم» معناها محرم على الرجال الآخرين ومحلل للسيد نفسه. وغرف الحريم هي الجزء المخصص للأسرة من الدار، هناك يجد الرجل نفسه وسط أسرته حينما يعود إلى منزله طلبًا للراحة من عناء عمله.



فناء منزل

وإنه لمن العسير عليك حقًا أن تحاول إقناع البواب بأن يستدعي لك سيده في تلك الفترة مهما كان الأمر الذي جئت من أجله إلى هناك. وفي جناح الحريم تجد في العادة حجرة كبيرة للجلوس تشبه المنظرة تسمى «القاعة»، وكثيرًا ما تكون هناك قبة في أعلى هذه القاعة. وأمام القاعة دهليز يستخدم للتهوية، إذ أن الستارة التي تتدلى من فوق مكان مفتوح في سقف هذه الحجرة، تحول نسمات الريح الشمالية الباردة وتدفعها إلى داخل المنزل حين يشتد الحر. وهنا كثيرًا ما ينام أفراد الأسرة خلال فترة الصيف.

وليس في المترل الإسلامي حجرات خاصة للنوم، أو على الأخص حجرات بها أثاث للنوم كما هو معروف عندنا الآن، ذلك أن هناك حجرات كثيرة منفصلة يمكن أن ينام فيها أهل البيت، ولكن لم تكن أى واحدة من هذه الحجرات قد أعدت لتكون خاصة للنوم أو أن بها أثاثاً خاصًا به. وكل ما يلزم القاهري في أثناء الليل حشية ومخدة، وربما احتاج الأمر إلى بطانية في الشتاء وناموسية في الصيف. وكل هذه الأشياء يطويها في الصباح ثم يودعها في خزانة خاصة أو في حجرة جانبية. وعند ذلك تتحول حجرة النوم فجأة إلى غرفة للجلوس.

وثمة جانب آخر مهم في جناح الحريم هو الحمام، وهو ليس عبارة عن حجرة خاصة بها مغسل للاستحمام مثبت فيها، وإنما يتكون من عدة حجرات بعضها في داخل بعض، وهذه الحجرات مصنوعة من الحجر الذي يُسخن بطريقة خاصة معقدة. وهذا الحمام أشبه ما يكون بالحمام التركي العام. وهو ليس إلا بيتًا كبيرًا يتمتع بهذا الترف، ويخرج أكثر

الناس إليه للاستحمام إذا أبدوا ثمة اهتمامًا بالاستحمام.

ويعيش سكان مثل ذلك البيت الذي وصفناه على وتيرة واحدة تثير الكآبة والملل. رغم أنهم لحسن الحظ قلما يشعرون بأن حياتهم خاوية موحشة. فإن رب البيت يستيقظ مبكرًا جدًا، لأن المسلم لابد أن يؤدي صلاة الفجر. وكل ما يطلبه قبل أن يتناول طعام الإفطار- الذي يكون خفيفًا في العادة - هو الشيشة وقدح من القهوة قبل وجبة الغداء الخفيفة. وهو عادة يدخر شهيته للطعام للوجبة الأساسية التي يعتمد عليها، وهي وجبة العشاء التي يتناولها في العادة حالما تغرب الشمس. أما إذا استلزم منه عمله أن يتغيب عن المنزل يومًا أو بعض يوم، فإننا نراه يباشر عمله في محله، وهو يدخن بلا انقطاع تقريبًا، إما اللفيفة التركية التي اخترعت حديثًا أو الشبك التقليدي ذا الفم البديع المصنوع من العنبر، والجذع الطويل المصنوع من شجر الكرز، والجفتة من الفخار الأحمر المملوءة بالطباق الخفيف الجبلي.

أما إذا لم يكن لديه عمل خاص يشغله، فإنه يروح عن نفسه بزيارة أصدقائه، أو بالجلوس ساعات طويلة حالمة في ذلك الجو الدافئ في الحمام العام، حيث البخار المتصاعد من الأحواض التي يغلى فيها الماء، وارتخاء المفاصل عند تدليكها، وما يتلو ذلك من الاستراحة التي يتخللها الترطيب والتدخين وشبر القهوة، كل هذا له لذته الفائقة في الجو الحار.

وإذا كان الرجل على جانب من الجاه أو المركز فلا يمكن أن يمشي على قدميه على الإطلاق، بل إنه في العادة يركب حمارًا، أو حصانًا في بعض الأحيان، غير أن الحمار أكثر ملاءمة في الشوارع المزدحمة. وفي الواقع إننا

نجد في الحمار المصري الأصيل حيوانًا بديعًا قد يصل ثمنه في بعض الأحيان إلى مائة جنيه، فخطواته سريعة ومريحة في نفس الوقت. وليس من الصعب أن نكتب خطابًا على قربوس سرج أحد هذه الركائب الحسنة المشية.

وبينما يكون رب البيت في مقر عمله أو في إحدى زياراته، نجد نساء المنزل يعملن لتمضية الوقت في أحسن صورة ممكنة، وعلى الرغم مما هو شائع في كل مكان، فإن المسلم قلما يتزوج بأكثر من امرأة واحدة، ولو أنه قد تكون له في بعض الأحيان علاقات أخرى مع فتاة حبشية أو جارية أخرى. ومع ذلك فإن جهودًا كثيرة تبذل الآن في سبيل مكافحة تجارة الرقيق، وإذا ما تمخضت هذه الجهود حقًا عن نجاح تام في القضاء عليها، مع أنها مباحة شرعًا، فإن القاهري لن يتزوج بأكثر من واحدة. وكان الخديو السابق نفسه قدوة حسنة في هذه الناحية، شأنه في غيرها من النواحي.

والواقع أن هناك كثيرًا من المسلمين لهم مثل أخلاق المسيحيين في هذه الناحية. وسهولة الطلاق هي مشكلة المشاكل، حقيقة إن الرجال لن يحتفظوا بزوجات عدة، لأن هذا من شأنه أن يكلفهم الكثير في الإنفاق على منازل منفصلة أو منزل واحد ذي غرف متعددة. هذا غير أن تعدد الزوجات لا يؤدي إلى الانسجام المنزلي. غير أن الواحد من هؤلاء لا يتردد أن يطلق زوجته إذا تطرق إليه الضجر منها، ويستبدل بها زوجة أخرى جديدة تحل محلها. ولقد قيل إن الخليفة عليا استطاع أن يتزوج

ويطلق مائتى امرأة في حياته، بل إنه حدث في بغداد أن ارتفع هذا الرقم العجيب على يد أحد رجال الصباغة فيها إلى رقم أعجب منه، إذ تزوج تسعمائة امرأة، وقد توفي هذا الرجل في سن الخامسة والثمانين، ولو أنه تزوج في سن الخامسة عشرة لكان زواجه قد أصبح بمعدل مرة في كل شهر طوال فترة السبعين سنة التي قضاها في الزواج. لقد كان الطلاق عند هذا الرجل من السهولة بحيث إنه لم يكن يرى أى ضير في الزواج من تسعمائة امرأة. ولقد قيل كذلك إن امرأة تزوجت من أربعين رجلًا، وإنها خففت من متاعب الاحتفال بزواجها إلى أقل حد، وإن ابنها قد تملكه الألم حينما حار في التعرف على أبيه، ولم يكن أحد أمراء الصعيد في مصر بأقل من هؤلاء في هذا المضمار، غير أن تلك العادة قد أمست في طريقها إلى الزوال «١».

ولعلنا نلتمس للنساء في هذه الناحية عذرًا أكبر من الرجال. فبينما يستطيع الزوج أن يسعى وراء سعادته هنا وهناك، إذا بالمرأة لا تغادر المنزل أو تنحرف عنه بل تعيش عيشة مملة على وتيرة واحدة، حقيقة إنه قد يحدث في بعض الأحيان أن تجتمع النساء في الحمام العام ويأخذن في الضحك والمرح، وإن الصيحات التي تنبعث في أثناء الضحك تحمل الدليل على روح المرح التي تتميز بها الفتاة المصرية، وقد تخرج السيدة أحيانًا في جلال وأبهة لتزور بعض صديقاتها، فتركب حمارًا كبيرًا وترتدي ملاءة واسعة من الحرير الأسود، وتحجب وجهها عدا عينيها، بحجاب أبيض اللون، وهي تسير، وبرفقتها خادم أمين. وهذه الزيارات التي يتبادلها الحريم هي كل ما تظفر به المرأة القاهرية من مباهج وسرور.

هنالك تسمع ثرثرة لا حد لها، كما تشاهد ألوان الحلوى وتتفقد أدوات الزينة. وفي بعض الأحيان قد تشاهد هناك مغنية أو راقصة. هذا هو كل ما يدخل عليهن السرور.

وليس لأولئك النسوة ثقافة من أي نوع، وهن لا يستطعن أن يعرفن من المتع العقلية أكثر مما تقدره حواسهن، فالمأكل والملبس، والحديث، والنوم، والجلوس على الديوان ساعات طويلة، والاستغراق في الأفكار والأحلام، ومحاولة إرضاء الزوج وكسب محبته وقصرها عليهن، كل هذه هي عناصر الحياة في «الحريم». ولقد سألت امرأة إنجليزية إحدى المصريات كيف تمضي وقتها فأجابت: «إني أجلس على هذه الأريكة، فإذا ما انتابني الملل أو التعب نهضت لأجلس على تلك».

والتطريز والوشى من الأشغال التي قد تشغف بها النساء، غير أنه ليس ثمة امرأة تفكر في أن تشغل وقتها في حديقة الأزهار الملحقة بمنزلها في الغالب. والواقع أن الجميلات اللاتى تتخيلهن وراء النوافذ الخشبية لسن من هذا النوع من النساء اللاتي يشغف بهن المرء كثيرًا أو يلذ له التحدث إليهن. فهن لا يجدن معرفة أى شيء، ولا يفكرن فيما يدور حولهن في قليل أو كثير. وكل ما هنالك أنهن – أو على الأصح قليل منهن– جميلات وحسب.

والواقع أن النساء المصريات لا يجرؤن على الظهور أو المباهاة، وهن يتلقين تلك النظرة الوضيعة التي ينظر بها جميع المسلمين إلى النساء، فالرجال في الشرق يدينون بمبدأ ظلم المرأة واحتقارها ولا يحيدون مطلقًا

عن هذا المبدأ الذي هو جزء من دينهم. ألم يقل النبى ما معناه: "اطلعت في الجنة فإذا أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء؟"، وفوق هذا، أليست المرأة الأولى خلقت من ضلع عوجاء، فإذا حاولت تقويم هذه الضلع كسرها، وإذا تركتها وشأنها كان لابد من أن تستمر على اعوجاجها؟ وفضلًا عن هذا وذاك. ألم يروا لنا أن الشيطان حينما سمع أن هناك امرأة قد خلقت في الجنة ضحك مبتهجًا ثم قال ما معناه: «إنك نصف مضيفي، ومستودع سرى، وسهمي الذي أصيب به ولا أخطئ؟».

وعلى ذلك فليس مما نعجب له كثيرًا أن ينصح أحد الفقهاء واحدًا من تلاميذه، فيطلب منه قبل أن يقدم على أي عمل خطير أن يستشير عشرة من أصدقائه المخلصين ممن يعهد فيهم الذكاء، أما إذا لم يكن له سوى خمسة فقط من أمثال هولاء الأصدقاء الذين تتوافر فيهم هذه الشروط، فليستشر كل واحد منهم مرتين. أما إذا لم يكن له غير صديق واحد، فعليه أن يستشيره عشر مرات في عشر زيارات مختلفة، ولكن إذا لم يكن له حتى هذا الصديق الواحد، فليعد إلى منزله ويستشير زوجته، وكل ما تقوله له فليعمل بعكسه. وبمثل هذه الطريقة يسير قدمًا في قضاء حاجاته ويصل إلى غايته. وقد اتبع المسلمون نصيحة هذا الأب الورع وعاملوا النساء على أنهن مخلوقات أقل منهم شأنًا، مخلوقات وإن كان لها أهميتها، فهي على الأقل أدوات للزينة، ولكن مما لا شك فيه أنها ليست جديرة بأي احترام أو تبجيل.

ومن ثم فإنهم قلما يعلمون بناتهم. وهم إذا أرادوا الزواج لا يطلبون في زوجاتهم غير الجمال والطاعة، ثم يعاملونهن على أنهن لعب لطيفة تستخدم في اللعب ثم تكسر فيلقى بها، أو على أنهن وسيلة من وسائل الاقتصاد الاجتماعي: ينجبن أطفالًا، ويرعين شئون المنزل «١».

ولعل أكثر ما يلطخ جبين المجتمع الإسلامي هو احتقار المرأة على تلك الصورة التي هي أبعد ما تكون عن تلك النتائج الحسنة للعقيدة الإسلامية التي تنادي بالمساواة بين جميع المؤمنين أمام الله، وحرية التصرف واستقلال الرأي كما يدل عليه معنى الإخاء في شريعة الإسلام المقدسة. وقد تكون الصورة التي قدمناها للحياة اليومية للرجل القاهري قاتمة إلى حد كبير، وعلى ذلك فإن علينا أن نلاحظ صاحبنا التاجر في لهوه ومسراته حين يتبين لنا ذلك الجانب الأكثر وضوحًا من حياته، حقيقة، إن هذه المباهج والمسرات تتقيد تقيدًا شديدًا بالدين. ولكن هذا هو الحال أيضًا في عطلات الكاثوليك. فإذا ما أراد أحد الأشخاص أن يرتكب ما يشين، فإن عليه أن يرتكبه تحت كنف أحد القديسين، وبذلك يتخلص من وخز الضمير. ولكن المسلم في العادة يبتهج ابتهاجًا لا حد له في الاحتفالات الدينية، وإنك لترى كيف أن احتفالات العرس يُتلى فيها القرآن من أوله إلى آخره، وأي عربي ذو مقام لابد أن يعمل على إجابة مثل هذا الرجاء لأصدقائه المدعوين. وإذا ما أراد الناس في القاهرة أن يلهوا. فإنهم يذهبون لزيارة قبور أقاربهم المتوفين، ثم يجلسون في منازل خاصة أعدت لاستقبال المعزين، وهناك يستمع الجميع إلى تلاوة القرآن.

ومهما يقال عنا معشر الإنجليز من أننا نكون مكتئبين على الدوام أثناء لهونا، فإنه حتى ذلك الجمهور الذي اعتاد أن يشاهد مسرحيات إبسن **ibsen**، سوف يقف دهشًا أمام تلك الاحتفالات الإسلامية. والمسلم في احتفالاته قلما يفكر فيما يقدمه من ألوان مختلفة، فعلى حين لا يوحي عيد القديس سمعان والقديس يودا بأي مرح للرجل الإنجليزي العابس، تجد الرجل القاهري يتمتع بأعياده الدينية إلى أقصى الحدود بطريقته الرزينة الهادئة المعروفة وتلك الأعياد جد كثيرة.

و«المولد» في القاهرة ليس احتفالًا يستغرق يومًا واحدًا كما هو الحال في الأعياد المسيحية، وإنما قد يمتد في بعض الأحيان إلى تسعة أيام، وكل سائح زار القاهرة لابد أن يعرف بعض هذه الأعياد. من ذلك الاحتفال بالكسوة الشريفة، ومرور المحمل بقافلة الحجاج إلى مكة، هذه المشاهد جديرة بأن يراها كل منا. إذ تصادف وقوعها في موسم السياحة. فالسنة الهجرية لا تزال تسير وفقًا للتقويم الذي يعتمد على القمر، والذي لم يتم إصلاحه حتى الآن، فهذا التقويم من شأنه أن يتغير فيغير معه الأعياد كلما دار الفلك دورته.

والواقع أنه قد يندر أن يمر أسبوع واحد دون أن يكون هناك عيد أو احتفال. وقد يكون ذلك العيد يوم عاشوراء «أي اليوم العاشر من شهر المحرم أول شهور السنة الهجرية»، حيث يأكل الناس الكعك احتفالًا بذكرى «الحسين»، الابن الشهيد لسيدنا علي، ويتوجهون إلى جامع الحسين حيث دفن رأس الشهيد كما يزعمون، ويشاهدون التمثيل الهزلي

العجيب الذي يقوم به الدراويش، ويتكون من اسم حسين هذا واسم أخيه الأكبر حسن، اسم «الحسنين» الذي تقدم ذكره.

والحسين هذا بنوع خاص أهم أولياء العجم الشيعيين، ثم إنه كان السبب في كثير من الانشقاقات والاختلافات التي حلت بالعالم الإسلامي. ومن الغريب حقا أن يكون القاهريون – ومعظمهم من السنيين – ممن يهتمون بهذا العيد ويولونه مثل ذلك الاحترام والتبجيل، ولكن الحقيقة أنهم يتذرعون بأي عذر ويرجعون به مادام يؤدي ذلك إلى منحهم عطلة. وفوق هذا ألم يكن سيدنا الحسين هذا حفيد النبي؟ وهل يليق أن يترك لأولئك الملاحدة من كلاب الشيعة؟

ومهما يكن من أمر الحسين هذا، فإن مما لاشك فيه أنه ينال حقًا من الاحترام والتبجيل في القاهرة، وأن الاحتفال بمولده من المشاهد التي يسر لها السائح الأوروبي كثيرًا، فليس هناك في الواقع أبهج ولا أروع من تلك المناظر التي نشاهدها في شوارع القاهرة وأسواقها في ليلة الحسين الكبرى.

والشيء الغريب حقًا أنه في إحدى ليالى الشتاء وبعد موقعة التل الكبير، حينما كنت واقفًا – لأن الركوب كان إذا ذاك متعذرًا– وسط جمع محتشد غفير في شارع الموسكي، وجاهدت لأشق طريقي إلى ذلك الزقاق الذي يؤدي إلى بيت القاضي ومسجد الحسنين– أقول إنه من الغريب حقا أنني لم ألاحظ هناك أية روح سيئة أو تعصب، على الرغم من وجود كثير من الأوروبيين في ذلك الوقت. والحق أن مثل هذا

الجمهور الطيب النفس ليس له نظير. فلقد كان أقل ما يمكن أن نتوقعه أن يحدث شيء من الاحتجاج على الأوروبيين الذين كانوا يتجولون في الطرقات البهيجة المزدانة بالأنوار في ليلة عيد.

ولكنك بدلًا من هذا كنت تجد النساء الإنجليزيات يتخللن الأسواق، والضباط الإنجليز والسائحين يختلطون بالجمهور، بل إنهم بلغوا في بعض الأحيان أبواب الجامع المقدس نفسه دون أن يمسهم أحد أو يبدي لهم أدنى مضايقة بل أقل ملاحظة. وفي بعض الأحيان قد تشاهد سيدة مصرية وهي تدعو بعض المسيحيين في شيء من التهكم والسخرية وتطلب منه أن «يصلي على النبى». وقد تذهل السيدة المصرية حينما يحييها المسيحى بقوله «اللهم صل عليه». على أنه إذا لم يعرف ذلك الأجنبى كيف يجيب عن مثل هذه الأسئلة إجابة صحيحة، فلن ينتج عن ذلك ضرر على الإطلاق، فإن طيبة القلب والطبيعة السمحة التي توحي بها مثل تلك الأعياد مما ينسي ذكرى الحرب أو البدع الدينية، ومن المؤكد أنه لا يمكن أن يكون هناك جمهور إنجليزي يُعتمد عليه ويوثق به يستطيع أن يسلك مثل هذا المسلك البديع مع وجود أقلية غير مرغوب فيها معه.

ولما انحرفت في أحد أزقة خان الخليلي الكبير- أو البازار التركي الذي يواجه جامع الحسنين- كان ذلك المنظر يشبه إحدى صور «ألف ليلة وليلة». فقد كان البازار الطويل مضاءً بالشموع والمصابيح الملونة التي لا حصر لها، ومغطى بسراداقات مصنوعة من الشيلان والأقمشة

المزركشة. وإنك تستطيع أن تتبين من خلال قطع الخيام المنازل المعتمة ذات الضوء القليل، فتعجب للتناقض الغريب بينها وبين البهجة الموجودة في أسفلها، أما المحال التجارية فقد تغيرت تمامًا، فلم تعد ترى هناك تلك السلع التي كانت مبعثرة هنا وهناك، كما اختفت تلك الصينيات التي كانت تحمل شتى الخناجر والخواتم والملاعق وما إلى ذلك، بل إنك لتجد كل متجر قد تحول إلى غرفة استقبال أنيقة، كما تجد الجوانب والسقف كلها مغطاة بالحرير والكشمير والديباج والقطيفة والأقمشة الفاخرة الموشاة المعدومة النظير، وعلى الجملة بكل ما لم يكن المشتري ليراه في أى يوم من الأيام العادية.

وبالاختصار فإن جوانب البازار قد تألفت منها كتلة متوهجة براقة من الذهب والضوء والألوان الزاهية. وبداخل كل متجر تجد صاحبه جالسًا، يحيط به نخبة من الأصدقاء على شكل نصف دائرة، وقد ارتدى أفخر ما عنده. أما صاحبنا التاجر فقد تناهي في النظافة والأناقة، ملازمًا جانب الأدب. ذلك أن التاجر القاهري يظهر دائمًا بمظهر الرجل الكريم الأصل، حتى حينما يغشك بطريقة تثير غضبك. إن ذلك الرجل الذي كنت تتساوم معه في شدة وحرارة في الصباح، سوف يدعوك الآن في أدب زائد لأن تجلس وتدخن معه. وإلى جانبه منضدة صغيرة من العاج أو الصدف، يأخذ منها زجاجة بها شراب حلو الطعم من عصير اللوز أو الورد، ويقدم إليك منها في لطف زائد وأدب جم.

وإنك لتستطيع وأنت جالس في هذه العزلة أن تشاهد تلك الجماهير المحتشدة وهي تندفع وتتزاحم، حتى إنه ليخيل إليك أن سكان القاهرة بأسرهم قد تجمعوا في ذلك المكان، ثم إنك تلاحظ أن كل واحد منهم قد ارتدى أحسن ما عنده، فبدا أنيقًا نظيفًا تبدو عليه سيماء الفرح والبهجة، وعلى حين غفلة تسمع أنغام المزمار وقرع الطبول تنبعث من كل مكان، وهناك تجد جماعة تتغنى بمدح الرسول (عليه الصلاة والسلام) وبسيدنا الحسين على السواء، وهي تجوب الطرقات وتخترق الجماهير المحتشدة وقد أخذت البهجة منهم كل مأخذ، وعلى اليسار تجد محلًا صغيرًا جلس فيه أحد القصاصين البارعين يروي بطريقة تمثيلية قصة محببة إلى ذلك الحشد الذي التف من حوله مأخوذًا بسحر القصة وروعتها. وهناك بالقرب منه تجد أحد رجال الدين وقد انهمك في التلويح برأسه وهو يردد اسم «الله» جل شأنه أو بعض الآيات القرآنية المؤثرة. وفي مكان آخر تشاهد جماعة من الدراويش وهم يذكرون أو ينشد بعض القوم المتعبدين القرآن بأكمله. ومن المؤكد أن مثل هذا المشهد غير حقيقي وأنه مبالغ فيه. فنحن نستطيع أن نتصور أنفسنا في بلاد الجن أو في مدينة النحاس وليس في مدينة القاهرة أو في القرن التاسع عشر.

وإذا ما خرجنا من الخان، وجدنا أناسًا كثيرين يتدفقون إلى جامع الحسنين، حيث تحدث مشاهد مروعة تقام خصيصًا من أجل تلك الذكرى، ولابد من أن يجول كل فرد حول قبر الحسين، وعلى قيد بضع خطوات ترى بعض الرجال يدخلون إحدى الخيام، وإذ نتبعهم لنرى ما خطبهم، نشاهد في الداخل بعض المشعوذين وقد انهمكوا في عملهم في

غير انقطاع. كذلك نجد حصانًا صغيرًا يقوم ببعض الحركات، وأحد المهرجين وهو يقوم بتقليد الرياضيين في صورة تبعث على المرح وتثير الضحك في كل مكان.

وفي سرادق آخر تجد قرقوش يقوم بتدبير دسائسه، والواقع أن هذا الرجل الصغير السمين أو القراقوز المصري يؤدي عمله خيرًا مما يؤديه القراجوز الإنجليزي الذي يشبهه بعض الشبه، غير أنه لا يحسن انتقاء كلماته، كما لا يراعي مسلكه وهو على تلك الصورة، ومن ثم نجد أنفسنا قد اضطررنا بعد قليل إلى مغادرة ذلك المكان حيث تأخذ الكات تلبس ثوب الخلاعة والمجون، وحيث تبدأ الدواب في لعبها والقيام ببعض الحركات الخاصة، غير أن الطبقات الدنيا قلما تعني بأن تدرك ما في ذلك من ضرر، فتجد أفرادها قد أخذهم المرح حتى لتكاد جوانبهم تنفجر من كثرة الضحك على حركات قراقوش، لا يبالون بشيء أو يهتمون بمن يقابلون من الناس، ومهما يكن فقرهم وهمومهم الخاصة – كل ذلك لا يمكن أن ينال من طبيعتهم المرحة في ليلة الحسين الباركة.

ولعل أول ما يتميز به الجمهور المصري أنه يمكن تسليته في سهولة تامة، فإن أبسط المناظر وأقدم النكات تبعث فيه المرح والسرور، ويكفي أن يجعل الأوروبي المدقق يأسف على ضبط نفسه ليرى كيف أن هؤلاء القوم البسطاء يدخل المرح قلوبهم من أقل شيء «١».

هذا هو ما نذهب إلى القاهرة لنراه: الحياة الشرقية الحقيقية على صورها الأصلية، وإن بعض تلك المناظر لأفضل بكثير من تلك

المشاهدات الباردة أو ذلك الرقص الفاتر الذي يحدث في الحي الأوروبي حيث الفندق الذي نقطن فيه، حقيقة إنك تستطيع أن تجد في القاهرة حياة الفنادق الهادئة، أو حياة النوادي، وتجد ألعاب البولو والتنس وحتى الجولف، كل ذلك تجده كأحسن ما يكون في القاهرة الأوروبية، غير أن هذه جميعها معروفة لدى جميع السائحين الذين يقدمون إلى مصر في الشتاء، إنما تستطيع أن تجد شيئًا لا مثيل له في حى الإسماعيلية حينما تذهب إلى السوق وتختلط بالناس، هنالك تجد الكثير مما يعشقه الرسام ومما يبعث على الخيال.

ومهما يكن من شيء فإن أكثر الأشياء التي تكون فيها متعة لنا هي تلك التي تكون غير مألوفة لنا في العادة، ونحن إذ ندخل مصر لأول مرة، سرعان ما تكشف لنا هذه البلاد عن أفكار جديدة وألوان غريبة، كما نشم تلك الرائحة الخاصة التي تتميز بها الحياة القومية هناك.

وفي الأسواق أكثر من أي مكان آخر يمكن أن يجد الفرد كل ما هو غريب وغير مألوف لديه. ولكنك في الوقت نفسه إذا أردت أن تتشبع بروح المدينة الإسلامية الحق، فعليك أن تتسلق أسوار القلعة حينما تأخذ الشمس في المغيب، ثم تمتع طرفك بما يكون تحتك وحواليك من مناظر رائعة. ومن سوء الحظ أنك، لكي تستطيع الوصول إلى هناك، لابد من أن تمر من أكثر شوارع القاهرة قبحًا وتشويهًا. غير أنه لحسن الحظ أن هذا التهدم قد حدث– على ما أذكر مع الارتياح– قبل أن تتسلم إنجلترا مقاليد الحكم في مصر. ذلك أن إسماعيل هو الذي فتح

شارع محمد علي الذي يمر بأجمل أحياء القاهرة، فهدم قصورها وحدائقها وشطر نصف أحد الجوامع الشهيرة حتى يتمكن بذلك من أن يجعل هذا الشارع مستقيمًا، ولو أن ذلك لا ينم عن ذوق سليم، وعلى جانبي هذا الشارع تجد هناك مساكن ومكاتب حقيرة غير منظمة، لا هي بالأوروبية ولا هي بحيث تستطيع أن تحتفظ بصبغتها الشرقية، هنالك تمزج الخمور العتيقة بالمشروبات الحديثة وتوضع جنبًا إلى جنب كذلك.

وإن هذا الامتزاج يتجلى لك في وضوح حينما تشاهد مدرسة إسلامية تجاورها حانة أعدت لاستقبال رجال الجيش والبحرية. وبجانب جدار مسجد السلطان حسن تجد حلاقًا عربيًا يقص للناس شعرهم بتلك الآلة الحديثة. كذلك تجد عربة للحريم مزركشة بالغة الروعة والبهاء واقفة أمام باب المسجد في حراسة أحد الأغوات.

ويمر الشيوخ الموقرون بهذه المناظر الغربية جميعها دون أن يبدوا أية دهشة أواهتمام. وفي الهواء تسمع دوي المدافع ينبعث من قلعة صلاح الدين. إنها تحية العيد الكبير عيد الأضحى. أما الجنود هناك فليسوا من الأتراك الأشداء، ولا من الأكراد الغلاظ الجفاة، وقد ارتدوا تلك الملابس البديعة وأمسكوا بأيديهم الرماح الصولجانات، كأولئك الجند الذين دفع بهم السلطان العظيم إلى ريتشارد قلب الأسد، وإنما هم جنود بريطانيون قد ارتدوا الملابس الكاكية بصورة لا تليق بأمثالهم.

والقلعة ذاتها عبارة عن مستودع للأسلحة والذخيرة الحديثة. وهناك يحكم الضباط الإنجليز حيث كان يذبح البكوات المماليك في يوم

من الأيام. فالقديم والحديث في نزاع دائم في تلك القلعة التي يرجع عهدها إلى العصور الوسطى، وتتولى الكتائب الخاصة حراسة جامع أحد سلاطين المماليك.

ولكنك إذا وقفت على أسوار هذا الحصن لم تعد ترى أى اختلاف أو تناقض، وإنما تبصر من حولك كل ما هو شرقي صميم، فالصبغة الأوروبية لم تعد هناك بحيث تضفي على الصبغة الشرقية. هنالك تجد الكثير من القباب والمآذن والأديرة ذات القباب، والمنازل المنبسطة الأسقف، منها الأصفر والأبيض، ومنها الأسمر. كذلك تشاهد بقعًا خضراء هنا وهناك، يتخللها شجر الجميز العتيق ذو الأوراق القاتمة اليابسة التي تكشف عما كانت عليه حدائق المدينة القديمة. وفي الجهة المقابلة تشاهد صفوفًا من النخيل، وأخدودًا من الفضة حيث يجري ذلك النهر الطويل الصافي حالًا بين ضفتيه القائمتين. وهناك في الأفق، وفي مواجهة مرتفعات ليبيا، حيث تأخذ الشمس في المغيب فتترك من ورائها لونًا أحمر قانيًا- هناك تبصر الأهرام الخالدة. كذلك تشاهد المآذن الدقيقة وقد ارتفعت كثيرًا عن مستوى القباب وسطوح المباني الأخرى، حيث تكون لنفسها عالًما خاصًا بها، فيه الكثير من السحر والجمال.

إن كل واحدة من هذه المآذن لها قصة جديرة بأن ترويها لنا، قصة انتصار أو انكسار، أو قصة مجاعة أو غزو، أو قصة ثقافة وزهد، وإذا ما اتجهت بنظرك شمالًا إلى اليمين، شاهدت مآذن جامع المؤيد البديعة من فوق باب زويلة. إن هذه المآذن لتذكرنا بمئات الأحداث والقصص

تخصص من ذلك الباب الذي كان في يوم من الأيام المدخل الرئيسي لقصر الخليفة. وراء هذه المآذن ترتفع مآذن حي النحاسين، وهي أنموذج كامل للفن الإسلامي، ووراء هذه المآذن أيضًا نشاهد بعض الأبراج، إنها أبراج جامع الحاكم، وأمام هذه الأبراج يقع جامع السلطان حسن، أكبر وأعظم المساجد التي ترجع إلى عهد المماليك، وإلى اليسار قليلًا يرى الناظر بروج وأروقة جامع ابن طولون الذي يطل على التلال التي تحيط به، والذي يحمل إلى أذهاننا ذكرى مدينة الفسطاط التي قامت منذ ألف سنة، وإلى اليسار أيضًا خط المنحنيات التي تدلنا على مكان هذه القناطر المقامة على أعمدة، والتي امتدت إلى النيل لجلب ماء الشرب إلى القلعة زهاء خمسة قرون.

وفيما وراء هذه القناطر نشاهد حشدًا من القباب والمآذن المتهدمة في مقابر المماليك جنوبي القرافة. كما نستطيع أن نلمح ذلك الحصن المصري القديم، وهو حصن بابليون، وجامع عمرو، وإذ ننظر إلى الجانب الآخر من مآذن المماليك، نستطيع أن نرى أكمة قائمة من الحجارة هي بقايا هرم دهشور، وصورة واضحة لهرم سقارة الذي يبعد خمسة عشر ميلًا فقط عن القباب الإسلامية المتقدمة، ولكنه يبعد عنها بخمسة آلاف سنة تقريبًا.

وإذ تأخذ الشمس في المغيب ويبدأ الليل يرخي سدوله، تتجمع السحب القاتمة في الغرب، فتلقي ظلالها على الصحراء الممتدة من تحتها، مما يوحى إليها بأن هنالك محيطًا جديدًا قد انشق في قلب أفريقيا.

وهنا نعرف القاهرة لأول مرة على أنها مدينة من مدن العصور الوسطى، بل أكثر من هذا نعرفها كمدينة لها تراثها المجيد منذ فجر التاريخ، فنحن حين نطل من أعلى أسوار القلعة، ندرك أن هناك محيطات أخرى غير تلك التي نعهدها زاخرة بالمياه، وأن حضارة مصر لا يمكن أن يكون لها حدود أنسب من الصحاري التي هي بمثابة الدرع الواقي لها، والأهرام التي تعلن في جلاء ووضوح عن أعمالها المجيدة التي تمت منذ أقدم عصور التاريخ، ولقد قال الإسرائيلى الحكيم: «من لم يشاهد القاهرة لم يشاهد الدنيا، فأرضها تبر، ونيلها سحر، ونساؤها حور الجنة في بريق عيونهن، ودورها قصور، ونسيمها عليل، كعطر الندى ينعش القلب، وكيف لا تكون القاهرة كذلك وهي أم الدنيا؟».

الباب الثاني

مدينة الفسطاط

المدن المتعاقبة– الفتح العربي – عهد الصلح– مصر القديمة – بابليون والمقوقس – القبط – تأسيس الفسطاط – خطط القبائل العربية – جامع عمرو – حصن بابليون – كنائس القبط حينما نطل من القلعة نشاهد مدينة لها كل مميزات العصور الوسطى.

غير أنه من بين جميع المباني العربية لا نجد بناءً واحدًا في حالته الحاضرة يرجع إلى الفتح العربي. فقبل أن يغزو المسلمون مصر في سنة ٦٤٠م لم تكن هناك مدينة تسمى القاهرة. وإن نحن توخينا الدقة، فإن هذه المدينة لم يكن لها وجود في الواقع إلا بعد هذا التاريخ بثلاثة قرون، والتي أطلق عليها اسم القاهرة، وهو الاسم الذي اشتق منه الأوروبيون أسماء **cairo** و**caire** و**cahere**، غير أن هذه ليست سوى ألفاظ لا طائل وراءها إذ أنها لا تدل على شيء، وكما هو الحال في إنجلترا فإننا نقصر اسم لندن على المدينة نفسها ونأبى أن نطلقه على مقاطعة وستمنستر وميفير.

لقد كانت هناك حاضرة إسلامية منذ الفتح العربي، وعلى الرغم من أنها لم تكن تسمى القاهرة، فإنها كانت قريبة من المدينة الحالية التي لا

تعدو أن تكون اتساعًا للمدينة الأصلية، وتاريخ هذا النمو والاتساع سوف يتجلى لنا حين ندرس التطور الذي لحق هذه المدينة وآثارها، أما الآن فإنه يكفي مجرد الإشارة إلى تاريخ نشأتها وتطورها، فقد بنيت في بادئ الأمر المدينة العربية التي تسمى «الفسطاط» في سنة ٦٤١م، وفي سنة ٧٥١م أضيف إليها حي في الشمال الشرقي ليكون مقرًا للأمراء ومعسكرًا لجيوشهم، فسميت بذلك «العسكر»، وإلى الشمال الشرقي أيضًا أضيف إليها ضاحية جديدة أو مدينة صغيرة بناها أول حاكم مسلم استقل بحكم مصر حول سنة ٨٦٠م وهو ابن طولون، وهذه المدينة تسمى «القطائع» لأنها كانت تنقسم إلى أحياء منفصلة كل منها يختص بشعب معين أو طبقة معينة، ثم لم تلبث هذه المدن الثلاث أن أصبحت مدينة واحدة من الناحية العملية، فقد تحولت كل من «العسكر» و«القطائع»- كما تحولت تشيلسي وسانت جيمس إلى لندن - إلى الحاضرة التجارية وهي الفسطاط.

أما الخطوة الرابعة في تطور هذه المدينة، فتتلخص في اتساع آخر نحو الشمال الشرقي أيضًا. وقد تركت مساحة كبيرة بينها وبين القطائع - التي كانت قد تهدمت إلى حد كبير جدًا- حتى يتوافر الأمن والعزلة للخلفاء الذين كان ينظر إليهم أنصارهم نظرة الاحترام والتقديس، والذين بنيت هذه المدينة باسمهم سنة ٩٦٩م، وكانت هذه المدينة الأخيرة هي القاهرة الحقيقية، ولكنها لم تكن الحاضرة التجارية ولا مقرًا للحكم كما كانت العسكر أو القطائع من قبل.

وكانت الفسطاط – على ضفة النيل– لا تزال سوقًا للتجارة، كما كانت أكبر مدينة للثقافة والأعمال، أما القاهرة فإنها كانت بمثابة قصر فخم، وثكنات للجنود، ومقرًا للحكومة، ويلاحظ أن مؤرخي العصور الوسطى من أمثال وليم الصوري حين يكتبون عن مصر– وكلمة مصر تستخدم في اللغة العربية للدلالة على القطر المصري وعلى الحاضرة على السواء– فإنهم لا يشيرون إلى القاهرة، بل إلى الفسطاط، أو كما كانت تسمى عادة «مصر الفسطاط».

ولقد كان الأمير أو الخليفة أو السلطان يختار أية ضاحية يبنيها لنفسه ويحكم منها، ولكن الحاضرة القديمة تظل أهم هذه المدن حقًا، هنالك كان القضاة يجلسون في الجامع العتيق ليصدروا أحكامهم، وهناك كانت تصك نقود الدولة، وهناك أيضًا كان يقيم عامة الشعب الذين لم يكن لهم اتصال بالقصر، ولم تصبح القاهرة الحاضرة الحقيقية ومركز الحكم في مصر إلا بعد أن أحرقت الفسطاط عمدًا في سنة ١١٦٨م لتخليصها خوفًا من أن تقع في أيدي الصليبيين.

وكان صلاح الدين الأيوبي هو منشئ القاهرة الحقيقي كما هو معروف، ذلك أنه هو الذي وضع تصميم السور الذي كان يحيط لا بالقاهرة وحدها، بل بالقلعة أيضًا وبما تبقى من مدينتي القطائع والفساط، ومنذ ذلك الوقت بدأت المباني تقام على ذلك الفضاء الذي كان يقع بين القلعة وقصر القاهرة، والذي أخذ على مر الزمن يمتلئ بمباني القاهرة التي نراها اليوم.

وهكذا فإن نمو هذه المدينة يتكون في الأصل من ثلاث مراحل من الاتساع نحو الشمال الشرقي، وكل من هذه الاتساعات المتعاقبة كان يتبعه بطبيعة الحال تهدم الأحياء والمناطق المهجورة، وتكتل الأماكن الآهلة بالسكان وانضمام بعضها إلى بعض، ولم يبق إلا تلك القرية المتفرقة التي تراها على مقربة من موقع الفسطاط الأصلي، وتسمى «مصر العتيقة»، وتعرف عند الأوروبيين بهذا الاسم، وهي ذلك الجزء الذي نستطيع أن نتتبع أثره إذا حاذينا أكوام القمامة الملقاة على جانبي الطريق، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد ثمة مدينة جديدة قد أقيمت بين القاهرة والنيل نتيجة لبعض المؤثرات الأوروبية، غير أن هذه المدينة الشتوية الجميلة ليس لها أى علاقة على الإطلاق بمدينة العصور الوسطى.

وتاريخ غزو العرب لمصر غامض في كثير من النواحي، وهذا يرجع إلى أن العرب لم يبدأوا في تدوين تاريخهم إلا بعد قرنين أو أكثر. وإن ما تركه يوحنا أسقف نقيوس – الذي يكاد يكون حجتنا المعاصر الوحيد– قد وصل إلينا في ترجمة كتابه المحرفة. وقد دخل العرب مصر بقيادة عمرو بن العاص في ديسمبر سنة ٦٣٩م، وذلك في خلافة عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين، وكان عددهم لا يزيد على أربعة آلاف مقاتل من الأقوياء. وبعد أن حاصر العرب الفرما وبلبيس وقاتلوا الروم في حي أم دنين– وهي بالقرب من قصر عابدين الحالي– هاجموا مصر أو بابليون. وكانت هذه المدينة الأخيرة امتدادًا إلى الشمال أو اتساعًا لمفيس الحاضرة المصرية القديمة التي كانت لا تزال حتى ذلك الوقت، ولكن في شكل أطلال بالية. وكانت تبعد عن القاهرة الحالية باثني عشر

ميلًا تقريبًا، وقد تم نموها تحت حماية حصون بابليون الروماني، ومما لا مراء فيه أن الروم قد دافعوا عنها دفاعًا شديدًا حتى أن القائد العربي لم يجد بدًا من طلب المدد حتى بلغ جيشه اثني عشر ألفًا قبل أن يتمكن من فتحها.
وقد قسم عمرو بن العاص قواته إلى ثلاث فرق: وضع الأولى إلى الشمال من حصن بابليون، والثانية في تندونياس «ومن المحتمل أن تكون هذه هي أم دنين التي تكلم عنها كتاب العرب»، والثالثة إلى الشمال من هليوبوليس. وقصد بذلك أن يحمل الروم على الخروج من حصونهم فيطبق عليهم القسمان الآخران من المؤخرة.

وقد نجحت هذه الخطة، إذ خرج الروم من حصونهم وأخذوا يهاجمون المسلمين في هليوبوليس، حيث أطبقت على مؤخرتهم قوات عمرو، فاضطروا إلى الفرار إلى النيل وألقوا بأنفسهم فيه، عند ذلك احتل المسلمون تندونياس التي أبيدت حاميتها في المعركة، ولم ينج منها إلا ثلاثمائة رجل أغلقوا أبواب الحصن من دونهم وهربوا بالقوارب إلى نقيوس، وقد اقترن استيلاء العرب على تندونياس باستيلائهم على مدينة مصر كلها عدا القلعة التي أحاط بها العرب، ويذكر لنا يوحنا أسقف نقويس – الذي نعتمد على تاريخه فيما نكتبه على هذه الناحية – أن العرب لم يلاقوا أية مقاومة إلا حينما حاولوا الاستيلاء على الحصن«١».
ومهما يكن من شأن مدينة مصر أوتندونياس، فإنها قد اختفت تمامًا من عالم التاريخ بمجرد استيلاء العرب عليها، وآخر ما نسمعه عنها في معاهدة الصلح التي أبرمها عمرو بن العاص، وهاك نصها:

«باسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما صالح عمرو بن العاص أهل مصر، على أنفسهم ودينهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأرضهم ومائهم، لا يدخل في شيء من هذا ولا ينقص، وأن يسمح لأهل النوبة بأن يقيموا بينهم، وإن أذعن أهل مصر للصلح فرضت عليهم الجزية خمسين ألفًا إذا هبط ماء نهرهم، وكل منهم مسئول عما يأتيه سراقهم من أعمال العنف، ومن لم يدخل في هذا الصلح أدى ما على غيره من الجزية من تلقاء نفسه وتحت مسئوليته. وإذا نقص ماء النيل نقصت الجزية تبعًا لهذا النقصان. ومن رضي من الروم والنوبيين بهذا الصلح عومل كغيره من أهل مصر، ومن أبى وأراد الخروج أمن على نفسه حتى يبلغ مأمنه أو ترك بلادنا.

وستجمع الضرائب على أقساط ثلاثة كل ثلث منها على حدة. وعليَّ عهد الله وعهد الخليفة أمير المؤمنين، وعهد المؤمنين.. شهد على ذلك الزبير وولداه محمد وكتبه وردان» «١».

ويربطـــ المؤرخون العرب هذه المعاهدة – التي يظهر أنها وثيقة لها قيمتها– باستسلام مدينة مصر بعد موقعة هليوبوليس، ولكن لما كانت مصر يقصد بها القطر كما يقصد بها الحاضرة، فإن هذه الوثيقة نفسها إنما تثبت أن الفاتح العربي قد توخى الكرم والسخاء في معاملته لأهل مصر. فهي لا تذكر شيئًا واضحًا صريحا عن مدينة مصر التي أصبحت تسمى بعد قليل الفسطاط، على حين أن موقعها بعد ذلك عُرف، إنما التفسير الوحيد الذي يبدو صحيحًا هو أن المدينة المصرية أخذت أهميتها في

الضعف كلما أخذت المدينة العربية في النمو، وأن السكان كانوا يترحون إلى الأماكن القريبة الأكثر رخاء من مدينتهم الأولى. وإن بقايا الأسوار جنوبى مصر القديمة يمكن أن تمثل جانبًا من موقعها، وإن اختفاء إحدى المدن المصرية له –لسوء الحظ – أكثر من سابقة، فمدينة ممفيس نفسها قد هدمت إلا من بعض بقايا الجدران والتماثيل المتهدمة، والسبب ذلك يرجع إلى أن المصري القديم كان يبني مسكنه بالطوب المجفف في الشمس الذي كان معرضًا للتلف والتهدم بعد وقت قد يقصر أو يطول، أما الأحجار الصلبة فلم تكن تستخدم إلا في بناء مقابر العظماء ومعابد الخالدين.

ومهما يكن من شأن التغيير الذي لحق بالمدينة التي نحن بصددها، فإن حصن بابليون مازال قائمًا حتى يومنا هذا. ولقد كلف حصار هذا الحصن العرب سبعة أشهر حتى تمكنوا من الاستيلاء عليه. فموقعة هليوبوليس قد كسبها العرب في آخر سنة ٦٤٠م، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على الحصن قبل شهر أبريل ٦٥م، ويرتبط استسلام هذا الحصن بشخصية غامضة هي شخصية المقوقس الذي دعاه العرب حاكم مصر «١». وتذهب الروايات العربية إلى أن المقوقس هو الذي اقترح المعاهدة الآنفة الذكر التي ضمنت للمصريين حرية الدين وأمنتهم على حياهم.

ولما رفض الإمبراطور هرقل البيزنطي هذه المعاهدة تمسك المقوقس بكلمته وأصبح في صف العرب الذين كان لشجاعتهم وحماستهم أثر بالغ

في نفسه. ولما عاد الرسل الذين كان قد بعث بهم إلى معسكر المسلمين، سألهم عن حال المسلمين فأجابوا:

«رأينا قومًا الموت أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، لا يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم»، ومثل هذا الخلق كان جديدًا بالنسبة إلى المصريين الذين كانوا قد قاسوا الكثير من فساد الإمبراطورية الرومانية الشرقية. ومهما يكن من شأن الدور الذي قام به المقوقس فيما أطلق عليه خيانة مصر المسيحية، فما لاشك فيه أن الشعب نفسه قد ساعد الغزاة الفاتحين.

وعلى الرغم من أن المسيحية كانت الديانة الرسمية في مصر منذ أصدر ثيودوسيوس مرسوم سنة ٣٧٩م، كانت لا تزال هناك طقوس محلية قديمة على جانب عظيم من القوة، وأهم من هذا كانت لا تزال هناك أيضًا نزعة قوية إلى بث روح القومية في الدين والدولة معًا، فإن حكم البيزنطيين لم يكن مما يرتاح له أهل مصر، أضف إلى ذلك اضطهاد الكنيسة الأرثوذكسية، فإنه لما عقد مجمع سنة ٤٥١م رُمي الأساقفة المصريون الذين دانوا بعقيدة أوتيخا بالإلحاد، وأصبح الانقسام شيئًا لا مفر منه.

ومن ثم أصبح في مصر منذ ذلك الحين كنيستان: الأولى كنيسة الدولة «مذهب الروم الأرثوذكس» وتؤيدها القسطنطينية ويطلق عليها الكنيسة الملكية، والثانية الكنيسة القومية، وقد أطلق عليها فيما بعد اليعقوبية وتعرف عادة بالكنيسة القبطية.

أما من ناحية الاشتقاق اللغوي، تجد أن كلمة قبطى «**copt**» هي نفس كلمة «مصري» «١». والكنيسة القبطية لا تعني أكثر من الكنيسة المصرية حينما انفصلت على أثر بدعة أوتيخا الدينية. ولم يكن المسيحيون المصريون من حيث كونهم قبطًا قبل مجمع نيقية أقل مما كانوا عليه بعده. غير أن تمسكهم بالطبيعة الإلهية التي لم يستطع أن يدركها إلا القليل منهم، هو الذي جعل منهم كنيسة مستقلة مما أدى إلى وقوع المصائب التي نزلت بهم وتنبيه أذهان المؤرخين إلى استجلاء ذلك الدور الذي يتعلق بتاريخهم.

وكان تمسكهم بمذهب نيقية الذي يقول بأن للمسيح طبيعة واحدة، أن عرضوا أنفسهم للاضطهاد والعزلة، كما كان سببًا في أنهم لم يساهموا في تلك الإصلاحات التي أفادت منها الكنائس الأخرى، بل إنهم ظلوا في جماعتهم الضئيلة المهملة لا يتغيرون نحوًا من خمسة عشر قرنًا، واحتفظوا بنفس التقاليد والطقوس الدينية كما كانوا في القرن الخامس الميلادي، وكانت كراهتهم الزائدة للملكيين هي التي ألقت بهم في أحضان المسلمين الغزاة، فقد رأيناهم يعملون بنصيحة بطريقهم الذي كان منفيا، ويمدون يد المساعدة للعرب منذ اللحظة التي وطئت أقدامهم

فيها أرض مصر، وكان ولعهم بالتخلص من الحكم البيزنطي، وأهم من هذا نفوذ رؤساء الدين من الملكيين، الذي جعلهم يؤثرون هذا الرأى على غيره.

وبعد أن نجح المقوقس – بمساعدة أحد الرجال الكاثوليك– ولعله قيرس بطريرك الإسكندرية الملكاني – في أن يحصل من القائد العربي على عهد الصلح الذي يدل على السخاء، أسدى القبط كل مساعدة إلى المسلمين، فكانوا يعاونونهم معاونة صادقة في بناء الجسور، كما أمدوهم بالمؤن، غير أنهم ما لبثوا أن أدركوا أنهم إنما غيروا سيدًا بآخر، بيد أن العربي – على الرغم من نزعته إلى الأنفة والكبرياء وما كان يعتريه بين آن وآخر من نزعة التعصب والاضطهاد – كان في استبداده أرق من الحاكم الروماني بكثير.

ولما وجدت الحامية الرومانية التي حاصرها العرب في حصن بابليون نفسها محرومة من مؤازرة الشعب، اضطرت إلى التسليم في أبريل سنة ٦٤١م، وسرعان ما غزا العرب الدلتا وأرغموا الروم على الانسحاب إلى الإسكندرية التي استسلمت للفزع والرعب وقبلت الشروط السخية التي عرضها عمرو. وكانت الإسكندرية في ذلك الوقت قد سادتها الانقسامات كما كانت محرومة من القواد الصالحين. وباستسلام هذه الحاضرة الرومانية في أكتوبر سنة ٦٤١م، تم فتح مصر على أيدي العرب، فلم تعد هناك مقاومة تستحق الذكر، وهكذا انتشر

المسلمون في البلاد حتى وصلوا إلى الشلال الأول للنيل وأصبحت مصر ولاية تابعة للخلافة.

وبعد أن عاد عمرو من الإسكندرية أسس مدينة الفسطاط، وذلك لأن ميناء الإسكندرية العظيم على ساحل البحر الأبيض المتوسط لم يعد صالحًا لأن يكون حاضرة للقبائل العربية التي أدت طبيعتها البدوية إلى أن يتسلط عليها شيء غير قليل من الخوف من الإسكندرية وبحرها العميق. هذا إلى أن الإسكندرية كانت معرضة في وقت فيضان النيل لأن تصبح في عزلة عن مركز سيادة العرب في المدينة. كما أن الخليفة عمر بن الخطاب– الذي لم يكن يحلم في ذلك الوقت بتأسيس إمبراطورية إسلامية شاسعة الأرجاء– كان مولعًا بأن يكون على اتصال دائم بجيشه في مصر. والواقع أن عمرًا نفسه أراد أن يجعل الإسكندرية حاضرة لمصر، وهم أن يسكنها وقال له «منازل قد كفيناها»، غير أن الخليفة عمر بن الخطاب لما سمع بذلك سأل رسول عمرو:«هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟» قال: «نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل»، عندئذ حول الخليفة وجهه عن الإسكندرية، إذ كان ينظر إلى البلد التي تم له فتحها على أنها بمثابة ثكنات للجيش أكثر مما كان ينظر إليها على أنها مستعمرة. وعلى ذلك أصدرأمره إلى قائده عمرو بن العاص بأن يختار موقعًا أكثر توسطًا. وقد وجد عمرو هذا المكان على بعد عشرة أميال شمال أطلال مدينة ممفيس حاضرة مصر القديمة في موقع الفسطاط الذي أقامه أمام حصن بابليون. وكانت هناك قناة تسمى أمنيس تراجانوس كانت قديمًا تربط بابليون بالبحر الأحمر عند السويس مارة بمدينة بلبيس أو بحيرة التمساح، وقد

أعاد عمرو فتح هذه القناة بعد أن نظفت مما كان بها من الأملاح، حتى إن الضرائب وكذلك القمح، أصبحت ترسل إلى بلاد العرب بحرًا عن طريق هذه القناة، وبذلك احتفظت مصر بعلاقاتها الوثيقة مع الخليفة.
ويرجع السبب في تسمية مدينة الفسطاط بهذا الاسم إلى قصة طريفة لا يبعد أن يكون لها نصيب من الصحة. ذلك أن عمرو بن العاص حينما قاد قواته العربية إلى حاضرة مصر القديمة، أقام فسطاطه حول المكان الذي يقع فيه جامع عمرو بن العاص الآن. وبعد سقوط حصن بابليون سار إلى مدينة الإسكندرية، غير أن الجند عندما ذهبوا ليقوضوا فسطاطه وجدوا يمامة قد باضت في أعلاه، فقال عمرو: «لقد تحرمت بجوارنا»، وأمرهم بأن يقروا الفسطاط حتى يطير فراخها، ولما فتح عمرو الإسكندرية، أخذ الجند يختطون منازلهم حول فسطاطه الذي خلفه قبل مسيره إلى الإسكندرية.

وهكذا أصبحت أولى المدن العربية في مصر، الفسطاط أو ، وكان الفضاء الذي يمتد بين النيل وجبل المقطم – حيث تقوم الآن القلعة على مكان بارز من الجبل – فضاءً خاليًا في ذلك الوقت. فلم يكن هنالك «غير فضاء ومزارع»، كما لم يكن هناك من المباني سوى بعض الكنائس وحصن بابليون الروماني، أو باب اليون الذي يسميه العرب حتى اليوم «قصر الشمع»، وكان هذا القصر– كما يقول المقريزى – «يوقد عليه الشمع في رأس كل شهر»، وبذلك يستخدم كتقويم شهري. غير أنه من المحتمل– كما يرى الدكتور بتار– أن يكون هذا الاسم تحريف اسم آخر هو قصر مصر، وأن قصة الشمعة قد اخترعت لتفسير ذلك الرأي «١».

وأما لماذا لم يحتل عمرو بن العاص مدينة مصر القديمة، فهذا مما لا نعرف عنه شيئًا. فكل ما كان له علاقة بتلك المدينة التي اندثرت لغز من الألغاز. ففي البلاد الأخرى التي فتحها العرب، لم يترددوا في الاستيلاء على الأقدم تاريخًا مثل دمشق والرهاء. أما في مصر فإنهم آثروا أن يستولوا على أراضٍ جديدة. ربما كانت مصر صغيرة جدًا أو من الممكن أن يكون الخليفة قد حرم عليهم أن يستحوذوا على الممتلكات وأن يستقروا في الريف، مما دفع العرب إلى أن يحتلوا ذلك الفضاء الممتد بين بابليون وتلال المقطم، ومما لاشك فيه أن المكان الذي نزل فيه العرب أولًا كان أشبه بمعسكر وقتي أكثر منه بمدينة بالمعنى الصحيح، فقد احتاجوا مساحة واسعة لكى يفصلوا القبائل المختلفة التي تألف منها الجيش العربي، والتي كانت برغم الإخاء الذي ينادي به الإسلام عرضة لإثارة أحقادهم القديمة. وكان الموقع الذي اختاروه واسعًا فسيحًا لا يكاد يعوقه شيء. وكانت تلك البقعة تعرف بالحمراوات الثلاثة «١» الحمراء القريبة، والحمراء الوسطى، والحمراء القصوى. ومن الواضح أن هذه التسمية ترجع إلى اللواء الأحمر الذي أقيم في الوسط.

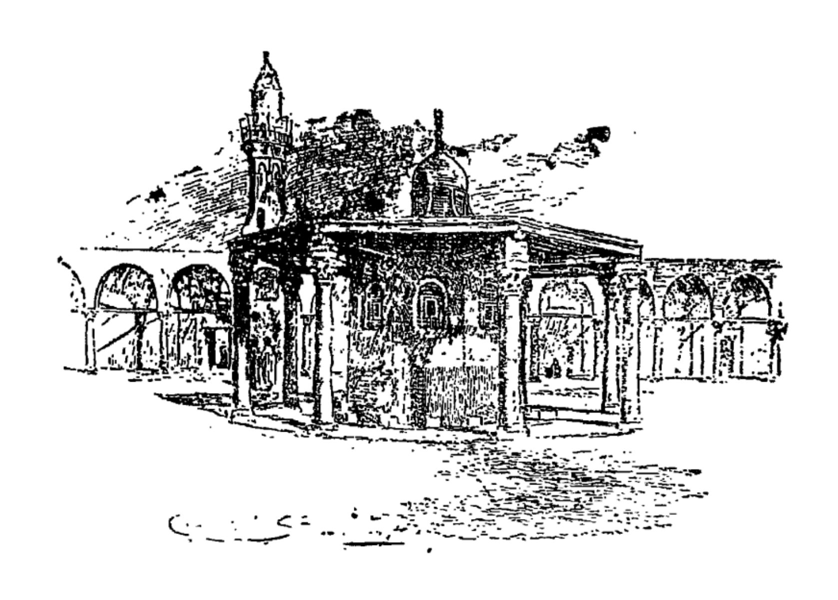
وقد قسمت القبائل العربية هذه الحمراوات الثلاث فيما بينها، واختطت منازلها فيها، مبتدئة من حصن بابليون إلى حيث ترى جامع ابن طولون الآن. وفي وسط الفسطاط اختط عمرو بن العاص داره، وبنى بجواره أول مسجد أقيم في مصر وهو جامع الفتح، وتاج الجوامع كما أطلق عليه العرب من قبيل المباهاة والفخر. غير أنه لم يلبث أن أطلق عليه اسم الجامع العتيق، ويسمى الآن جامع عمرو.

وكان هذا الجامع أولًا عبارة عن غرفة مسطحة مستطيلة جدًا طولها نحو ٢٠٠ قدم وعرضها ٥٦ قدمًا، وقد بنى من الأحجار الصلبة الملساء. وكان سقفه منخفضًا جدًا أقيم على عدة أعمدة وتتخلله بعض الثقوب لدخول الضوء. ولم تكن هناك للمسجد مئذنة أو مقصورة للصلاة، كذلك لم يكن هناك زينة أو أفاريز في الخارج، وحتى المنبر الذي اتخذه عمرو قد أزيل حين كتب إليه الخليفة يوبخه: «أما بحسبك أن تقوم قائمًا والمسلمون جلوس عند عقبيك؟». وكان من واجب الفاتح أن يؤم الناس في الصلاة ويلقي خطبة الجمعة في ذلك المكان المتواضع الذي لم يلبث أن أصبح صغيرًا جدًا بالنسبة لأهل الفسطاط الذين أخذ يزداد عددهم مما أدى إلى زيادته في سنة ٦٧٣م بأن ضم إليه جزء من دار عمرو. وفي الوقت نفسه أقيمت فيه بضعة أعمدة في الأركان– وهذه هي نواة المآذن – ليؤذن المؤذنون من فوقها. وبعد خمس وعشرين سنة هدم أحد أمراء مصر هذا المسجد عن آخره وأعاد بناءه بعد أن وسعه.

وكان من أثر الإصلاحات الكثيرة وتجديد المباني، أنه لم يبق هناك الآن قدم واحدة من البناء الأصلي. أما ما نراه اليوم فهو في الواقع ذلك المسجد الذي أعاد بناءه عبد الله بن طاهر في سنة ٧٢٧م، ثم أصلحه مراد بك في سنة ١٧٩٨م قبل أن يشتبك مع الفرنسيين في معركة الأهرام في إمبابة. وقد أصبحت مساحة الجامع اليوم أربعة أمثال مساحته الأصلية، كما أنه يختلف عنه في كل ناحية من النواحي «١».

والجامع العتيق– كما يسميه المقريزي – كان محل احترام المسلمين قديمًا. ففي هذا الجامع كان القاضي يجلس ليحكم بين الناس، وكان يجتمع في

صحنه كثير من العلماء، كما كان أيضًا المكان الذي يجتمع فيه السنيون، في الوقت الذي انقسم فيه المسلمون على أنفسهم، ولما احترقت مدينة الفسطاط في سنة ١١٦٨م، نجا هذا الجامع برغم الأضرار الكثيرة التي لحقت به، فجدده صلاح الدين الأيوبي «سنة ٥٦٨هـ» وأعاد صدر الجامع والمحراب الكبير ورخمه، غير أن الناس لم يلبثوا أن غيروا نظرتهم إلى هذا الجامع حين وجدوا أنه قد أصبح تابعًا لبلد أحرقت فأصبحت أطلالًا دارسة. كما انفضت الاجتماعات التي كانت تُعقد فيه من قبل. وهكذا حلت بجامع عمرو أيام السوء.



صحن جامع عمرو

وقد وجد ابن سعيد الرحالة المغربي الذي عاش في القرن الثالث عشر، هذا البناء العظيم وقد غطاه العنكبوت، وجدرانه التي علاها عبث

العامة والمتعطلين، وقد نثروا على أرضه ما خلفوه من فضلات الطعام. في ذلك الوقت كان هناك عدد قليل من الأتقياء الحقيقيين، على حين كان فيه عدد أكبر من العابثين. قال الجبرتي المؤرخ الذي عاش في القرن الثالث عشر: إنه كان هناك كثير من الموسيقيين وقواد القردة والمشعوذين والحواة والراقصات ممن كانوا يترددون على صحن الجامع. وقد تداعت أبنية الجامع وآلت للسقوط، حتى إن هؤلاء الناس قد هجروه. ولولا أن مراد بك كان قلقًا على حياته لأسباب معقولة جدًا وأرضى ضميره بإنفاق بعض الأموال التي حصل عليها بطرق غير مشروعة على أعمال البر نحو إعادة بناء هذا الجامع، لزال «تاج الجوامع» نهائيًا.

وفي مستهل القرن التاسع عشر، كان هذا الجامع لا يزال الجامع الذي يفضله أهالي القاهرة لإقامة صلاة الجمعة الأخيرة أو اليتيمة من شهر رمضان، وكانوا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى يتقبل صلاة من يصلي في هذا الجامع العتيق، فإذا تأخر فيضان النيل، وخشى الناس هبوط مائه، وما يعقبه من القحط وندرة الأقوات، صدرت الأوامر إلى كبار المشايخ والأئمة وأهل الورع والعلم من المسلمين بأن ذهبوا إلى جامع عمرو وصلوا صلاة الاستسقاء من أجل زيادة ماء النيل. كذلك كان يعقد قساوسة الكنائس المسيحية المختلفة اجتماعات لهذا الغرض، ويشاركهم اليهود في ذلك، وهكذا كان جامع عمرو المكان الذي يقدسه المسلمون والمسيحيون واليهود على السواء التماسًا للمطر. ويقيمون فيه الصلوات العامة في الوقت الذي حل القحط بالبلاد منذ عشرين سنة

«١٨٢٥-١٨٢٨م»، وكان من أثر ذلك أن نزل المطر في اليوم التالي«١».

إن الناظر لأقدم هذه المساجد من الخارج ليتأثر كثيرًا، ففي وسط أكوام القمامة التي تميز موقع مدينة الفسطاط، نشاهد جدرانه المرتفعة الرمادية اللون التي لا أثر للنوافذ ولا الزينة فيها، كذلك تميز بوضوح مئذنتيه اللتين هما غاية في البساطة. أما من الداخل فإنه يختلف كثيرًا برغم ما لحقه من التهدم والإهمال. هنا تجد فناءً مساحته أربعون ألف قدم مربع تقريبًا، تحيط به البواكي والأعمدة الكثيرة التي تكون دعائم سقف الطرف الشرقي، وهو المكان المخصص للصلاة. وهنالك نشاهد منظرًا غاية في الروعة والبهاء، ويزدحم المسجد بالمتعبدين الذين يؤدون صلاتهم في انحناء منظم، فيضفون على المكان جوًا من الهيبة والجلال. أما الحنايا فيرجع تاريخها إلى عصور مختلفة، وأما الأعمدة التي انتزعت من الكنائس فقد وضعت في غير مواضعها في أغلب الأحيان. والأورقة غير متوازية مع الجدران كالصوامع التي تحيط بالكنيسة، ولكنها مقامة على شكل زوايا قائمة في صحن الجامع. والقطع الخشبية الطويلة تمتد من عمود إلى عمود لتحمل المصابيح التي كان يضاء منها ثمانية عشر ألف مصباح كل ليلة في الأزمان السالفة. ونستطيع أن نتصور ذلك الضوء الساطع الذي كان يترامى أمام المسجد. غير أن ليالى الوقود قد ذهبت منذ أمد بعيد، وأصبح جامع الفاتح حطامًا باليًا، يوحي إلى الخيال بما كان يتردد عليه من طوائف العلماء والصالحين والمتعصبين ورجال الدين والفقهاء

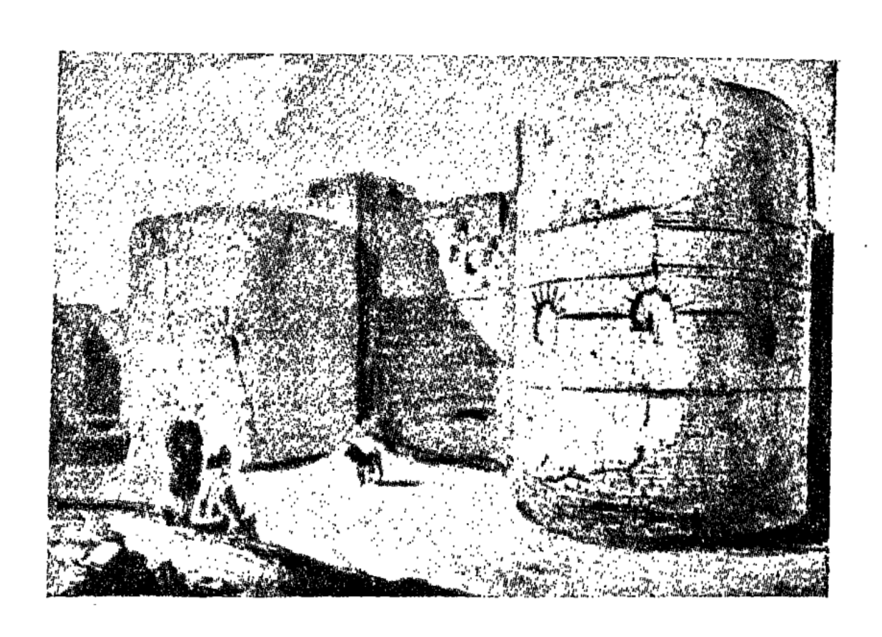
والصوفية الذين كانوا يحنون هاماهم أمام قبلته التي هجرها الناس فيما بعد «٢».

إن ذلك الجامع الأصلي الذي بناه الفاتح العربي قد امحى منذ أمد بعيد. غير أن ذلك الجامع الذي يمثله اليوم يقوم على نفس موقعه المبارك. وفي الوقت نفسه لا نستطيع أن نذكر عن مدينة الفسطاط التي شيدها عمرو مثلما ذكرنا عن جامع عمرو. فكل ما تبقى من تبقى من تلك المدينة العظيمة – التي كانت حاضرة مصر ومرفأها النهري خمسة قرون– قد اختفى تحت تلك الأكداس المتراكمة على غير انتظام من التلال الرملية التي تغطى ما خلفته تلك المدينة التي يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى. هنالك، حينما هب ريح عاصفة تثير الرمال، تستطيع في أغلب الأحيان أن تلتقط بطريق الصدفة بعض قطع من الزجاج أو الفخار أو المصابيح الرومانية، والنقود والصور والنقوش التي تدون أسماء ولاة القرن الثامن الميلادي، وما إلى ذلك من بقايا الأشياء التي كانت في الفسطاط، أما المنازل وقصور الأمراء والحمامات والمدارس التي كانت في الفسطاط فلا أثر لها البتة.

ومن المؤكد أن مخازن غلال يوسف يرجع تاريخها على الأقل إلى عهد يوسف الأخير وهو صلاح الدين، فقد رأى بنيامين التيوديلى هذه المخازن في سنة ١١٧٠م. ولكن مصر العتيقة أو القاهرة قد بنيت على أرض كان يغطيها النيل في الوقت الذي كانت فيه الفسطاط حاضرة مصر. أما ما تبقى فخراب بلقع لا أثر للحياة فيه. وسوف نلقي نظرات

سريعة على تاريخ القاهرة القديمة في الأبواب التالية، ونقرأ وصفها فيما كتبه الرحالة من الفرس والمغاربة أي من الغرب والشرق الإسلاميين. غير أن مثل هذا الوصف لا يمكننا من أن ندرك إدراكًا كاملًا المدينة العربية التي ذهبت معالمها الآن.

ومهما يكن من شيء فإنه قد تبقى هناك حتى الآن أثر يرجع تاريخه إلى الفتح العربي، غير أنه ليس عربيًا على أى حال، ذلك هو حصن بابليون الذي يقوم الآن حيث كان يشرف فيما مضى على خيام المسلمين، ويشرف على الحاضرة العربية وهي تنمو تحت أسواره. ولكى نفهم سبب تسمية حصن بابليون بهذا الاسم– أو كما يسميه البعض باب لى أون أو باب أون، يجب علينا أن نذهب إلى المطرية على بعد بضعة أميال شمالي القاهرة، حيث تقوم مسلة منعزلة هي كل ما تبقى من مدينة أون **on** أو مدينة هليوبوليس «مدينة الشمس». وهناك في منبسط المطرية حارب الأتراك أمام هذه المسلة المنعزلة في المعركة الأخيرة التي انتهت باستيلائهم على القاهرة من أيدي المماليك في سنة ١٥١٧م، وهنا أيضًا انتصر كليبر على الأتراك في سنة ١٨٠٠.



باب قصر الشمع

هناك يقوم بعد أون **on** الذي كان يوتيفيراه– حمو يوسف– يعمل فيه كاهنًا. هناك أيضًا كان بياشى – ملك الكهنة الإثيوبيين في القرن الثامن قبل الميلاد– يستحم في عين شمس، ويقدم الثيران واللبن والعطور والبخور والأخشاب العطرة المختلفة، وحيث رأى عند دخوله المعبد أبا رع **ra** « إله الشمس» في المحراب.

وكانت هليوبوليس جامعة أقدم حضارات العالم، وقد سبقت جميع المدارس في أوروبا، ويغلب على الظن أن موسى كان يتلقى حكمة المصريين على أيدي كهنة رع. وهنالك عمل هيرودوت على نقض هذه التعاليم نفسها، وأحرز شيئًا من النجاح في هذه السبيل. وهناك أيضًا أتى أفلاطون لتلقى تعاليمه، كما ذهب العالم الرياضي يودوكس ليدرس الفلك، كما شهد استرابون **strabo** المنازل التي عاش فيها مشاهير

اليونان. وفي ذلك المركز العالمي ومصدر النفوذ الديني، لم يبق من آثاره سوى تلك المسلة. فلقد تكسرت «صور بيت شمس» وضاع أثرها، واحترقت «منازل آلهة المصريين» «١».

وبجانب تلك المسلة المنعزلة الآنفة الذكر، نشاهد شجرة جميز عتيقة جفت بفعل الزمن، وشوهتها الأسماء التي لا عد لها، هذه الشجرة هي التي استراحت تحتها العائلة المقدسة «٢» حينما هربت إلى مصر، ومن هنا سميت شجرة العذراء، وعلى مقربة من هذه الشجرة نبع ماء عذب، وهو بلا شك منظر غريب في تلك الضاحية المقفرة. ويقال إن ماءه قد أصبح عذبًا لأن الطفل «٣» قد استحم فيه. ومن هذه البقع حيث تساقطت قطرات الماء من قماطه الذي غسل في ذلك النبع المقدس، نمت أشجار البلسم التي لم تنم – كما يعتقد البعض– في أي مكان آخر. وليس هنالك من شاهد يدل على صحة هذه الأوهام التي هي أشبه ما تكون بالخرافات. أما شجرة الجميز فقد خلفت بطبيعة الحال تلك الشجرة المزعومة، وهي لم تزرع إلا بعد سنة ١٦٧٢م.

غير أن ما يقال من أن أونياس اليهودي بنى معبدًا ليتعبد فيه مواطنوه بالقرب من ذلك المكان، وأنه استحضر بعض المزارعين من اليهود ليتعهدوا نمو شجر البلسم، يكسب هذه القصة شيئًا من الصحة.

لقد اندثرت هليوبوليس، ولكن حصنها المنيع «باب أون» الذي يحرسها مازال يتحدى الزمن، والواقع أن اسم بابليون مصر الذي يستعمل للدلالة على الحاضرة «الفسطاط» وعلى الحصن، يظهر كثيرًا في تاريخ العصور الوسطى وأقاصيصها، مثال ذلك تلك القصة التي تصور لنا كيف

انتصر ريتشارد قلب الأسد على صلاح الدين الأيوبي.

وسواء أكان هناك أساس لما رواه كل من استرابون وديودورس، من أن ذلك الحصن بناه أول الأمر بعض المنفيين من بابليون العظيمة في بلاد كلديا، فإن الحصن الحالي يرجع تاريخه إلى القرن الثالث، ولا يبعد أنه يرجع إلى القرن الثاني من الميلاد. والواقع أن منظر الحصن من الخارج يضفي على النفس كثيرًا من العظمة برغم تصدع جدرانه، وتغطية الرمال قواعدها. غير أن منظره العام لم يطرأ عليه تغيير كبير، إذ نستطيع أن نميز بوضوح طابياته الخمس وبرجيه المستديرين.

أما الجدران فقد بنيت على الطريقة الرومانية التي كانت شائعة في ذلك الوقت: خمس مداميك من الأحجار وثلاث من الطوب على التبادل، أما الأساس فلا يبعد أن يكون قد طلي باللونين الأحمر والأصفر كما كان الحال في المساجد والدور الإسلامية، وحتى مظهر هذا البناء الضخم يجعل الإنسان يدرك في سهولة ما كان لاستيلاء العرب عليه من أهمية.

وإذا دخلنا الحصن نستطيع أن نلمس لأول وهلة الطابع الخاص الذي يطبع به هذا الحصن، ذلك أننا نمر خلال ممرات معتمة أضيق وأظلم وأقذر من الأزقة التي تقع وراء مدينة القاهرة، هناك يسود السكون الرهيب الذي يخيم على المكان بأكمله، والمنازل المرتفعة التي تحجب الشارع ليس فيها الكثير من زخارف المشربيات التي تزين شوارع القاهرة، ولولا بعض الأصوات التي تصدر بين الفينة والفينة من داخل تلك المنازل، وبعض الأبواب التي تترك نصفة مغلقة، لما خطر لنا على بال إن كان هنالك أى لون من ألوان الحياة في ذلك الحصن. ومما يميز

تلك المنازل كذلك صغر حجم نوافذها ذات القضبان الحديدية المتشابكة.

وليس هناك حقًا ما يدل على أن تلك الجدران المنبسطة تحوي بين طياتها ست كنائس فخمة لكل منها هيكلها الخاص الحافل بالنقوش والصور والملابس الكهنوتية وغيرها من الأشياء التي ليس لها مثيل. والواقع أن الكنيسة القبطية تشبه الحريم عند المسلمين، فهي من الخارج غيرها من الداخل، فكما أن منظر معظم المنازل في القاهرة لا يدل على أى شيء مما تحويه من فناء واسع في الداخل، تحيط به غرف فسيحة نقشت على جدرانها أبدع الرسوم وأروعها، وأسقف ليست بأقل بهجة ولا روعة، هذا فضلًا عما تحويه من الطنافس الفاخرة التي تتلألأ من وراء ذلك الضوء القليل الذي ينعكس من وراء النوافذ ذات الزجاج الملون– كذلك الحال في الكنائس القبطية حيث لا يمكنك أن تتكهن وأنت في الخارج بما تحويه هذه الكنائس في الداخل، فإن الأسوار العالية تخفي كل ما تحويه هذه المباني، والواقع أن القبط يخجلون في العادة من الزائرين، وليس أدل على هذا من تلك الجدران المرتفعة المحيطة بالكنائس من الخارج، والتي لا تحوي أى نقوش ليتخلصوا بها من تلك الملاحظات التي كانت تثير فيما مضى الشراهة والتعصب الديني.

وبعد أن نمر من الباب المتين ونعبر أحد الدهاليز أو نرتقي بعض الدرجات، نجد أنفسنا أمام كنيسة فخمة، لها محراب قد تحسدها عليه أية كنيسة في إنجلترا، وفي ذلك الضوء الضئيل نشاهد صفوفًا من تماثيل رائعة للقديسين تطل عليك من فوق المحراب والستائر، كما تجد بعض العبارات

منقوشة بالذهب باللغتين القبطية والعربية مشيدة بتمجيد الله سبحانه وتعالى، على حين نجد في أعلى المكان حنايا في إحدى حافتي الكنيسة، تبين لنا أنه لا يبعد أن تكون ثمة كنوز أخرى فنية سوف يكشف عنها في المستقبل.

ولعل أهم ما تصطبغ به الكنيسة القبطية بوجه عام هو أنها من طراز بناء الكنيسة البازيليكية الشهيرة في روما، غير أن هناك بطبيعة الحال بعض أوجه الخلاف التي جعلت الكنيسة القبطية تخرج في بعض الأحيان عن هذا الطراز، والقبة القبطية تتميز بالطابع البيزنطي الذي يكاد يكون شائع الاستعمال في العالم. وفي بعض الأحيان قد تجد كنيسة مسقوفة بعدد من القباب يصل إلى اثنتي عشرة قبة. وتتكون الكنيسة من صحن وأجنحة جانبية وبعض الحنايا «التي تشبه تمامًا أقواس الكنيسة الأيرلندية القديمة والتي لم تكن لتوجد في غيرها». ومن النادر أن يكون لهذه الكنيسة أجنحة أو أنها تقرب من شكل الصليب، وفي مؤخرة الكنيسة مكان خاص تجلس فيه السيدات اللاتي خلف الرجل كما يرى أهل الرأي من القبط، ويحولون بذلك دون حدوث أى اضطراب في أثناء العبادة والصلوات في حالة جلوس الجنسين بعضهما مع بعض كما يحدث في بعض الكنائس الغربية، ولذلك يفصل قسم النساء عن قسم الرجال حاجز دون عوارض خشبية يكون عادة أعرض بكثير وأحسن زخرفة وتنميقًا، كما يفصل قسم الرجال عن المرتلين فاصل آخر.

والكنيسة تحوي ثلاثة هياكل مختلفة ومنفصلة، كل منها تعلوه قبة (ليست على شكل نصف دائرة) خاصة به، وبداخل كل هيكل أفخر الستائر

محلاة بصلبان من العاج والأبنوس والأشكال الهندسية المنقوشة على الطراز العربي على الخشب في براعة ودقة، تعلوها صور وعبارات منقوشة بالذهب باللغتين القبطية والعربية (١).

وفي أثناء إقامة الصلاة تُفتح الأبواب الداخلية والستارة الموشاة بالفضة، فيبدو المذبح للمجتمعين المتعبدين في صورة تذكرنا بالاحتفال الذي يثير العواطف كما يقام في كاتدرائية القديس إسحاق بمدينة بطرسبرج، فالأبواب المنقوشة والستائر المزركشة والمصابيح المدلاة هنا وهناك والمشكاوات التي تشبه بيض النعام – كل هذا يعطينا صورة للمذبح، بغطائه الحريرى أكثر من كونه مكعبًا من الطوب أو الجبس، وتلك المشكاة التي لا تقدر بثمن قد وضعت في الجهة الشرقية، وكان لها دلالة غامضة في غابر الأيام، أما الآن فإنها تستخدم لوضع الصليب فيها وحوله أوراق الورد عند الاحتفال بيوم الجمعة الحزينة (٢) تمهيدًا للاحتفال بعيد القيامة، والمذبح في الكنائس القبطية منعزل عن جدران الهيكل التي تكون في الغالب مغطاة بألواح رقيقة من الرخام الملون على الطراز المصرى، أما السقف فقد رسمت عليه صور بارزة على الخشب، وأخرى بالألوان المائية تمثل الاثني عشر رسولًا وفي وسطهم السيد المسيح وهو يبارك الناس، ومن فوق المذبح رواق رسمت عليه صور الملائكة رسمًا رائعًا، ويفصل الهيكل الرئيسي والمذبح التابع له عن الهيكلين الجانبيين ستائر مصنوعة من الخشب الرفيع المشبك.

ومن الأشياء الغريبة في الهيكل، ذلك الصندوق الذي يحمل كأس التناول المصنوع من الفضة الخالصة، وإن تلك المروحة التي تستخدم لطرد الهوام

أثناء العشاء الرباني لا تقل مطلقًا عما تقدم في إثارة اهتمام الناظر، وقد نقشت من الفضة الخالصة بحيث يبرز النقش على السطح المقابل، وهنالك مراوح مماثلة في كتاب كيلا **kela** الأيرلندى، وليس هناك إطلاقًا صليب يظهر عليه المسيح مصلوبًا، وقد نجد في بعض الهياكل بقايا عظام أحد القديسين، ولكن الكنيسة القبطية لا تحرم مثل هذه البقايا، على الرغم من أن معظم الكنائس تحوي الكثير منها، وهناك كثير من المؤمنين يعلقون أهمية عظيمة على ما في هذه البقايا من خواص تساعد على الشفاء، وقد يكون أبدع ما نراه في الزخارف المعدنية في الكنيسة القبطية ذلك الصندوق الفضي الذي بداخله نسخة من الإنجيل يظن أنها ختمت بالشمع، مع أنه ليس بداخله غير بعض أوراق الشجر، وهو في الغالب مثل جميل للنقوش المعدنية التي تمثل الصيد فيبرز النقش على السطح المقابل، وهذا الصندوق يؤتى به من على المذبح حيث يتسلمه أحد الشمامسة ويضعه على المقرأ ثم يقرأ من إنجيل آخر هناك، والمقرأ نفسه شيء بديع أعد ليكون أداة من أدوات الزينة، وذلك المقرأ الذي كان في الكنيسة المعلقة – والذي نراه الآن في كنيسة الأقباط الكبرى في القاهرة – مغطى بنقوش بديعة تشبه تلك النقوش التي نراها على أبواب المساجد ومنابرها.

ومن بين الكنائس الست التي كان يشتمل عليها حصن بابليون، نرى ثلاثًا في غاية الروعة والبهاء، ذلك أنه على الرغم من أن كنيسة سان جورج الإغريقية التي تقوم على قمة البرج المستدير محلاة بالقرميد السوري والمصابيح المصنوعة من الفضة، فإن البرج الروماني نفسه أكثر

إمتاعًا من الكنيسة المقامة عليه، ومن هذه الكنائس القبطية الأساسية الثلاث، نجد كنيسة القديس سرجيوس أو «أبي سرجة»، وهي التي يتردد عليها الناس أكثر من غيرها، لأنه قد أثر أن العائلة المقدسة استراحت في ناووسها حينما أتت إلى مصر، ومن المؤكد أن هذا الناووس أقدم من الكنيسة التي تعلوه بقرون كثيرة، إذ يرجع تاريخها إلى القرن العاشر الميلادي، والكنيسة نفسها تتميز بستارة بديعة الصنع، وعلى مقربة منها مثل واضح للنقوش القبطية القيمة التي تمثل ولادة المسيح والقديسين المحاربين وقد بدت صورهم بارزة، وثمة مثل آخر لهذه الصورة المحفورة نراه في كنيسة القديسة بربارە.

وإلى جانب كينسة أبي سرجة وكنيسة القديسة بربارە، لا تزال هناك كنيسة قبطية ثالثة جديرة بالذكر لا تقل عن هاتين الكنيستين روعة وبهاءً، وهذه الكنيسة معلقة بين برجين رومانيين مرتفعين، فوق باب من الطراز القديم منقوش عليه نسر، وقد سميت هذه الكنيسة – كما يدل على ذلك موقعها – الكنيسة المعلقة، وهذه الكنيسة جديرة بالملاحظة وتثير الانتباه لعدة أسباب، لأنها أقدم كنائس بابليون على الإطلاق، ولأنها خالية تمامًا من القباب، ولهذه الكنيسة مزايا أخرى، فليس لها هيكل كغيرها من الكنائس، بل هناك منصة مرتفعة أمام السقف المنخفض في الجهة الشرقية، وهذه المنصة تؤدى الغرض الذي يؤديه الهيكل، على حين نرى السقف مضاعفًا في الجانب الشمالي، والحاجز المنقوش في الجانب الشمالي مطعم بالزخارف المصنوعة من العاج الرقيق مما يزيد في بهجة المكان وجماله حينما كانت تضاء المصابيح المعلقة خلفه، أما المنبر

فقد نقش نقشًا بديعًا رائعًا، وهو مقام على خمسة عشر عمودًا دقيقًا صنعت على الطراز الإسلامي، مقسمة إلى سبعة أزواج أقيم أحدها في المقدمة، ولعل من أغرب ما تحويه الكنيسة المعلقة، حديقتها المعلقة حيث ساعدت الخبرة على غرس النخيل في الفضاء على تأييد تلك الرواية القائلة بأن السيدة العذراء حينما أتت إلى مصر أفطرت بعد صيامها من تمر ذلك النخيل.

وليس هذا مجال الكلام عن طقوس الكنيسة القبطية وعقائدها، إن صيام الأقباط الكبير الذي يستغرق خمسة وخمسين يومًا، والذي يمتنع فيه الشخص امتناعًا تامًا عن الطعام منذ شروق الشمس حتى غروبها في كل من هذه الأيام – هذا الصيام لاشك أنه يوحي إلينا بصوم رمضان الأقل شدة عند المسلمين – وسر الزواج المقدس «١» يحمل بين طياته بعض العناصر الغريبة.

غير أنه مما لاشك فيه أن معظم الاحتفالات التي تتم في الكنيسة القبطية لها وقارها وهيبتها، فما من أحد يستطيع أن يشهد القداس في كنيسة قبطية دون أن يثير ذلك انتباهه، وكذلك لا يستطيع أحد ألا يتحرك لسماع أصوات الشمامسة وهم يترنمون في الكنيسة القبطية في صوت واحد مرتفع، ومهما يكن من شيء، فلا ينبغى أن ننكر ما تدين به الكنيسة القبطية من إيمان قويم.

الباب الثالث

القطائع

ولاة الخلفاء – حلوان – معاملة المسيحيين – الرهبنة – الأقباط المحافظون – «العسكر» المدينة العباسية – ولاة العباسيين: ابن ممدود– عبد الله بن طاهر– الخليفة المأمون في مصر– اضطهاد المسلمين والقبط –

ولاة الأتراك– تشجيعهم الفن– أحمد بن طولون– «القطائع» المدينة الجديدة – السقاية– جامع ابن طولون – مصادر العمارة العربية – حروب أحمد بن طولون– قصور خمارويه – الخلفاء يستردون مصر– قلعة الكبش أصبحت مصر بعد الفتح العربي سنة ٦٤٠م ولاية تابعة للخلافة الإسلامية، ومن ثم أصبح يحكمها – كما كانت سائر الولايات الأخرى – ولاة من قبل الخليفة.

وقد احتفظ الخلفاء الأربعة بالمدينة المنورة التي اتخذها الرسول مقرًا للحكومة العربية حاضرة للخلافة، غير أنه بعد مقتل علي بن أبي طالب، رابع الخلفاء الراشدين، حولت الدولة الأموية مقر الحكم إلى دمشق التي جاء منها معظم الولاة الثلاثين الذين حكموا الديار المصرية في أثناء التسعين سنة التي تولت فيها الخلافة الأموية الحكم.

وكان بعض هؤلاء الولاة أولاد أو إخوة الخلفاء الذين كانوا يتولون الحكم في ذلك الوقت، كما أن معظمهم كانوا من المقربين إلى أولئك الخلفاء، ولم تكن لهم خبرة في أساليب الحكم وإدارة شئون البلاد، كما كانوا يجهلون كل شيء سوى دينهم ولغتهم.

وكانت غاية الخليفة في دمشق أن يحصل على أكبر قدر ممكن من خراج الولايات التابعة له، وكانت مصر بوجه خاص يُنظر إليها في ذلك الوقت على أنها بقرة حلوب، وكان عمرو بن العاص الفاتح العربي أول من حكم مصر، ولما استقر في حاضرته الجديدة «الفسطاط» أرسل نوابه في أنحاء البلاد فتمكنوا من جمع ما يقرب من ستة ملايين جنيه من شعب يتراوح عدده بين ستة ملايين وثمانية ملايين نسمة، ولما توفي هذا المحارب القديم في التسعين من عمره ودفن في تلال المقطم، قيل إنه ترك سبعين كيسًا من الدنانير (١)، أو ما يقرب من عشرة أطنان من الذهب، غير أن أولاده الذين اشتهروا بالاستقامة اعتذروا عن عدم أخذ نصيبهم من الميراث.

ومهما يكن من شيء، فإن من المؤكد أن الولاة كانوا يولون وجوههم شطر الضرائب بنوع خاص، وأنهم لم يهتموا بشئون البلاد بقدر ما كانوا يهتمون بتحصيل الجزية وضريبة الأراضي، وكانوا يجمعون هذه الضرائب وينظرون إليها كما لو كانت ملكًا يتصرفون فيه كما شاءوا، وليس من شك في أن الوالي الذي كان متوسط مدة ولايته ثلاث سنين ونصف السنة، والذي كانت معيشته بعد ذلك تعتمد في العادة على ما

ادخره في خلال فترة حكمه – إذا عرفنا ذلك أدركنا أنه إنما وقع تحت إغراء شديد يدفعه إلى الاستفادة من هذه الفرص القصيرة بقدر ما يستطيع، وكان من بين هؤلاء الولاة الصالح وغير الصالح.

غير أن قصر عهد الولاة واعتمادهم اعتمادًا مطلقًا على الخليفة في دمشق قد حدّ من نفوذهم ونشاطهم، ومن ثم قنعوا بالعمل على حفظ النظام وإرسال الجزية إلى خليفتهم، بيد أن منصب الوالي لم يكن سهلًا ميسورًا، فقد كان هناك آلاف من جند العرب في الفسطاط والإسكندرية وسائر المدن المصرية، غير أن الولاية المتعاقبين كانوا يجلبون معهم جنودًا يحلون بهذه البلاد، أما بقية السكان فكانوا من المسيحيين الذين عقدوا العزم على أن يظلوا على دينهم، والواقع أن تغيير المسيحيين لدينهم على نطاق واسع كان بمثابة نكبة تحل على الخزينة، لأن ذلك معناه ضياع جزية مقدارها جنيه عن كل شخص من أهل الذمة، غير أن تلك الأقلية كان لها خطرها، بدليل أن أحد الولاة الذي ولى مصر بعد الفتح بنحو تسعين سنة، قد يئس من إدماج عدد يذكر من المواطنين المصريين إلى صفوف المسلمين، فلجأ إلى استدعاء خمسة آلاف من العرب وإسكانهم في الوجه البحري، والواقع أن مصر لم تصبح إسلامية إلا بخطوات وئيدة، وبعد اندماجهم في أهالي البلاد الأصليين بالمصاهرة والزيادة المطردة في العرب النازحين إلى مصر عن طريق الهجرة، وقد اقتصر نزول العرب على المدن الكبيرة دون سواها ردحًا طويلًا من الزمن.

ولابد أن تكون الفسطاط نفسها قد اجتذبت عددًا كبيرًا جدًا من القبط من المدن المصرية المجاورة التي بدأت تندثر، ولم يكن هؤلاء القبط من النساء اللاتي اتخذهن الفاتحون العرب زوجات لهم وحسب، بل ومن الرجال الذين عملوا في خدمة الحكومة. وكان طبيعيًا أن تكون جميع الأعمال الحكومية في أيدي المحكومين من الشعب، ولم يكن عرب الصحراء ليعرفوا شيئًا عن نظام الحكم أكثر مما كانوا يعرفونه عن النظام القبلي الذي درجوا عليه، ذلك النظام الذي يقضي بأن تكون السن والفضائل أساس اختيار شيخ القبيلة، ومن ثم نراهم يطبقون أينما حلوا تلك النظم التي وجدوها في البلاد التي خضعت لسلطانهم.

وكانت الوظائف الرومية تنقل إلى ما يقابلها من الوظائف العربية. وكان القبط – الذين ولدوا ليصبحوا كتابًا وصيارفة – يتولون إدارة الدواوين جميعًا، وقد ظلت الكتب الحكومية والوثائق العامة تدون باللغة القبطية نصف قرن، غير أن المنفعة لا تستلزم التسامح، ومن ثم لم يسلم المسيحيون دائمًا من الاضطهاد على الرغم من الخدمات التي كانوا يؤدونها للحكومة، ومهما يكن من أمر هذا الاضطهاد، فإنهم لم يعاملوا معاملة أسوأ من تلك المعاملة التي يتوهمها البعض أحيانًا، ولقد ساعد القبط عمرو بن العاص حينما كان يغزو مصر، ولذلك تجد عمرًا يذكر لهم هذا الجميل فيمنح اليعاقبة امتيازات ويرد بطريقهم من منفاه إلى كرسيه، كما سمح والٍ آخر للقبط بأن يبنوا كنيسة لهم في مدينة الفسطاط بجوار الجسر الذي كان يصل بين الحاضرة وجزيرة الروضة (١).

كذلك تجد واليًا ثالثًا هو عبد العزيز ابن الخليفة الأموي مروان بن الحكم، يشتري أحد الأديرة في طموية من الرهبان ويدفع لهم أكثر من عشرة آلاف جنيه ثمنًا له حين أراد أن يمتلك دارًا في الريف، ولقد ذهب هناك للاستشفاء من الجذام من الينابيع الكبريتية في حلوان التي تقع بين القاهرة ومنف، ومن عجب أن ندرك كيف أن هذه المدينة الصحية «وقد تحولت الآن نحو الصحراء» كادت تصبح حاضرة مصر. وقد بلغ من إعجاب عبد العزيز بجو حلوان أنه بنى هناك مساجد في سنة ٦٩٥م، كما بنى قصرا يعرف «ببيت الذهب» نسبة إلى قبته الذهبية. كما أنشأ في هذه المدينة حديقة غناء، وغرس الأشجار، وأنشأ بها بركة كبيرة وقناطر (١) وبنى مقياسًا للنيل.

وكان حد النيل الأدنى إلى ذلك الوقت يُقاس في مدينة منف، غير أنه في سنة ٧١٦م شيد مقياس جديد للنيل في جزيرة الروضة، ثم بنى بعد ذلك مقياس آخر في طرف الجزيرة الأعلى في سنة ٨٦١م، على أن الولاة المتعاقبين لم يشاركوا عبد العزيز ابن مروان في آرائه الخاصة من حيث مباهج حلوان أو من حيث علاقته بالقبط.

ومن ثم نقرأ عن ذلك النظام الذي أدخله العرب وآثار غضب القبط فيما يتعلق بجوازات السفر والشارات التي تميز الرهبان والغرامات وألوان التعذيب وتحطيم الصور المقدسة، مما أثار مثل ذلك السخط، حتى إن الناس أذكوا الثورات، وقد وجدنا أن ملك بلاد النوبة المسيحي سار

إلى مصر ليطلب إطلاق سراح أحد البطارقة الذي زج في غياهب السجن.

ولم تكن هذه الاضطهادات من جانب المسلمين على أى حال أكثر من اضطهاد المسيحيين لليهود في ذلك الوقت، غير أن هذا لا يبرر ما كان يقوم به المسلمون، ويظهر أن الرهبان هم الذين أثاروا تعصب المسلمين الأولين، حيث لم تجد تعاليمهم الرهبانية قبولًا لدى هؤلاء المسلمين، ولقد حدث فيما بعد أن الخلفاء الشيعيين في القاهرة عاملوا رهبان القبط معاملة تنطوي على العطف والرعاية، غير أن الحال لم يكن كذلك في عهد الفتوح العربية، ولقد كانت الرهبنة في مصر قوة لا يستهان بها منذ أقدم العصور، ففي القرن الثالث حدث أن انتشر أتباع القديس مرقص واستقروا في جماعات مختلفة في جميع أرجاء الدلتا، وأخذوا يكونون ما يعرف بـــ«الحكم المصري»، ولا نعرف إلى أي حد نحن مدينون لأولئك النساك الأقدمين، فيعتقد البعض أن المسيحية الأيرلندية التي تعتبر العامل الحضاري العظيم في العصور الوسطى الأولى بين الأمم الشمالية، هي التي تمخضت عنها الكنيسة القبطية، فهناك سبعة من الرهبان دفنوا في **Disert Ulidh**، وهناك كثير من الحفلات وأساليب العمارة في أيرلندا القديمة، مما يذكر الإنسان ببقايا المسيحية في العصور الأولى في مصر، وكل منا يعلم أن الحرف التي كان يقوم بها الرهبان الأيرلنديون في القرنين التاسع والعاشر، كانت تفوق إلى حد بعيد ما عساه يوجد في أي مكان آخر في أوروبا في ذلك الوقت، وإذا كانت نقوشهم البيزنطية الرائعة على الذهب والفضة، والمصابيح ترجع إلى

تعاليم المبشرين المصريين، فإن من العدل أن نشكر القبط شكرًا لا حد له، ومما هو معروف في تاريخ الفن أن العرب في بنائهم يدينون للقبط بكثير من مباهج هذا الفن.

ومثل هذه الاعتبارات لم تكن لتستطيع بطبيعة الحال أن تؤثر في أناس كالعرب انعدمت لديهم الروح الفنية تمامًا، فهم كانوا ينظرون إلى الرهبان الأقباط على أنهم مرشحون للوظائف الكتابية وحاملو أسرار جديرة بالحصول عليها لصالح المؤمن.

أما الزمالة أو الصداقة فلم يكن لهما أي اعتبار، والحقيقة التي تقول بأن الاضطهاد لم يتخذ صيغة عامة ودائمة، يجب أن تعزى إلى ذلك المثل الحكيم الذي يحرم ذبح الأوزة التي تضع بيضًا من الذهب. ونقرأ بين حين وآخر عن مذابح تنطوي على القسوة، وعن ألوان التعذيب وتخريب الكنائس القبطية، ثم لا تلبث أن تسمع عن إذن ببناء إحدى الكنائس أو إعادة بنائها، كذلك نجد القبط يجتمعون في هدوء في حصن بابليون الذي كانوا يحتلونه دائمًا لانتخاب بطريق لهم، وفي الوقت نفسه تظهر بعض العبارات التهكمية والصور الساخرة والتماثيل التي تمثل الشيطان معلقة جميعها على أبواب القبط، وكم كان يحدث من وقت إلى آخر ثورة أو مشاجرة في الطرق تتمخض دائمًا عن مذبحة مروعة يتبعها تخريب كثير من الكنائس وسقوطها.

ولكن على الرغم من كل ذلك الاضطهاد، ومن مروق ضعاف الرهبان من دينهم، لا تزال الكنيسة تحتفظ بوجودها الذي يكتنفه الكثير

من الصعاب، والواقع أن ثبات تلك الطبقة الجاهلة – لأن رجال الدين من القبط لم يكن لهم في ذلك الوقت حظ من التعليم– على ما كان عليه الأقدمون من إيمان وعقيدة، مما ينم عن الكثير من صفات البطولة والشهامة، فقد احتفظوا بطقوسهم واحتفالاتهم الدينية كما كان يقوم بها آباؤهم من قبل، ولو أن جدران كنائسهم الباقية الكثيرة الثقوب، وأبوابها الضخمة المتينة، وممراتها السرية – كل هذا يشهد بما كانت تتعرض له تلك الاحتفالات من أخطار، وكان كثير من هذه الكنائس يصل إلى درجة كبيرة من الغنى، كما تدل على ذلك النقوش الرائعة، ولعل ذلك راجع إلى أن أصحابها لم يستطيعوا أن يستغنوا عن فن الكتابة والحساب الذي درجوا عليه.

ولقد كان لاختصاص القبط في هذا الفن واحتكارهم إياه وتمسكهم بعقيدتهم القديمة أنهم لم يتغيروا حتى اليوم على الرغم من مرور القرون والأجيال، بل لقد بقوا محتفظين بشخصيتهم وتقاليدهم الخاصة برغم ما لحق بهم من ألوان الاضطهاد، فالقبط مازالوا حتى اليوم شعبًا منعزلًا، أقل امتزاجًا بالدم الأجنبي من سائر سكان وادي النيل، فملامحهم تذكرنا بملامح قدماء المصريين التي نراها على آثارهم، وهي في هذا أقرب من ملامح الأهالى من المسلمين، وليست الناحية الجسمية وحدها هي التي تبين لنا أن القبط هم خلفاء قدماء المصريين، بل إن اللغة أيضًا تدلنا على ذلك، فلهجتهم – كما نسمعها اليوم في طقوسهم واحتفالاتهم الدينية في الكنائس – ترجع في أصلها إلى اللغة الهيروغليفية وإلى حجر رشيد، وهم بطبيعة الحال يستعملون اللغة العربية في حياتهم اليومية، غير

أن الكلمات المقدسة في دينهم لا تزال مفهومة بعض الشيء لدى رجال الدين، كما أنها تحتفظ في الوقت نفسه بمكانتها وجلالها بجانب الترجمة العربية إذا ما استخدمت في أغراض الكنيسة، ومما يدل على جمودهم أنهم يحتفظون بتلك اللغة القديمة، لا من حيث النصوص التي تتعلق بها- وهي عبارة عن الكتابة على شكل رسوم - بل من حيث هذا الضرب من الحروف الكبيرة البارزة التي نراها في المخطوطات الإغريقية القديمة، وإن شعبًا من سلالة الفراعنة يتكلم بلغة رمسيس ويكتبها بحروف كادموس، ثم يستخدمها بعد ذلك في عقائده وطقوسه الدينية التي لم يستطع اثنا عشر قرنًا من الاضطهاد أن يغير منها شيئًا- إن شعبًا كهذا لهو في الحق أعجوبة من أعاجيب التاريخ.

ولقد جاء العباسيون بعد أسلافهم الأمويين سنة ٧٥٠م، وكانت مدينة الفسطاط في ذلك الوقت مسرحًا لذلك الصراع الأخير، فلقد هرب مروان، آخر خلفاء الدولة التي قدر لها الزوال، إلى مصر حيث أشعل النار في طريقه في الفسطاط وفي الجسر الذي كان يصلها بجزيرة الروضة، وبعد ذلك فر إلى الشاطئ الغربي للنيل، غير أن التدابير التي اتخذها قد ذهبت أدراج الرياح، ذلك أن القائد العباسي وجند خراسان سرعان ما وجدوا الوسائل لعبور النيل، وكان طواف المدن برأس مروان دلالة على زوال عهد وقيام عهد جديد، ونحن نعرف أن المغتصبين يمقتون أشد المقت أن يقيموا في دور من غلبوهم على أمرهم، وهكذا تحول الخلفاء العباسيون عن دمشق وبنوا لأنفسهم حاضرة ذائعة الصيت في بغداد، أما ولاتهم في مصر فقد صرفوا نظرهم عن بيت الإمارة في

الفسطاط، وأسسوا ضاحية رسمية جديدة كقصر فرساي بالنسبة إلى باريس، في المكان الذي عسكر فيه الجند، وأطلقوا عليها «العسكر»، وكان موقع هذه المدينة في الناحية الشمالية الشرقية من الفسطاط تقريبًا على جزء من الحمراء القصوى التي كانت قد احتلتها ثلاث من القبائل إبان الفتح العربي ثم هجرتها فاستحالت إلى صحراء.

في ذلك المكان تكونت ضاحية جديدة نمت على مر الزمن وغدت تمتد من الفسطاط إلى جبل يشكر حيث يقوم جامع ابن طولون الآن، وسرعان ما بنى هناك مسجد وقصر للوالي وثكنات لجيوشه، ولم تلبث تلك الضاحية الجديدة أن امتلأت بالشوارع والميادين، كما أحاطت القصور الكبيرة بهذه المدينة الجميلة التي اتخذها الخمسة والستون واليًا الذين كانوا يمثلون الخلفاء العباسين مركزًا لحكومتهم مدة مائة وثماني عشرة سنة، ولقد بنى أحد هؤلاء الولاة لنفسه في سنة ٨١٠م قصرًا صيفيًا أطلق عليه «قبة الهواء» على طرف المقطم حيث بنيت قلعة القاهرة، وإلى ذلك المكان كان يختلف ولاة مصر من حين إلى حين لينعموا بالنسيم العليل، غير أن تلك الضاحية الجديدة لم تكن سوى حي للموظفين ودور للقضاء، وهي في الوقت نفسه لم تقلل من أهمية الفسطاط باعتبارها حاضرة مصر.

غير أن تلك الضاحية الجديدة لم يتبق منها أي أثر، بل إن سجل الولاة الذين عاشوا هناك قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الزوال (١)، وكان عمل هؤلاء الولاة أصعب من عمل أسلافهم الذين حكموا مصر

تحت ظل الخلفاء الأمويين، كما كان عليهم أن يقضوا على الخلافات التي قامت بين المسلمين، والثورات التي اشتعلت بين القبائل العربية والقبط. ولقد شهدت مدينة الفسطاط هذه الثورات التي أطاحت برءوس آلاف الثائرين، كما أن شجاعة الخارجين كان ينتابها الوهن حين كانوا يرون بأعينهم رءوس زعمائهم وقد رفعت في جامع عمرو بن العاص، والواقع أن تاريخ هذه الفترة بين سنتي ٧٥٠ و٨٦٠م عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الفتن والثورات والإلحاد والانشقاقات والمؤامرات السرية والعقائد المتطرفة.

غير أن هذه الاضطرابات قلما أثرت في تلك الحاضرة الغنية، وكان ثراء بعض الولاة أكثر إثارة لسخط المدنيين الآمنين، فلقد كان أبو صالح بن ممدود في سنة ٧٧٩م شديدًا نوعًا ما، فأظهر نشاطًا عظيمًا في القضاء على اللصوصية وقطع الطريق في الريف، وقد بلغ من رضائه عما اتخذه من إجراءات أن اكتفى بإقناع نفسه بعدم استحالة وقوع السرقات في المدن، وأدى به اقتناعه بهذا الاعتقاد إلى أنه أمر أهل الفسطاط بغلق أبواب منازلهم وحوانيتهم في الليل، وألا يتخذوا أية وسيلة من وسائل حمايتها أكثر من وضع شرائح القصب لتمنع الكلاب من دخول الأبواب، كما منع حراس الحمامات من الجلوس فيها وقال: "من ضاع له شيء فعلى أداؤه"، فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول: "يا أبا صالح احفظها" (٢)، وهكذا لم يكن أحد ليجرؤ على الاقتراب من تلك الملابس.

وبطبيعة الحال فمثل هذا الأمن كان يستلزم الكثير من السهر واليقظة من جانب ذلك الوالي، غير أن ما سنه من القوانين الغاشمة عن الملابس وتدخله في شئون الناس قد أثار سخط الأهلين حتى لقد كانت قسوته أبعد أثرًا من المساوئ التي قضت عليها.

وهناك قصة رويت عن الخليفة المشهور هارون الرشيد، وإن لم تكن من القصص التي تجلب له الاحترام والتبجيل من ناحية الذين رشحوه للخلافة، ذلك أن أحد ولاة زمانه ويدعى موسى «بن عيسى» (١) العباسي كانت له خبرة واسعة بأعمال الحكم، كما أحسن إلى القبط وسمح لهم ببناء ما هُدم من كنائسهم، وقد بلغ الرشيد أنه يريد الخروج عليه «ولا يبعد أن يخلفه إذا كان أحد أفراد بيته» فصاح: «والله لا عزلته إلا بأخس من على بابي» فنظر فإذا عمر «بن مهران» كاتب «الخيرزان» أم الرشيد.. يركب بغلا.. فخرج إليه جعفر «بن يحيى البرمكي» وقال: أتتولى مصر؟ قال: نعم! فسار إليها، فدخلها وخلفه غلام على بغل للثقل، فقصد دار موسى «في مدينة العسكر» فجلس في أخريات الناس. فلما انفض المجلس قال له موسى «وكان لا يعرفه»: ألك حاجة؟ فرمى إليه بالكتاب، فلما قرأه قال: لعن الله فرعون حيث قال: «أليس لي ملك مصر»؟ ثم سلم إليه ملك مصر، فمهدها عمر المذكور، ورجع إلى بغداد وهو على حاله (٢).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد في بعض الأحيان ولاة أكفاء يُبعث بهم من بغداد أحيانًا، ومن أمثال هؤلاء عبد الله بن طاهر والي

خراسان شمالى بلاد فارس «حيث أسس دولة فيما بعد»، وكان عمله في مصر ينحصر في طرد جموع غفيرة ممن لجأوا إلى مصر من إسبانيا، وكانوا قد استولوا على الإسكندرية حيث ساعدهم إحدى القبائل العربية المتحمسة في الخروج على الحكومة، غير أن عبد الله بن طاهر اضطر في أثناء اضطلاعه بهذا العمل إلى القبض على سلفه «عبيد الله ابن السرى» الذي أبى أن يترل له عن الولاية، وكان من أثر ذلك أن حوصرت الفسطاط برًا وبحرًا في سنة ٨٢٦م.

وقد حدث أن جاء إلى معسكر عبد الله بن طاهر في إحدى الليالى ألف عبد وألف جارية يحمل كل منهم ألف دينار في كيس، غير أن عبد الله أبى أن يقبل هذه الرشوة، وأرغم حامية الحصن على الخروج من المدينة بعد أن مات أكثرهم من شدة الجوع، ولكن عبد الله بن طاهر عاد إلى فارس لسوء الحظ بعد أن انتهت مهمته، وفقدت مصر مثالًا نادرًا للحاكم العادل الرحيم، كما كان عالًما محبًا للشعر معضدًا للشعراء.
ومما يؤثر عن حكم عبد الله بن طاهر «العبدلاوى» ذلك النوع من الشمام الذي أدخله عبد الله لأول مرة في مصر، والذي تذوقه الأوروبيون في أي فندق من فنادق القاهرة.

ولقد حدث فيما بعد أن جاء الخليفة المأمون بن هارون الرشيد بنفسه إلى مدينة العسكر في سنة ٨٣٢م لإخماد تلك الثورة الجامحة التي أذكى نارها القبط في الوجه البحري، وقد اشتهر المأمون بتشجيع العلم والفلسفة، فقد أتم القضاء على الثورة بإحكام ومن غير شفقة، حتى إنه لم

تقم بينهم حركة قومية فيما بعد من هذا القبيل، وقد دان بالإسلام كثير من القبط، واستقر العرب في الأراضي والقرى بدلًا من المدن الكبيرة وبذلك أصبحت مصر آخر الأمر بلدًا إسلاميًا، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يزور فيها النيل خليفة عباسي، ومن ثم وجدنا الشعراء يتسابقون إلى مدحه مديحًا عاطرًا، غير أن المأمون حين شاهد هذا المنظر من «قبة الهواء» تملكه الاستياء وقال ما قاله موسى بن عيسى، والى مصر الأسبق: «لعن الله فرعون حيث قال «أليس لي ملك مصر»؟ (١).

غير أن زيارة الخليفة المأمون لمصر، وإن كانت قد أخمدت ثورات القبط، فإنها أثارت متاعب أخرى جاءت نتيجة لها، فلقد كان من أثر شغفه بالتفكير في الله وفيما وراء الطبيعة– ذلك التفكير الذي أدى إلى تشجيع دراسة الفلسفة اليونانية في بغداد– أنه دان بالعقيدة التي تقول بخلق القرآن والتي تعارض رأي المسلمين من أهل السنة معارضة صريحة، وكان هذا المذهب الجديد البغيض بمثابة امتحان للقضاة، كما أن كل من حدثته نفسه بمعارضة هذا الرأي كان يلقى كثيرًا من ألوان العنت والإرهاق، ولقد حدث أن عارض أحد القضاة في الفسطاط هذا المذهب فنزعت لحيته وطيف به في طرقات المدينة وضرب بالسياط وهو على حمار، كما أن أساتذة مدارس المذهبين الحنفي والشافعي قد طُردوا شر طردة من جامع عمرو بن العاص، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان هذا العار أقل ما لحق بإنسان، لأن القضاة كانوا في ذلك الوقت يمثلون فريقًا لا يستهان به من موظفي الحكومة المصرية، ذلك أنهم كانوا يعرفون بالاستقامة والنزاهة بصفة عامة، كما أن قاضي القضاة كان مستقلًا تمام

الاستقلال عن سلطة الوالي، وكان بمثابة وزير العدل في مصر في ذلك الوقت، يفسر الشريعة ويشرف على تطبيقها، ولم يكن يتردد في اعتزال منصبه إذا لم تُقبل أحكامه، ومهما يكن من شيء، فإنه لم يكن مستعدًا لأن يكبح جماح تعصب بني جلدته وقد تبع القضاء على ثورة المسيحيين اضطهاد لم يسبق له مثيل.

وبعد وفاة الخليفة المأمون أخذ عداء أهل السنة يظهر من جديد، وجاء الخليفة المتوكل «٢٣٢-٢٤٧هـ» فأصدر عددًا من القوانين التافهة بقصد إذلال القبط «٨٥٠م»، «فأمر «سنة ٢٣٥هـ» أهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير، وركوب السروج بالركب الخشبية، وعمل رقعتين على لباس رجالهم، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب «أو نسانيس أو كلاب»، ومنعهم من لبس المناطق، ونهى أن يطهروا في شعانينهم صليبا وأن لا يشعلوا في الطريق نارًا» (١). وكان الغرض من هذا بطبيعة الحال تهيئة الفرصة لاغتصاب الأموال وفرض الغرامات على من تحدثه نفسه بمخالفة لوائحه.

ولسنا في حاجة إلى أن نسهب في الكلام عن فترة الحكم العربي في مدينتي الفسطاط والعسكر، فإن الولاة من العرب لم يخلفوا من ورائهم إلا أثرًا ضئيلًا. ومع أنه مما يؤسف له أنه لم يبق أمامنا اليوم مثل واحد من أبنيتهم- مما كان يكون حلقة من حلقات الفن الإسلامي - فلابد أنه كان لتلك المباني قيمة عظيمة.

والواقع أن العرب لم يبتكروا في الفن شيئًا، وما يعرف في إسبانيا «بالفن العربي» يرجع في أصله إلى أجناس أخرى أكثر رقيًا من العرب، كذلك في مصر فإننا لا نجد أي أثر للفن الإسلامي إلا حينما أخذ الخلفاء يقلدون مصر ولاة من الأتراك، وفي الوقت الحاضر نسمع الكثير عن سوء حكم الأتراك، ولكن فليكن هذا الحكم طيبًا أو سيئًا، فإن أحدًا لا يستطيع أن ينكر أن التركي يستطيع أن يحكم، ذلك أنه في العصور الوسطى كان يبدو أن الأتراك هم الشعب الوحيد الذي كان يمتلك أساليب الحكم، وليس أدل على هذا من أن أعظم حكام آسيا في القرن الحادي عشر الميلادي هو ملكشاه السلجوقي وكان تركيًا، كذلك كل ما نطلق عليهم مغول الهند من أمثال بابر، من الأتراك، وحينما تقسمت أوروبا المنازعات والمنافسات كان نفوذ سلاطين الأتراك في القسطنطينية يمتد من نهر الطونة إلى المحيط الهندي، ومن القوفاز إلى جبال أطلس.

وليس أشد عجبًا من هذه الحقيقة وهي أنه حينما وجد حكم تركي في العصور الوسطى ازدهرت الفنون والآداب تبعًا لذلك. والواقع أن الفن لم ينتعش في بلاد كثيرة حتى أتى الأتراك فاستمد وحيه منهم، وليس معنى ذلك أن الأتراك أنفسهم كانت لديهم قدرة فائقة خاصة على الابتكار في الفن أو الأدب– ذلك أنه من الصعب أن نشير على الأقل من بين الحكام من الأتراك الذين حكموا مصر– مع فترة تقل عن مائتى سنة كان جميع حكامها تقريبًا أتراكًا في الأحد عشر قرنًا الماضية – إلى عدد كبير كان أهلًا لترقية الثقافة، على أن ذلك كان يرجع إلى تلك اليد القوية التي ساعدت على استقرار النظام الذي هو من مستلزمات نشر

الثقافة، ثم إن جنودهم كانوا لا يتورعون عن جلب النقود التي كان الحكام في حاجة إليها لبناء القصور الفخمة التي كانوا يحبون أن تنعكس عليها قوتهم وثراؤهم.

ولا يبعد أن يكون لأولئك الحكام شغف غريزي بالفن، كما أن معظمهم كانوا مولعين بالبذخ وحب الظهور، ميالين إلى أن يحيطوا أنفسهم بكل ما هو فاخر ونفيس. كما أن كثيرين منهم كانوا يعتقدون أن إيقاف المال على أماكن العبادة قد يكفر عن الذنوب التي يرتكبها الفرد في حياته، وهم في هذا إنما يذكرون قول النبى (صلى الله عليه وسلم): «من بنى بيتًا لله ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتًا في الجنة»، ومهما يكن من شأن الأسباب التي دفعت الأتراك إلى هذا كله، فإن الحقيقة التي سوف تبقى دائمًا هي أننا نجد أثرًا لنفوذ الأتراك في جميع أنحاء الشرق من البوسفور إلى الكنج، وإلى أتراك دلهي وأجرا يرجع الفضل فيما عرفناه عن قطب منار والتاج والزينات الدقيقة في فاتبور سكرى. كذلك بنى الأتراك مسجد عطاء الله في جونيور، ومساجد أحمد أباد والفور وبيجابور. كما بنى الأتراك السلاجقة الفخمة في قونية وقيسارية وسيواس وغيرها من مدن آسيا الصغرى. أما الأتراك العثمانيون فقد بنوا أضرحة بروسة والمساجد السلطانية، التي تأتي في الأهمية بعد مسجد القديسة صوفيا في القسطنطينية، ومثل هذا تمامًا نجده في مصر. فأول نموذج للفن الإسلامي الخالص لم يظهر إلا حينما بدأ الأتراك يقبضون على زمام الحكم، فحتى سنة ٨٥٦م كان حكام مصر جميعًا من العرب، وباستثناء جامع عمرو بن العاص، لم يكن هناك ما يتميز

بالطابع العربي، أما منذ سنة ٨٥٦ م فإن حكام مصر قد أصبحوا من الأتراك، وبعد عشرين سنة ظهر جامع ابن طولون، أول وأعظم المباني التي تتميز بطابع الفن العربي في مصر.

وإذا أردنا أن نبين كيف آل حكم مصر إلى الأتراك، فقد يخرج بنا ذلك كثيرًا عن نطاق الموضوع الذي نحن بصدده، وهو تاريخ القاهرة نفسها، ولكن الذي يهمنا أن نعرفه هنا، أن تلك الحركة- التي ساعدتها سياسة الخلفاء- كانت جزءًا من تلك الحركة الكبرى التي قامت بها شعوب أواسط آسيا، والتي كانت قد بدأت منذ فجر التاريخ، ذلك أن العباسيين قلقوا من ازدياد نفوذ ولاة الأقاليم في بلاد الفرس، كما أن تلك القبائل العربية الثائرة قد هددت نفوذهم في بلاد الجزيرة.

ومن ثم نجد العباسيين يبعثون في طلب حرس من المرتزقة الذين كانوا يجلبون من أسواق النخاسة ببلاد ما وراء نهر جيجون، وأخذ يتملكهم العجب والزهو بحماية هؤلاء الشبان الأقوياء من الأتراك، غير أن هذه المسألة لم تلبث أن تمخضت عن سوال حائر لم يكن في الحسبان، وقد أدرك خلفاء بغداد المترفون بعد فوات الفرصة أنهم بشرائهم أولئك العبيد الأشداء قد حكموا على أنفسهم بالاستعباد، وغدا رئيس الحرس ناظرًا للسراي (١) في بغداد مع الخلفاء المستضعفين. وبدأ الأتراك يشغلون مناصب الدولة، وعهدوا إلى أصدقائهم بتقلد الولايات الغربية للحصول على إيراد هذه الإقطاعات دون أن يهتموا بمشاغل الحكم. وقد حدث أن كان بعض الأمراء الأتراك يعيشون في بغداد أو في غيرها من

بلاد الجزيرة ويحتفظون بهذه الإقطاعية ويحصلون على ما يفيض من خراج مصر عن طريق نوابهم من العرب، غير أنه في سنة ٨٥٦م أصبح النائب صاحب الإقطاع من الأتراك، وفي سنة٨٦٨م أرسل بابك، صاحب إقطاع مصر، أحمد بن طولون زوج ابنته ليحكم مصر نيابة عنه.

كان أحمد بن طولون في الثالثة والثلاثين من عمره حين وصل إلى الفسطاط، وقد جمع بدرجة رائعة بين الكفاية الحربية والإدارية التي امتاز بها أبناء جلدته، إلى جانب الثقافة الإسلامية التي كانوا حديثي عهد بها، وقد تلقى علومه على علماء بغداد، بل سافر إلى طرسوس حيث تلقى العلم على بعض علمائها، وتعمق في دراسة اللغة العربية والعقائد الإسلامية، وكان إلى جانب ذلك ذا نشاط لا يحد، صادق الفراسة، كما عرف كيف يختار مرءوسيه ويستغلهم لمصلحة دولته، وكان عادلًا شجاعًا جوادًا، وكان شعاره: «من مد يده إليك فأعطه»، وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر متواترة، وكان راتبه لذلك ألف دينار في كل شهر، وقد جاء مصر مفلسًا إلا مما اقترضه من أحد أصدقائه، ولكنه خلف عند وفاته عشرة ملايين دينار في بيت المال، سوى عدد عظيم من مماليكه وخيوله ومائة سفينة حربية، ومع ذلك فإنه أتم هذه الأعمال الاقتصادية دون أن يلجأ إلى زيادة الضرائب، والواقع أنه ألغى ضرائب كثيرة مختلفة، وكان يعتمد في دخل دولته على تشجيع الزراعة، فقد كان شديد الاهتمام بالزراعة، وكان يعمل دائمًا على أن يجعل الفلاح آمنًا في أرضه.

ولأول مرة منذ الفتح العربي نجد مصر دولة قوية ذات سيادة، ذلك أن أحمد بن طولون سرعان ما أبطل كل مظهر من مظاهر التبعية سوى التبعية الاسمية للخلافة، وبعد أن تغلب على الدسائس وقمع ثلاث ثورات قامت في مصر، سار إلى سوريا واحتل أرضها حتى بلغ طرسوس والفرات، وحارب جيوش الخلافة، كما حارب جيوش الدولة البيزنطية المقيمة على الحدود عند كيلكيا، ومد نفوذه من الأراضي الممتدة من برقة في ليبيا حتى حدود الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى، ومن نهر الفرات حتى شلال النيل الأول.

وإلى جانب هذه السياسة الاستعمارية، بذل أحمد بن طولون جهودًا جبارة وأموالًا ضخمة على تجميل حاضرته، فإن دار الإمارة في العسكر– وهي الضاحية الرسمية في الفسطاط– قد ضاقت بحاشيته وجنده الكثيرين، ولم يكن ليقنع بمجرد قصر يكون مقرًا لحكمه، وفي سنة ٨٧٠م اختار المكان الواقع إلى أقصى الشمال الشرقي من العسكر بين جبل يشكر وسفح المقطم قرب دار الإمارة، وأمر بحرث قبور المسيحيين واليهود، وأسس ضاحية رسمية جديدة تسمى «القطائع»، وقد سميت كذلك لأن لكل طبقة «مثل غلمانه وغيرهم من الروم والسودانيين» قطيعة خاصة بها، وكانت المدينة الجديدة تمتد من الرميلة الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين، وهي مساحة قدرت بميل في ميل، أما القصر الجديد فقد بني تحت «قبة الهواء» (١) القديمة، وجعل له حديقة غناءً وميدانًا فسيحًا يضرب فيه بالصوالجة، ويلحق بهذا الميدان بناء خاص بتربية الخيل وآخر لعرضها، وكانت دار الإمارة جنوبي الجامع

العظيم الذي لا يزال قائمًا إلى الآن، وكان للقصر طريق خاص يخرج منه ابن طولون للصلاة، أما الحريم فإن لهن قصرًا منفصلًا، وسرعان ما عمرت هذه المدينة وأقيمت فيها الحمامات العظيمة الأسواق ووسائل الأبهة والبذخ (٢).

وقد بنى القواد والضباط دورهم حول القصر، وأقيمت الدور العظيمة، وأصبحت أسواقها أحسن من أسواق الفسطاط وزخرت بمختارات السلع وأحسنها، أما الميدان الذي كان أحمد بن طولون وقواده يروحون فيه عن أنفسهم بأن يلعبوا فيه بالصوالجة (٣)، فقد أصبح المكان المفضل الذي يختلف إليه الناس، وقد بلغ من شغف الناس بذلك الميدان أن كنت إذا سألت أحدهم: إلى أين أنت ذاهب؟ أجاب: إلى الميدان. كان لهذا الميدان أبواب كثيرة كل منها لطبقة خاصة: فهناك باب الخالصة وباب الحريم. كذلك كانت هناك أبواب تسمى بأسماء خاصة مميزة، كباب السباع وعليه سبعان من جبس، وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج، وباب الدرمون لأن حاجبًا أسود يحمل هذا الاسم كان يجلس عنده. ولم يكن أحد يستطيع أن يمر من الباب الأوسط سوى أحمد بن طولون نفسه. وكان جنده الذين بلغ عددهم ثلاثين ألفا يمرون من البابين الجانبيين.

وكان الأمير يجلس في أيام عرض الجيش في مكان مرتفع يشرف منه على القطائع، ويرى الناس وهم يدخلون من باب الصوالجة ويمرون من باب السباع الذي كانت تعلوه مقصورة خاصة يجلس فيها في ليلة

العيد، حتى إذا رأى أحدهم في حاجة إلى إصلاح حاله، أمر له بما يصلحها: وكان هذا المنظر يمتد من هذه المقصورة إلى مدخل الفسطاط وإلى النيل، ولذلك كثيرًا ما كان هذا الأمير يفضل الجلوس فيها.

وكان الماء يصل إلى القصر من عين في الصحراء الجنوبية عن طريق قناطر معلقة لا تزال آثارها باقية إلى اليوم– وليست هذه هي القناطر التي يجرى يها الماء من النيل إلى القلعة والتي ترجع إلى عصر متأخر كثيرًا – غير أن الناس بدأوا يتشككون في قيمة هذا الماء القراح الذي لم يعتادوه من قبل حيث كانوا يشربون من مياه النيل والآبار العكرة، وقد اتصلت الشائعات بابن طولون، فبعث في طلب الفقيه محمد بن عبد الحكم ليستجلي حقيقة هذه الشكوك، وقد روى هذا الفقيه تلك القصة فقال:
«كنت ليلة في دارى إذ طرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون فقال لي: الأمير يدعوك، فأيقنت بالهلاك وقلت للخادم: الله الله في فإني شيخ كبير مضعف مسن، فتدري «كذا» ما يراد مني؟ فارحمني! فقال لي: حذار أن يكون لك في السقاية قول، وسرت معه وإذا بالمشاعل في الصحراء وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشمع، فترلت وسلمت، فلم يرد على، فقلت: أيها الأمير إن الرسول أعنتني وكدني وقد عطشت، فيأذن لي الأمير في الشرب؟ فأراد الغلمان أن يسقوني، فقلت: أنا آخذ لنفسي، فاستقيت وهو يراني، وشربت وازددت في الشرب حتى كدت أنشق ثم قلت: أيها الأمير! سقاك الله من أنهار الجنة، فلقد أرويت وأغنيت، ولا أدرى ما أصف، أطيب ماء في حلاوته وبرده أم صفائه؟ أم طيب ريح السقاية؟ فنظر إلى وقال: أريدك لأمر ليس هذا وقته فاصرفوه،

فانصرفت فقال لي الخادم: أصبت، فقلت: أحسن الله جزاءك فلولاك هلكت».

على أن الأثر الذي خلد اسم ابن طولون حقًا، هو جامعه الذي بقي وحده من مدينة القطائع العظيمة بعد أن دهمتها الحرب الأهلية وفعل فيها الإهمال فعله، والواقع أن هذا المسجد أبدع ما في مصر الإسلامية من آثار، كما أنه نقطة تحول مهمة في تاريخ العمارة، وهناك شيئان يميزان هذا المسجد بصفة خاص: الأول أنه بني من مواد جديدة تمامًا، وليس من أسلاب الكنائس والمعابد القديمة، والثاني أنه المثال الأول لاستعمال العقود المدببة الشكل (١)، وهي العقود التي لم تظهر في إنجلترا إلا بعد ذلك بقرنين على الأقل، وهذه العقود مدببة فعلًا، ولها قاعدة تماثلها قليلًا، ولكن شكلها لا يشبه نعل الفرس. ويروي لنا المقريزي كيف أن أحمد بن طولون عثر على كنز في تلال المقطم في مكان يسمى تنور فرعون، وأنه عول على أن يبني فيه مسجدًا جامعًا بعد أن ضاق مسجد العسكر بالمصلين، وعمل على أن يكون الموضع الذي يبني فيه ذلك المسجد تلك القمة الصخرية المسطحة بأعلى جبل يشكر، لأنه مكان مبارك معروف بإجابة الدعوات، إذ كان بعضهم يعتقد أن موسى كلم يهوذا عليه، وفي هذا المكان وضع ابن طولون أساس المسجد في سنة ٨٧٦م «٢٦٣هـ»، وبعد سنتين تم بناؤه وأقيمت فيه الصلاة بحضور الأمير.

وقد واجهت أحمد بن طولون صعوبة في الحصول على الأعمدة الثلاثمائة التي دعت الحاجة إليها لحمل العقود، غير أن مهندسه – وكان

مسيحيًا وقبطيًا من غير شك (١)– كتب إليه، وكان مسجونًا في ذلك الوقت، أنه يستطيع بناء المسجد بلا عمد إلا عمودي القبلة، ومن ثم أمر الأمير بإحضاره وقال له: «ويحك! ما تقول في بناء الجامع؟ فقال: أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانًا بلا عمد إلا عمودي القبلة»، فأمر بأن تُحضر له الجلود، فأحضرت وصوه، فكان ذلك بلا شك أول ما عرف عن نماذج بناء المساجد، ووقف أحمد بن طولون على مزايا هذا التصميم في الحال، فخلع على المهندس، وعهد إليه ببناء المسجد، وأعطاه مائة ألف دينار لتنفيذ مشروعه، ولما تم البناء أعطاه عشرة آلاف دينار أخرى، وبلغ ما أنفقه ابن طولون على بناء هذا المسجد ما يربو على مائة وعشرين ألف دينار، أي نحو ثلاثة وستين ألف جنيه.

وإن استعمال العقود والدعائم من الأجر بدل استعمال الأعمدة من الرخام يرجع إلى كراهة ذلك الأمير حرمان الكنائس المسيحية من أعمدتها الكثيرة، كما يرجع بوجه خاص إلى رغبته في أن يكون مسجده بمنجاة من الحريق، وقد قيل له إنه إذا بني مسجده من الآجر الأحمر والرماد والجير فإنه سوف يقاوم النار أكثر مما لو استعملت أعمدة الرخام في بنائه، ومهما يكن من شيء فإن الحقيقة التي لا ريب فيها أن هذا المسجد قاوم النيران التي دمرت سائر مباني القطائع، وأن استعمال هذه الطريقة الجديدة في البناء، وهي استعمال الدعامة المصنوعة من الآجر بدل الأعمدة الرخامية، قد أدى إلى استخدام العقود المدببة، كما أن استبعاد الرخام قد أوحى باستعمال الجص في الزخرفة التي لا يزال كثير منها محتفظًا بروعته إلى اليوم.

ويتكون الرواق الجنوبي الشرقي، أي رواق القبلة، من خمس بلاطات «**Aisles**»«١»، ومن بلاطتين في كل من الأروقة الثلاثة أخرى، والدعائم تعلوها عقود مغطاة بالجص، وكذلك الزخارف الدقيقة والزخارف القالبية «٢» التي نشاهدها في قصر الحمراء والتي استخدمت فيها الآلة في الجص الرطب، كالفرق بين الفنان والصانع.

وفي كل ركن من أركان الدعامة المستطيلة التخطيط عمود متصل تاجه على شكل زهرة، ومغطى بزخارف نباتية.

وعلى كل من جانبي العقود المشرفة على صحن الجامع – وهي أيضًا مدببة الشكل ومحمولة على أعمدة متصلة – فتحات معقودة مدببة على أعمدة متصلة يكتنفها من جهتيها وريدة، ويعلو جميع العقود والفتحات شريط يجرى حول الصحن مكون من وريدات يعلوها شرافات جميلة، أما العقود الداخلية فتختلف عن العقود التي حول الصحن، وحول العقود والنوافذ الداخلية شريط من الزخارف النباتية يجري حولها، ثم يسير أفقيًا فوق الدعامات، ويعلو هذا الشريط شريط آخر يجري أفقيًا تحت السقف عليه كتابات بالخط الكوفي منقوشة على الخشب، ويمثل نموذجًا من الكتابة الكوفية في هذا العصر التاريخي، والسقف مغطى بعروق من الخشب تغطيها من أسفلها ومن جانبيها ألواح من خشب الجميز مزخرفة بأشكال هندسية محفورة في الخشب، وفي الرواق الشمالي الغربي المقابل لرواق القبلة، نوافذ معقودة بعقود مدببة ومغطاة بزخارف هندسية، عنصر الزخرفة بداخلها وريدة أو نجمة، وهي

مخرمة في الجص (١).

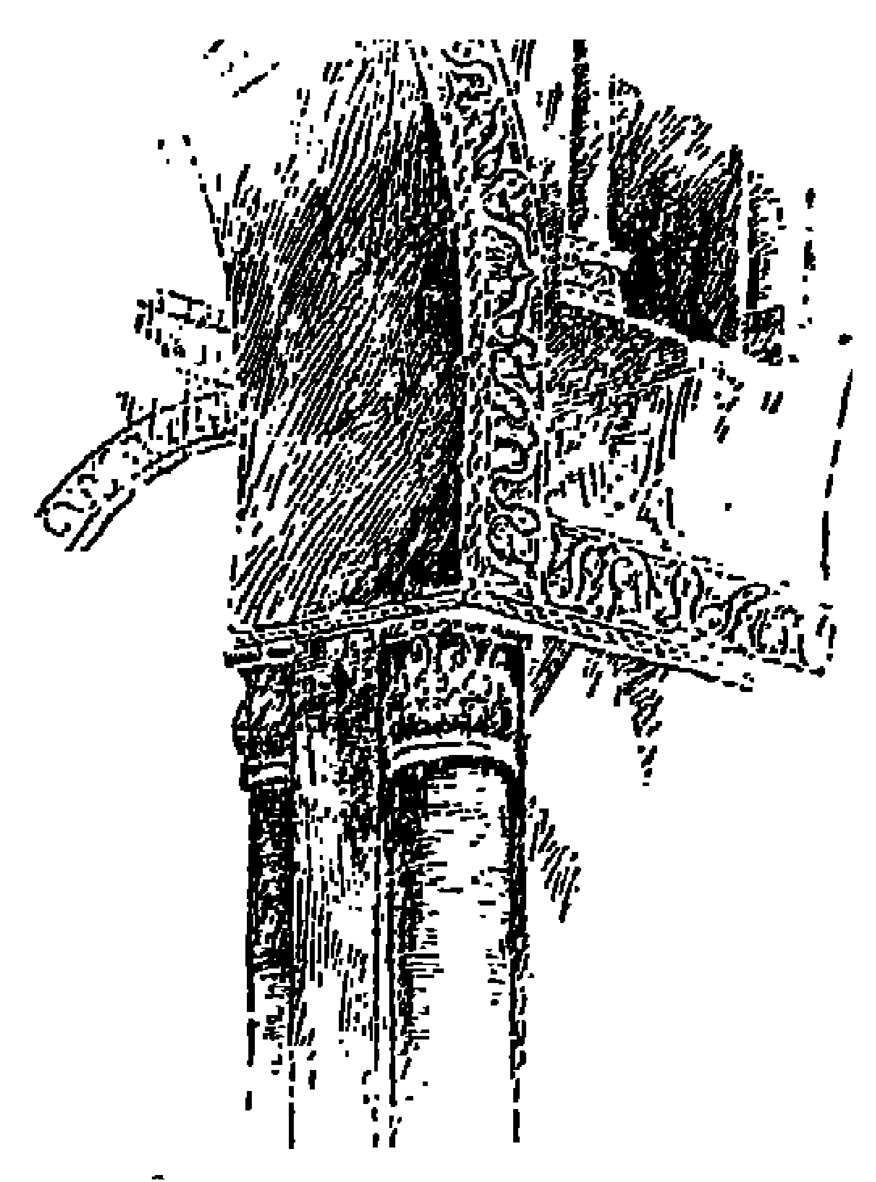


داخل رواق القبلة في مسجد ابن طولون

ويشبه مسجد أحمد بن طولون من حيث التخطيط مسجد عمرو بن العاص بعد أن أعيد بناؤه، وهذا لا يختلف عن تخطيط مساجد القاهرة بين القرنين التاسع والثالث عشر، وكان صحن الجامع الفسيح المربع الشكل، الذي تبلغ مساحته ثلاثة أفدنة، يتسع لأكبر عدد من المصلين،

أما الأورقة المسقوفة فقد حالت دون تسرب أشعة الشمس إلى جماعات الطلاب وأهل الورع والفقراء الذين كانوا يتخذون من المساجد مأوى لهم، والرواق الجنوبي الشرقي، أو رواق القبلة أو قاعة الصلاة (٢)، بما فيه من بلاطات عميقة، كان يشتمل على المقصورة الخاصة، على حين يوجه المحراب المصلين نحو الكعبة، وهو تجويف معقود داخل في الحائط، ومحمول من جهتيه على عمودين، أما المنبر والدكة فكانا – ولا يزالان– يساعدان المؤذنين والمبلغين على سماع المصلين خطبة الجمعة وقراءة القرآن، وفوق المحراب قبة محمولة على مقرنصات ترجع إلى عصر السلطان لاجين.

أما من حيث الابتكار أو التجديد فلا نجد في هذا الجامع شيئًا جديدًا (٣). ولا يبعد أن يكون العرب قد اقتبسوا شكله من معابد الساميين القديمة، كما لا يبعد أن يمثل الصحن الفسيح الفناء الواسع في الكنيسة البيزنطية على شكل البازيليكا «**Basilica**»، ويمثل الليوان أو الإيوان الكنيسة نفسها (٤).



زخرفة حول العقود والدعائم وأعلى الدعائم وتيجان الأعمدة

كذلك نرى في الحائط المحراب المجوف الذي يوجه المصلين نحو الكعبة، ومما لا شك فيه أن هذا الأسلوب يلائم تمام الملاءمة ما يتطلبه

الجو، فلم يكن ثمة حاجة إلى تغيير أو تبديل.

أما القبة والمئذنة، وهما من مميزات مساجد القاهرة التي بنيت بعد ذلك، فإن جامع ابن طولون يختلف عنها في شكل برج حلزوني درجاته من الخارج، وهي تشبه الآثار الآشورية المعروفة بالزيجورات، وقد بنيت على طراز «الملوية» وهي مئذنة مسجد المتوكل في سامراء على نهر دجلة، ولا يبعد أن يكون الجزء العلوي الذي نراه على شكل مبخرة قد أعيد بناؤه في زمن متأخر، ولو أن منارة جامع ابن طولون كانت من غير شك لا تزال على حالها الأول في سنة ١٠٤٧م، حيث وصفها ناصر خسرو، فإنه من الصعب أن نسميها مئذنة بما تدل عليه هذه الكلمة (١) وليست هناك قبة، إذ لا شأن لها بالصلاة وبالتالى بالجامع (٢)، فهي التغطية الأصلية لسقف ضريح، ولا توجد إلا حيث توجد تغطية هذه القبة، أو على الأقل إذا عقد العزم على بناء ضريح تحت هذه القبة، ولا نجد قبة إلا حيث يوجد بناء ملحق بالمسجد يضم في العادة قبر منشئ هذا المسجد أو أسرته، وليس من الضروري أن تكون هذه القبة قريبة من مكان الصلاة، على أنه قد يكون من قبيل المصادفة أن يكون من مساجد القاهرة عدد كبير من هذه المساجد التي يضم كل منها حجرة تضم قبر مؤسس المسجد، وإن تلك القباب التي لا عدد لها والتي تشاهد من قلعة الجبل، لما يوحي إلينا بهذه الفكرة الطبيعية، وهي أن لكل مسجد من مساجد القارة ضريحًا خاصًا به، حقيقة إن لمعظم المساجد التي بها أضرحة قبابًا، غير أنه في الوقت نفسه لا نرى مسجدًا لم يكن من المقرر أن يبنى فيه ضريح في أول الأمر، يحتوى على قبة ما، وقد ترجع القبة في أصلها

إلى تلك القباب التي كانت تعلو قبور بابل والتي لابد أن يكون الكثير منها مألوفًا لدى العرب «بل أكثر من ذلك لدى الأتراك» الذين احتفظوا بشكل القبة على حين لم يعملوا قط على استعمالها، مثلهم في ذلك مثل القبط والبيزنطيين حينما اقتبسوا سقوف كنائسهم وواجهاتها.

ولكن إذا لم يكن هناك إلا القليل من الابتكار في شكل المسجد، فإن عقوده المدببة ونقوشه الجميلة جديرة بالدرس، وكذلك تجد العقود المدببة في مقياس النيل الذي بني في جزيرة الروضة سنة ٨٦١م، أي قبل بناء جامع بن طولون بخمس عشرة سنة، ويقال إن المهندس الذي بنى هذا المقياس من أهالى فرعانة على نهر سيحون، وليس ثمة دليل على أن تلك العقود قد بنيت على مثال الكنيسة القبطية، ولكننا نجد من جهة أخرى أن النقوش المختلفة الخالية من التكلف والمصنوعة من الجص والتي وضع رسمها المهندس القبطي، قد اقتبسها كلها بلا ريب من النقوش التي حذفها مواطنوه (١)، ولم يكن العرب في وقت من الأوقات، من الفنانين أو حتى من الصناع المهرة، فقد استحضروا الفرس والروم ليبنوا لهم دورهم ومساجدهم ويزينوها، ولكنهم كانوا أكثر من هذا يستخدمون القبط الذين كانوا صناع مصر المهرة خلال آلاف السنين التي مرت بتاريخها.

ونحن إذ نقارن بين النقوش المصنوعة من الجص في مسجد أحمد بن طولون وبين النقوش القبطية المحفورة التي نراها بدار الآثار المصرية في القاهرة، وتلك التي أحضرت من مقابر عين الصيرة والمودعة بدار الآثار العربية، تبين لنا في جلاء مصدر الزخارف التي على شكل زهور، والتي

يرجع تاريخها إلى المدرسة البيزنطية في سوريا ومصر (١)، أما النقوش الكوفية المحفورة على الخشب فهي ترجع في الواقع إلى الفن العربي الخالص، وقد تطورت فيما بعد حتى أصبحت من أهم مميزات الفن العربي (٢)، كذلك الزخارف الهندسية الموجودة في النوافذ ترجع إلى أصل إغريقي، كما قرر ذلك مسيو بورجوان في رسالته المستفيضة عن الزخارف، غير أنه ليس من المؤكد أن تاريخ هذه الزخارف يرجع إلى المباني الأصلية، كما أن الأشكال التي على هيئة نجوم توحي إلينا بأن النوافذ المفتوحة قد تكون جزءًا من الإصلاحات التي تمت فيما بعد (٣).

غير أن اهتمام أحمد بن طولون بالبناء لم يقف في سبيل مطامعه في الفتوح، فلقد قام بدور ملحوظ في سياسة بلاد العراق، وكاد ينجح في أن يجعل الخليفة في قبضة يده، وكان الرئيس الديني في الإسلام «المعتمد» يسره أن يهرب من أخيه الطاغية وهو الموفق، غير أن هذه الخطة قد منيت بالإخفاق، وبذلك فقدت مصر الفرصة التي أتيحت لها لتصبح مقر الخلافة الإسلامية، وكان من أثر ذلك أن أصبح ذلك الأمير الطموح يلعن في مساجد العراق.

وكذلك عجز ابن طولون عن الاستيلاء على مدينة مكة المقدسة، غير أن حكمه انتهى بحملات مظفرة قام بها في وجه إمبراطور الروم، حيث هزمت القوات المصرية العدو على مقربة من طرسوس، وقتلت– على ما يقال– ستين ألفًا من المسيحيين، ووقع في أيديهم كثير من الصلبان الذهبية والفضية والجوهرات والأواني المقدسة، غير أن ابن طولون سار نحو الشمال ليخضع نائبه، وكان الشتاء في ذلك الوقت

قارسًا فأرسل نائبه الماء من نهر البردان ففاض على الأراضي وكاد يغرق عسكر ابن طولون في «أذنة»، وهنا لم يجد ابن طولون بدًا من العودة إلى أنطاكية، حيث شرب كثيرًا من لبن البقر- على أثر ما شعر به من الجوع والإجهاد في المعركة - ومرض بالدوسنتاريا وطلب العودة إلى مصر، وثقل عليه ركوب الدواب، فعملت له عجلة كانت تجرها الرجال، ولما وصل إلى الفسطاط ساءت حالته، وكان هذا الأمير في مرضه مصدر فزع أطبائه الذين لم يستمع إلى إرشاداتهم وأبى أن يتناول الغذاء الذي كانوا يشيرون عليه بتناوله، ولما زادت علته أمر بضرب طبيبه بالسياط، وذهبت سدى صلوات المسلمين واليهود والنصارى ودعواتهم بشفائه، ولم يستطع القرآن، أوالتوراة، أو الإنجيل أن ينقذ حياته، ومات في شهر مايو سنة ٨٨٤م قبل أن يبلغ الخمسين من عمره.

ولقد أضاف خليفته خمارويه الكثير إلى حاضرة أبيه الزاهرة، ولا غرابة فقد شارك أباه ميوله في إقامة المباني الفخمة وفي سياسته التي كانت تهدف إلى التوسع في الفتوح، لذلك زاد في القصر، وحول «الميدان» إلى بستان غرس فيه الأشجار النادرة والرياحين على اختلافها، وتأنق في هذا البستان فكسى جذوع الأشجار نحاسًا مذهبًا حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وجذوع الشجر أنابيب الرصاص وأجرى فيها الماء، وكانت مياه هذه الأنابيب لا تزود الأشجار وحدها بالماء، بل كان يخرج من تضاعيف الشجر عيون الماء منحدرة إلى نافورات يفيض منها الماء إلى مجارٍ تسقي البستان على اتساعه، أما الريحان فكان على صورة نقوش وكتابات يتعهدها البستاني بالمقراض. وزرع فيه النياوفر الأحمر والأزرق والأصفر،

واستورد عيدان النيلوفر العجيب الشكل، كما أهدى إليه من البلاد عيدان الثمار والزهور، وطعم شجر المشمش باللوز والليمون وغيرها.

وفي وسط البستان بنى خمارويه برجًا فيه أصناف القمارى والنونيات وغيرها من الطيور المشجية التي كانت تسبح في القنوات الجارية في البرج، كما طلى حيطان بيت الذهب في القصر بالذهب المحلى باللازورد، واتخذ على حوائطه صورًا بارزة من الخشب تمثله وتمثل حظاياه ومغنياته بأشكال بلغت حد الكمال ودقة الزخرف، وعلى رءوس تماثيل النساء، أكاليل من الذهب الخالص مرصعة بالجواهر، وعلى آذانها المثبتة في الحوائط بمسامير، أجراس ثقال الوزن محكمة الصنع، وقد لونت أجسادها بالأصباغ العجيبة التي تبدو للرائي كأنها ثياب حقيقية، وبنى خمارويه أمام القصر فسقية مملوءة بالزئبق، وقد أشار عليه طبيبه باتخاذ هذه الفسقية بعد أن شكا إليه ما كان يصيبه من الأرق، وكان طولها عشرين ذراعًا وعرضها عشرين ذراعًا «٢٢٥ مترًا مربعًا»، فإذا نام خمارويه على فرش من أدم يملأ بالريح حتى ينتفخ، ارتج الفراش وتحرك بحركة الزئبق لأنه رجراج، وإذا نام خمارويه سهر زريق، أسده الأمين على حراسته، وبعد أن زال القصر بزمن طويل جعل الناس يحفرون في الأرض التماسًا للزئبق المنساب بين شقوق البركة التي كانت بمثابة أرجوحة للأمير.

كذلك بنى خمارويه في هذا القصر بيتًا على مثال قبة الهواء أطلق عليه «الدكة»، وضعت فيه الستائر والبسط الفاخرة، وكان خمارويه

يجلس في هذا المكان ويشرف على ما في قصره وبستانه، فيشاهد النيل والجبل والصحراء، وفي بيت آخر بناه أبوه أحمد بن طولون أقام المكبرون الذين كانوا يكبرون ويعلنون أوقات الصلاة، ويرتلون الآيات القرآنية الكريمة، وكان خمارويه إذا جلس لسماع الغناء وسمع المكبرين يكبرون، أمر المغنيات بوقف الغناء، وأخذ يسمع أصوات المكبرين في سكون وخشوع.

وقد أسهب المقريزي (١) في ذكر عجائب دار الحيوان وما كانت تحويه من السباع والنمور والفهود والفيلة والزرافات، واصطبلاته التي وقف عليها كورًا بأكملها كانت تزرع بها العلوقات، ومطابخه التي كانت ينفق عليها اثنا عشر ألف دينار في الشهر، وأبهة حرسه الذين جمعهم من عرب الدلتا وشناترة الضياع، وكان مهابًا ذا سطوة، وقد وقع في قلوب الكافة أنه من أشار إليه أحد بإصبعه أو تكلم أو قرب منه، لحقه مكروه عظيم، فكان إذا أقبل لا يسمع من أحد كلمة، ولا سعلة ولا عطسة ولا نحنحة البتة، كأنما على رءوسهم الطير، ومن المحزن حقا أنه لم يبق لكل هذه العظمة والأبهة من أثر بعد سنين قليلة – اللهم إلا آثار بركة الزئبق. غير أن السبع أو الحرس التي اتخذه خمارويه من شبان العرب الأشداء لم يستطيعوا أن يعملوا على إنقاذه من غيرة حريمه، ففي مستهل سنة ٨٩٦م انتهت المؤامرة التي دبرها له الخدم والجواري بذبحه في دمشق، وصلب قتلته، وفي غمرة العويل والصراخ، دفن جثمان خمارويه إلى جانب جثمان أبيه على مقبرة من قصره تحت سفح المقطم.

ولم تدم أسرة خمارويه بن أحمد بن طولون بعده طويلًا، ذلك أن ولديه الصغيرين لم يتمكنا من مقاومة جهود الخليفة في سبيل استرداد ولايتي مصر وسوريا الغنيتين، اللتين ظلتا تحت سلطان أحمد بن طولون وابنه ثلاثين سنة، ففي سنة ٩٠٥م دخل القائد العباسي محمد بن سليمان مدينة القطائع، وقتل جند الطولونيين من السودان وضرب مبانيها الجميلة، وهكذا أصبحت العسكر مرة أخرى مقرًا للحكومة، كما كانت في عهد ولاة العباسيين الأولين، أما القطائع فإن ما تبقى منها بعد أن عاث فيها الجند فسادًا أربعة أشهر، أخذ يتهدم على مر الزمن، وتقوضت المائة ألف منزل– إذا كان لنا أن نصدق المؤرخين– تدريجيًا.

غير أن الخراب قد زال نهائيًا في عهد المستنصر في القرن الحادي عشر حين انتشرت المجاعة وشاعت الفوضى في البلاد، وسوف نتحدث بعد هذا عن الحكم المليء بالفوضى والاضطراب، غير أنه يجدر بنا أن نشير في هذا المقام إلى ما انتهت إليه كل من العسكر والقطائع، ففي سنة ١٠٧٠م كانت هاتان المدينتان قد وصلتا إلى درجة كبيرة من الخراب، حتى أنهم بنوا سورًا على طول الطريق بين قصر القاهرة الجديد إلى الفسطاط– وبعبارة أخرى من باب زويلة إلى ما يقرب من جامع عمرو بن العاص– حتى لا يستاء الخليفة من منظر هذه المدن المتهدمة إذا خرج ممتطيًا جواده، وقد أصبحت أطلال القطائع والعسكر كما لو كانتا محجرًا يزود الناس بمواد البناء ليستعينوا بها في أماكن أخرى، كما أن الفضاء الذي كان يقع بين القاهرة الجديدة والفسطاط قد تحول كله إلى ما يشبه الصحراء اللهم إلا بضع حدائق ومنازل ريفية، ومع أن الناس أخذوا

يبنون دورهم خارج باب زويلة بعد سنة ١١٢٥م، بقى سائر موقعي هاتين المدينتين غير آهل بالسكان، اللهم إلا حول جامع أحمد بن طولون، وقد ظلت الحال كذلك إلى اليوم الذي كتب فيه المقريزي في سنة ١٤٢٤م.

ولا عجب إذا أصبح المكان القريب من جبل يشكر الذي يعرف بقلعة الكبش «١»- حيث قامت «مصطبة فرعون» في يوم من الأيام في المكان الذي قدم فيه سيدنا إبراهيم قربانه- مسكنًا للجن، وفي القرن الثامن عشر كان هناك تابوت قديم بداخله جثة سيدة تنتمي إلى الأسرة السادسة والعشرين لا يزال يحتل مكان مصطبة فرعون، وكل شيء كان الناس يحضرونه إلى هناك- حتى ولوكان كومة من البلح- لابد أنه كان يتحول مباشرة إلى ذهب، أما الآن فإن علم الكيمياء قد انتهى، واحتل التابوت مكانه في المتحف البريطاني حيث لم تحدث معجزة من هذا القبيل، بل إن الجن قد هجر ذلك المكان.

الباب الرابع

مصر

مصر – الفسطاط الحاضرة التجارية – وزراء المادرائين– الإخشيد – المسعودي في مصر – جزيرة الروضة– رجال الدين في مصر– الشعراء – بلاط كافور– ثورات المسلمين – حكومة كافور – مصر في القرنين العاشر والحادي عشر– وصف ناصر خسرو – حريق مصر – إعادة بعض المباني إلى ما كانت عليه – وصف ابن سعيد.

أصبحت مصر بعد سقوط البيت الطولوني، ولاية تابعة للخلافة في بغداد، وبعد أن دمر الفاتحون مدينة القطائع، اتخذ الحكام الجدد «العسكر» مقرًا لهم، غير أن اسم العسكر سرعان ما زال وأصبحت هذه الناحية جزءًا من الفسطاط أو مصر.

وفي طوال الوقت الذي قامت فيه أو زالت الأحياء الرسمية، كانت مصر – حاضرة مصر الحقيقية – آخذة في النمو والازدهار، وكان الجند وموظفو القصر يقيمون في عزلة في هاتين المدينين– في الوقت الذي حرم فيه بعض سكان المدن مزاولة بعض أنواع التجارة– قد خفف عنهم قسوة الجند السود وطغيان الموظفين الحكوميين، كما تركهم أحرارًا

يزاولون ما شاءوا من أنواع التجارة وكان النصيب الأكبر من تجارة الهند وبلادالعرب مع أوروبا– تلك التجارة التي أصبحت فيما بعد ذات أهمية عظمى– يمر بمصر، التي كانت أرصفتها مكدسة بالسلع الواردة من كثير من البلاد الأجنبية.

حقا إن مصر وحاضرتها قد أصبحت بعد سقوط الطولونيين فريسة للاستبداد العسكري، وكان قواد الخلفاء يفعلون ما يحلو لهم، إذ لم يكن لأشراف بغداد عليهم سلطة قوية.

تلك الأيام كانت أيامًا قاسية في مصر، حين طرد أحد الشبان الثائرين– ويدعى الخلنجي– الذي عمل على عودة الدولة الطولونية بمساعدة الشعب الذي تحمس لفكرته واستولى على الحاضرة وعلى الإسكندرية، بل أحل الهزيمة بجيش جديد من بغداد، وظل هذا الثائر متماديًا في قحته حتى أُعدم بعد ثمانية أشهر من ذلك الصراع، سنة ٩٠٦م على أثر مؤامرة دبرها له أعداؤه.

وكأن هذه الأحداث لم تكن كافية في ذلك الجيل، إذ أرسل الخلفاء الفاطميون القيروان الذين كانوا يختلفون في المذهب الديني، جيشًا من المغرب إلى أهل مصر الوادعين وأغار على العسكر الواقعة على النيل عند الجيزة، حيث خندق جيش الاحتلال الذي أرسل من بغداد بقيادة دكا الرومي، وانتهت حملة الفاطميين على مصر في سنة ٩١٠م بالفشل وطرد جند أفريقيا، غير أن أحوال البلاد لم تتحسن على الرغم من ذلك، فقد كان الحاكم التركي يحتفظ بقواته في قصره الخاص لحمايته، وبعد موته، طُرد ابنه من البلاد على أيدي الجند الذين طالبوا بما تأخر لهم من

رواتب، وهنا اختفى المادرائي، عامل الخراج، وأخذ الحكام المتنافسون يتنازعون على السلطة ويحشدون قواهم وينتشرون في البلاد المنقسمة، وتبع ذلك حدوث زلزال مروع أتى على كثير من الدور والقرى، واقترن ذلك الزلزال بوابل من الشهب المفزعة التي أدخلت الرعب في قلوب الناس.

وكان أولئك الذين أفادوا من هذه الفوضى أكثر من غيرهم، المشرفين على بيت المال الذين يظهر أنهم تصرفوا في الموارد كيفما شاءوا، ولقد شغل منصب عامل الخراج ثلاثة من أفراد أسرة المادرائي التي تنتسب إلى قرية مادرايا القريبة من البصرة على نهر دجلة، وقد نعم بذلك المنصب أحد هؤلاء الثلاثة في عهد خمارويه وعهد ولديه بل في عهد بعض ولاة الخلفاء ثم في عهد الأسرة التي وليت حكم مصر بعد ذلك.

وعلى الرغم من كل ما انتاب موارد الدولة، جعل محمد المادرائي هذه الموارد تصل إلى مبلغ يربو على مائتى ألف جنيه في السنة، عدا الإيجارات المختلفة، غير أنه كان يجمع كثيرًا، ويعطى كثيرًا أيضًا، فقد كان يوزع كل شهر على الفقراء ما يزن مائة ألف رطل من الطعام وحرر آلافًا كثيرة من الرقيق ووقف الأموال على المؤسسات الدينية، وكان ينفق في كل عام مبلغًا يتراوح بين ستين ألفًا وثمانين ألفًا من الجنيهات على رحلاته لأداء فريضة الحج إلى مكة التي بلغت إحدى وعشرين، لأنه كان رجلًا تقيًا ورعًا، يقوم بالفروض الدينية من صلاة وصوم على أكمل وجه ممسكًا المصحف دائما في يده. ومما أثر على إحسانه الواسع النطاق في موسم الحج أنه لم يكن ثمة شخص في مكة لم ينعم بخيراته. ويشبه

المادرائي هذا، القاضي العظيم ابن حربويه الذي كان يستقبل حتى الولاة في زياراهم الرسمية وهو جالس، وهذان الموظفان يعدان بحق من الأمثلة الاستثنائية النادرة للموظفين بين هذا العدد الكبير من المستبدين.

وفي النهاية تقلد زمام الحكم أحد الأتراك الأقوياء، وإذا كان محمد «الإخشيد» الذي استمد لقبه من أسلافه ملوك فرعانة ببلاد ما وراء النهر لم يترك أى أثر في «مصر» كسلفه العظيم ابن طولون، وإذا كانت سياسته قد قامت على الحيطة والحذر وقنع بأن يمتد ملكه إلى ما وراء دمشق بدلًا من أن يمتد إلى نهر الفرات، فإنه استطاع على الأقل أن يحفظ النظام في مصر، ويبعد عنها الغزاة من أفريقيا كما أشعل الحرب في سوريا، وجعل قصره العظيم في «بستان كافور» غربي سوق النحاسين الحالي مقرًا له، وهناك الكثير من القصص التي تروى عن بطولته التي تجلت في أثناء حربه مع ابن رائق، ذلك الزعيم التركي الذي أصبحت له السيادة على سوريا ردحًا من الزمن، فقد أخذ الحزن هذا الأمير كل ما أخذ حين وجد جثة أحد إخوة الإخشيد بين القتلى، حتى إنه أرسل ابنه إلى خصمه رهينة يتصرف فيه كيف شاء، وهنا تجلت شهامة الإخشيد فخلع على هذه الضحية وأرسله إلى أبيه مكرمًا، وتزوج هذا الشاب من ابنة مضيفه الباسل.

وفي صيف سنة ٩٣٥م شهد سكان «مصر» موكبًا رائعًا من سفن الإخشيد الحربية وهي تتقدم في النيل من دمياط وتحتل جزيرة الروضة التي كان يصلها بالمدينة جسر يتألف من السفن العائمة، وفي أغسطس من تلك السنة دخلت القوات الحاضرة وأخذت في السلب والنهب مدة

يومين وظلت على ذلك حتى أصدر ذلك الأمير الحازم الأمر بالعدول. وبعد الفوضى التي حلت بالبلاد خلال الثلاثين سنة التي تلت سقوط الطولونيين، بذل الحاكم الجديد جهده في تغيير هذه الحال في سبيل خير البلاد، ولقد عبر الناس عن مشاعرهم حينما قفز ابن الخلاتي في حماس على الحصان الخشبي القائم أمام قصره ثم ترك حمامة تطير إلى الأمير الجديد بعد أن عطرها بالمسك وماء الورد (١).

وقد استعاد جامع عمرو العتيق ما كان له من مكانة سابقة باعتباره أهم دور العبادة، كما زوده الإخشيد ببعض الحصر الجديدة، وكذلك وضع فيه الكثير من المصابيح والعطور، وكان يحضر بنفسه في الليلة الأخيرة من شهر رمضان مرتديًا الملابس البيضاء ومن ورائه خمسمائة تابع يحملون المشاعل، وفي اليوم التالي، وهو أول أيام عيد الفطر، كان يقيم عرضًا على النحو الذي كان يقام به في أيام ابن طولون.

وقد جرت العادة أن يشترك الجيش في هذا العرض، وكان الجيش الذي بلغ يسير طول اليوم يتبعه ثمانية آلاف مملوك يحمل كل منهم درعًا لامعة ويمر هؤلاء أمام دار الإمارة، وفي اليوم التالي– أي في اليوم الثاني من أيام العيد– كان الأمير يحضر الصلاة في الجامع وتفتح أبواب القصر للناس. ولما أرسل الخليفة إلى الإخشيد الخلعة والقلادة والسوار ازدانت الشوارع والأسواق بأفخر الفرش والبسط الثمينة، وغطيت أبواب الجامع العتيق بالديباج الموشى بالذهب بمناسبة مرور موكب الأمير– وهو مرتدٍ خلعته الجديدة– وهو في طريقه إلى الصلاة في يوم الأربعاء (١).

تلك كانت أيامًا زاهرة في مدينة «مصر» وقد كاد الناس ينسون

المصادرات الكثيرة وأعمال القسوة التي امتاز بها نظام الحكم الجديد إزاء هذه البهجة التي نعموا بها، ولقد أخذ الأدب العربي في الازدهار في الحاضرة الواقعة بجانب النيل، على الرغم من أن المنافسة كانت لا تزال بعيدة عما كان بينها وبين حاضرة الخلفاء على نهر دجلة، حيث كان للمؤثرات الفارسية أثر في ظهور دراسات لم يكن الجو قد تهيأ بعد لوصولها إلى حاضرة مصر التي كانت أكثر تمسكًا بمبادئ المذهب السني، ومن ثم كانت الدراسات العربية لا تزال في المهد في أيام الإخشيد، غير أن الشعر كان مزدهرًا على الرغم مما ساده من التقليد، ولكن التاريخ أخذ يدون، وأما العلوم فإنها لم تمتد إليها يد البحث اللهم إلا في صورة ناقصة تتمثل في علم التنجيم، ولم تكن هناك أسماء عربية قد أخذت تلمع في محيط الأدب إلا نادرًا.

وكان الكتاب يتناولون حياة النبي ويصوغونها في شكل التاريخ، ومن أشهر هؤلاء وأقدمهم اثنان هما: الطبري والمسعودي وكانا معاصرين للإخشيد. والواقع أن المسعودي زار مصر في سنة ٩٤٢م، ومع أنه – لسوء حظنا– لم يصف حاضرة هذه البلاد المصرية كما شاهدها، فقد وصف «ليلة الغطاس» وصفًا شائقًا – وكانت من المواسم المسيحية– التي تبين لنا كيف احتفل بها أهل مصر احتفالًا ينطوى على البهجة والسرور، وفي ذلك يقول: «لليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها، وهي ليلة عشر تمضي من كانون الثاني، ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس في مصر، والإخشيد محمد بن طفج قد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألفا مشعل، غير ما

أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضر في تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى، منهم من في الزوارق ومنهن في الدور المجاورة للنيل، ومنهم من على الشطوط لا يتناكرون الحضور، ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والرقص، وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورًا، ولا تغلق بها الدروب ويغطس أكثرهم في النيل، ويدعون أنه أمان من المرض» (١).

ويحدثنا هذا الرحالة كيف أن الناس كانوا يطلبون من الإخشيد السماح لهم بالتنقيب علهم يعثرون على الكنوز التي ورد ذكرها في النصوص القديمة، غير أنهم لم يجدوا سوى بضعة كهوف ملأى بالعظام والأتربة أو بقايا جثث الموتى.

ويذكر لنا المسعودي مقياسي النيل اللذين أقيما في جزيرة الروضة التي يسميها «دار الصناعة»، أما المقياس الأول الذي لا يزال قائمًا إلى الآن، فقد بناه أسامة، وبنى الثاني– أو على الأصح أعاد بناءه– ابن طولون، ولم يكن يُستعمل إلا وقت الفيضان، كما شاهد هذا الرحالة الجسر الذي يصل مصر بجزيرة الروضة، والجسر الآخر الذي كان يصل هذه الجزيرة بالجيزة من الضفة الغربية، وقابل في مدينة مصر تجارًا من القسطنطينية، غير أنه لم يذكر لنا شيئًا عن المدينة نفسها، غير أن ابن سعيد وغيره من المؤرخين لم يذكروا أن الإخشيد بنى في مصر دارًا للصناعة حلت محل الأحواض القديمة بجزيرة الروضة، حيث أقيم فيه حديقة ودار للنزهة، وقد بلغ من ميل الإخشيد إلى الاقتصاد أنه لما بلغته

قيمة نفقات إنشاء هذه الحديقة، صاح قائلًا: «ماذا؟ ثلاثون ألف دينار لدارللنزهة؟!»، ثم أمر في الحال بإنقاص هذه التكاليف إلى خمسة آلاف.

وكما أن دار الصناعة في الروضة حلت محل دار صناعة مصر، كذلك حلت محلها فيما بعد ميناء المقس على بعد ميل منها، أما دار الإخشيد التي بناها للنزهة في جزيرة الروضة وراعى في بنائها الاقتصاد فلم يبق منها أي أثر، غير أن جزيرة الروضة نفسها بقيت المكان الذي كان يفضله الأمراء الذين ولوا حكم مصر، ولاشك أن بناء الإخشيد قد هدم ليحل محله الهودج وغير ذلك من مباني الأيوبيين التي تعد أكثر عددًا وفخامةً من مباني الإخشيديين.

وكان شغل رجال العلم الشاغل في ذلك الوقت تفسير الشريعة الغراء كما ورد ذلك في القرآن الكريم والحديث الشريف وأحكام الفقهاء، ولما كان القرآن من الكتب السماوية، كان لزامًا على القاضي المسلم أن يكون من رجال الدين. وكان علماء مصر في صدر الإسلام من الفقهاء بالمعنى الصحيح، وكان للمدارس التي تمثل المذاهب الأربعة – الحنفي والمالكى والشافعي والحنبلي – مكان من جامع عمرو بن العاص، أما الشافعية والمالكية فكان لكل منهم خمسة عشر رواقًا، وأما الحنفية فكان لهم ثلاثة فقط، وكان صحن الجامع الكبير يضج بمنازعاتهم، وقد يبدو لنا الآن ضآلة الفرق بين هذه المذاهب، غير أنها لم تكن كذلك بالنسبة إلى المسلمين في ذلك الوقت، فقد كانت فروقًا لها أهميتها وخطرها، وكثيرًا ما كان علماء الدين يحتدون في أثناء مناقشاتهم وجدلهم

في الجامع العتيق حتى أن الإخشيد اضطر إلى إزالة الحصر والوسائد وإغلاق المسجد إلا في أوقات الصلاة، ومن ثم كانت المساجد- كما هي الحال بالنسبة إلى بعضها في الوقت الحاضر- دورًا للعلم وليست مجرد مدارس دينية.

وكان شعراء العرب قبل بعثة الرسول (عليه الصلاة والسلام) ينشدون قصائدهم في الأسواق أمام جمهور النقاد من مواطنيهم، أما في العصر الإسلامي فقد كان النقد يتخذ صورة أخرى، فإذا نظم الشاعر شعرًا زعم أنه قد أجاد فيه، أسرع إلى المسجد واشترك مع جمهور النقاد وهنالك يجد فريقًا من الفقهاء والشعراء والمفسرين وقد جلسوا جميعا القرفصاء على السجاجيد حول صحن الجامع، وأخذوا يشرحون للفيف من الطلبة الجالسين من حولهم بلاغة الأسلوب ودقته. وكان الشاعر ينشد أمام النقاد في زهو وإعجاب آخر ما نظمه من القصائد ولكن في شيء من الخوف والوجل، تلك كانت تجربة قاسية لأن بعض المستمعين كانوا من المنافسين له، كما كانوا جميعًا نقادًا لاذعين لا يسمحون بأى هفوة أو خروج عن الوزن أو خطأ في المعنى، وكانت لهم فوق هذا طريقة للتعبير عن آرائهم. حينئذ كنت تسمع الجدل يحتد، ثم تُنشد بضعة أبيات من شعر الشعراء المتقدمين ويبدأ الامتحان، ويدافع الشاعر حيال هذا كله عن قصيدته ويدلى بحججه، ولا ينصرف في نهاية الأمر إلا بعد أن يكون قد استهدف لأقسى تجربة مر بها.(١).

ولم يكن للمسائل الدينية وحدها صدى في جامع عمرو في أيام الإخشيد، فإنه على الرغم من أنه كان هناك كثير من الفقهاء وعلماء الدين الذين

دوَّن ابن سعيد تاريخ حياتهم وغير ذلك، كان هناك كثيرون غير هؤلاء، كانت هناك أسرة طباطبا المشهورة التي ترجع في نسبها إلى علي بن أبي طالب، وكان كل أفرادها من الشعراء الذين حفل شعرهم بحب الطبيعة وبالحب نفسه، غير أن أحدهم لم يمتدح الخمر، على الرغم من أنه كان محببًا إلى شعراء الإسلام، ألم ينظم أحد هؤلاء الشعراء (٢) شعرًا في الغناء كهذا الشعر الذي يقول فيه:

إذا الكر وإن صاح على الرمال.. وحل البدر في برج الكمال
وجعد وجه بركتنا هبوب.. تمر به الجنوب مع الشمال
وحُركت الغصون فشابهتها.. قدود سقاتنا في كل حال
فهات الكأس مترعة ودعنى.. أبادر جدتى قبل ارتحال
فكل جماعة لابد يومًا.. يفرق بينهم صرف الليالى

ومن هؤلاء أبو الفضل الذي ينتسب إلى أسرة القرات المشهورة، ومع أنه كان ثقة في رواية الحديث، كان شاعرًا مجيدًا، لم يزدر كغيره من الفقهاء الكثيرين، أن ينظم قصيدة جيدة من حين إلى حين، من ذلك قوله:

من أخمل النفس أحياها وروحها.. ولم يبت طاويًا منها على ضجر(١)

إن الرياح إذا اشتد عواصفها.. فليس ترمى سوى العالى من الشجر

بل إن أبا الحسن كان ينظم بعض الشعر الرصين، مع أنه هو الذي أثار مثل هذه الجلبة حين أفتى بإعالة الزوجات المطلقات في عهد ولاية

ذكا الرومي، حتى إنه لم يجد بدًا من المسير في حراسة الجند، حتى لقد قيل إنه كان حول نعش منصور ما بين سيف وسكين آلاف، وأظهروا سب القاضي، ونسب الناس سبب موته إليه إذا أنه قد نقل عنه في الدين كلام.

وكان أبو القاسم سعيد المعروف بقاضي البقر شاعر البلاط الذي تقدمت به السن، معينًا لا ينضب من القصص المسلية للمتعة، حتى إن الإخشيد كثيرًا ما كان يبعث في طلبه في المساء ويطلب إليه أن يروي له إحدى قصصه، وقد طلب منه الإخشيد أن يروي له قصة صغيرة وقال له: حدثني بحديث صغير، فقال سعيد: ما فيَّ نفس، فقال الإخشيد: «صغير بطول الأصبع»، فروى له قصة ذى الكلاع.

وكان هذا الشاعر المسن الذي اشتهر بالمديح الذي يدخل على النفس الغبطة والسرور، هو الذي وصف كأس الراح في هذه الأبيات التي نكتفي بأن ننقل منها هذين البيتين:

يا رب دعني بلا صلاح.. يا رب ذرني بلا فلاح «٢»

يدى مدى الدهر فوق ردفٍ.. وراحتي تحت كأس راح

ثم اقرأ ما نظمه الزيني الشاعر في مصر وفضائلها:

أنا بالفُسطاس ثاو.. ودع اللائم يلحا «١»

كم به من غُصن بانٍ.. قد غدا يطلع صبُحا

أنا لا أترك مصرًا لا.. ولا اذكر شرحا

أما المسبحي المؤلف المشهور، فقد عاش في مصر متأخرًا، إذ أنه لم يولد

حتى سنة ٩٧٧م، غير أن مؤلفاته كانت تصطبغ بما يصطبغ به القرن العاشر الميلادي «الرابع الهجري» في مصر، وقد كتب ثلاثين كتابًا تشتمل على نحو أربعين ألف صفحة، تتضمن الكثير من الموضوعات المختلفة كالشعر والنقد، وتاريخ مصر وديانتها، كما دوَّن رسائل في الخمر واللهو وألوان الطعام والطهي، كما كتب في النجوم والشياطين والأحلام والرغائب والقسم والقصص والأمثال وغير ذلك من الموضوعات التي يمكن أن توصف بأنها «غريبة».

والواقع أن ازدهار الأدب يرجع في الغالب إلى ذلك العبد الحبشي المحب للهو، وهو كافور الإخشيدى، الذي حكم هذه البلاد بعد موت مولاه سنة ٩٤٦م اثنتين وعشرين سنة، وقد تولى في بادئ الأمر الوصاية على ولدى مولاه المتوفى، وقد عاشا في غموض لم يعرفا عن أمور العالم شيئًا اللهم إلا ما يتعلق باللهو والمجون.
أما السنتان أو الثلاث سنوات الأخيرة من حياته، فقد تقلد فيها إمارة مصر بصفة رسمية.

والواقع أننا قلما نجد بين الشخصيات التاريخية، أغرب من هذا العبد الخصي البطين. وكان قبيحًا مشقوق القدمين ثقيل البدن مثقوب الشفة السفلى، وهي الأمور التي أخذ المتنبى– آخر شعراء العرب الكلاسيكيين– يسخر منها ويهزأ بها بعد أن وجد أن مديحه لذلك الأمير الأسود لم يحقق ما كان يرجوه منه، وقد أصبح كافور بعد ذلك لوكولوس **Lucullus** وميسيناس **Macenas** عصره.

ذلك أنه نال قسطًا لا بأس به من الثقافة والمعرفة، شأنه في ذلك شأن أغلب العبيد الأذكياء، وكان كأكثر العبيد المجدين يدني الشعراء والنقاد، وكانت تقرأ عنده في كل ليلة السير وأخبار الخلفاء الأولين، وكانت هذه الحلقات تجمع كثيرين من العلماء المبرزين ورجال الفكر، هنا كنت ترى الكندي مؤلف كتاب «فضائل مصر» الذي يدين له المقريزي بالكثير مما كتب، والبحتري النحوي المشهور، وابن عاصم الذي كتب الكثير من الشعر الغنائي، وكان كافور يثني على هؤلاء جميعا ويجيزهم وكان كغيره من السود يحب الموسيقى.

هذا إلى أنه كان يمتلك أموالًا ضخمة كان يغدق منها على أصدقائه من الأدباء الذين قابلوا هذه الهبات بالإطراء والمديح الذي كان ينطوي على كثير من الملق والرياء، مثال ذلك أن أحد الشعراء حين نظم قصيدة ذكر فيها أن الزلازل المتكررة التي كانت تحدث في ذلك العصر كانت ترجع إلى أن مصر كانت ترقص طربًا لما كان يتحلى به كافور من فضائل، تملك ذلك الأمير الحبشي السرور حتى أنه نثر على الشاعر ألف دينار.

وكانت مائدته تزخر بالكافور. وكان كافور مسرفًا في كرمه وقد بلغ ما كان يجلب إلى مطبخ القصر في كل يوم مائة شاة، ومائة خروج رميس، ومائتين وخمسين أوزة، وخمسمائة دجاجة، وألف طير من الحمام وغير ذلك من الطيور، ومائة صحن حاوى. وكان يعمل في مطبخ كافور في كل يوم ألف وسبعمائة رطل من اللحم عدا الطيور والحلوى،

وخمسون وعاء من الفقاع (١) كان يستهلكها الخدم وحدهم. وكان عصير السفرجل في ذلك الوقت من الشراب المفضل، لذلك كان قاضي أسيوط يرسل إلى كافور خمسين ألف سفرجلة في كل موسم (٢).

وعلى الرغم من تمسك الناس بالدين في ذلك الوقت وإيمانهم بالقضاء والقدر، وما كان لذلك من أثر، كان العرب في العصور الوسطى يعرفون كيف يتمتعون بحياتهم كما كان يفعل أجدادهم في الصحراء، والغريب في أمر هذا المجتمع الإسلامي القديم أنه ظل كما كان على الرغم من ظهور الإسلام، ومع ما اقترنت به حياتهم الاجتماعية من صلاة وصوم وطقوس دينية مختلفة، عرف المسلمون في العصور الوسطى كيف ينعمون بالحياة، بل إنهم كانوا يجدون فرصًا للمرح حتى في دينهم، فقد كانوا يقيمون كثيرًا من الحفلات الدينية ويرتدون أفخر الملابس وينظمون الاجتماعات وقد يحتفلون بزيارة القبور وينقدون جميع الخدم ليروحوا عن أنفسهم في طرقات المدينة المضاءة بالأنوار المتلألئة التي كانت تحفل بالراقصات والمغنيات والمقرئين، أو في المساجد حيث كان الدراويش يقومون بطقوسهم الدينية الغريبة، ومثل هذه الملاهي كانت تضفي على الحياة بهجة وبهاءً، وكان البعض يعتقد أن ما قدر له قد نقش على جمجمته، كما وجد بعض المتقشفين من أهل الورع عزاءهم في إطالة النظر إلى حائط أبيض حتى يرى اسم «الله» يلمع عليه.

غير أن الطعام كان أكثر ما يدخل السرور على المسلم في العصور الوسطى، حقًا إن العرب لم يعرفوا الطهي العلمي الذي نعرفه اليوم، كما

أنهم لم يتفننوا في انتقاء ألوان الطعام، فقد كانوا يشربون حتى الثمالة، ويأكلون حتى تمتلئ بطونهم، ونحن نقرأ عن مأدبة عامة غطى السماط فيها إحدى وعشرين صفحة كبيرة يحتوي كل منها على واحد وعشرين خروفًا سمينًا وثلاثمائة وخمسين من الحمام والدجاج وقد تكدست هذه جميعها حتى بلغ ارتفاعها قامة الرجل، وكان السماط يغطى بألوان الحلوى المختلفة، وبين هذه الصحاف الكبيرة خمسمائة طبق أقل حجمًا من الأطباق الأخرى يحتوي كل منها على سبع دجاجات عدا الحلوى، وكانت الورود تنثر فوق المائدة وتزينها ويُصنع الخبز على شكل فطائر، أما الحلوى فكانت توضع في صحفتين كبيرتين على شكل قصر يزن كل منهما سبعة عشر قنطارًا وكان يؤتى بها إلى المائدة فوق أعمدة يحملها الرجال على أكتافهم، وقد يستطيع الرجل أن يأكل خروفًا أو خروفين دون أن يتعرض لأى ضرر، وإذا أفرط في تناول الطعام تناول الخمر في إسراف على الرغم من أن النبى نهي عن شرب الخمر، وكانت الكؤوس وقتئذ تسع رطلًا كاملًا من الخمر وطالما كان يملأها من جديد.

ومهما يكن من أمر تلك المآدب وذلك الإفراط في الطعام، فإن هناك مسألة يجب ألا تغرب عن بالنا، ذلك أن العربي لم يكن يروقه شرب الخمر في وحدته، بل كان يحب دائما الاجتماعات التي يسودها المرح والبهجة، كما كان يحب أن تزخر مائدته بالأزهار والعطور، وكان العرب يعنون بملابسهم ويعطرون لحاهم بالمسك وماء الورد ولم تكن حجراتهم تخلو من مبخرة يحترق فيها العنبر الذي ينبعث في الحجرات.

ولم تكن للأعياد عندهم بهجة بغير الموسيقى والمغنين من الرجال والنساء على السواء، فكنت ترى إحدى الجواري ذات القوام الممشوق، والوجه الذي يشبه البدر في تمامه، تغني بصوت ساحر جميل بعض الأغاني الحزينة العذبة، وكانت تصحب العود في غنائها، حتى يستولى الفرح على نفوس السامعين.

ولم تكن أكثر الولائم تخلو من نكات أحد الظرفاء المشهورين بسرعة البديهة، ولم يكن ذلك الظريف مجرد شخص قادر على استخدام الجناس من قبيل المزاح، بل كان من الأدباء المتعمقين في الأدب العربي وسعة الاطلاع وجمال الذوق بحيث كان يستطيع أن يكمل في الحال أي عبارة مقتبسة، وكان هذا الظريف بحق زينة الأدباء.

ولقد بلغ من ولع الخلفاء والوزراء بالشعر والغناء أنهم لم يبخلوا بأى شيء على من كان يدخل السرور عليهم من الشعراء، بل إن المتسول الذي كان يجيب بشعر رصين، كان يملأ له وعاؤه بالذهب، أما الأديب الذي يجيب إجابة مقحمة فقد يملأ فمه بالجواهر وخزانة ملابسه بأفخر الملابس، ولقد حدث أن توفي أحد الشعراء وخلف من ورائه مائة خلعة ومائتى قميص وخمسمائة عمامة.

ولكن كافورًا كان أكثر من محب للهو أو مسرف في الملذات، لقد كان قويًا كالحصان، ولكنه كان طول المارد وكان عالي الهمة يميل إلى المرح كما كان سياسيًا محنكًا، إذ كان يقضي كثيرًا من وقته وينفق جهده في إدارة شئون الدولة، وكثيرًا ما كان يظل حتى ساعة متأخرة من الليل،

واشتهر بالعدل والحلم والكرم والتقوى، وعلى الرغم من أنه ترك ثروة طائلة من الذهب والأحجار الكريمة والعبيد والحيوان، فقد كان يغدق الكثير في وجوه الخير وينفق في ذلك بغير حساب، وقد توفي في سنة ٩٦٨م وكتب على قبره في دمشق:

ما بال يا كافور منفردا.. بالصحصح المرت بعد العسكر اللجب

يدوس قبرك آحاد الرجال وقد.. كانت أسود الشرى تخشاك في الكتب

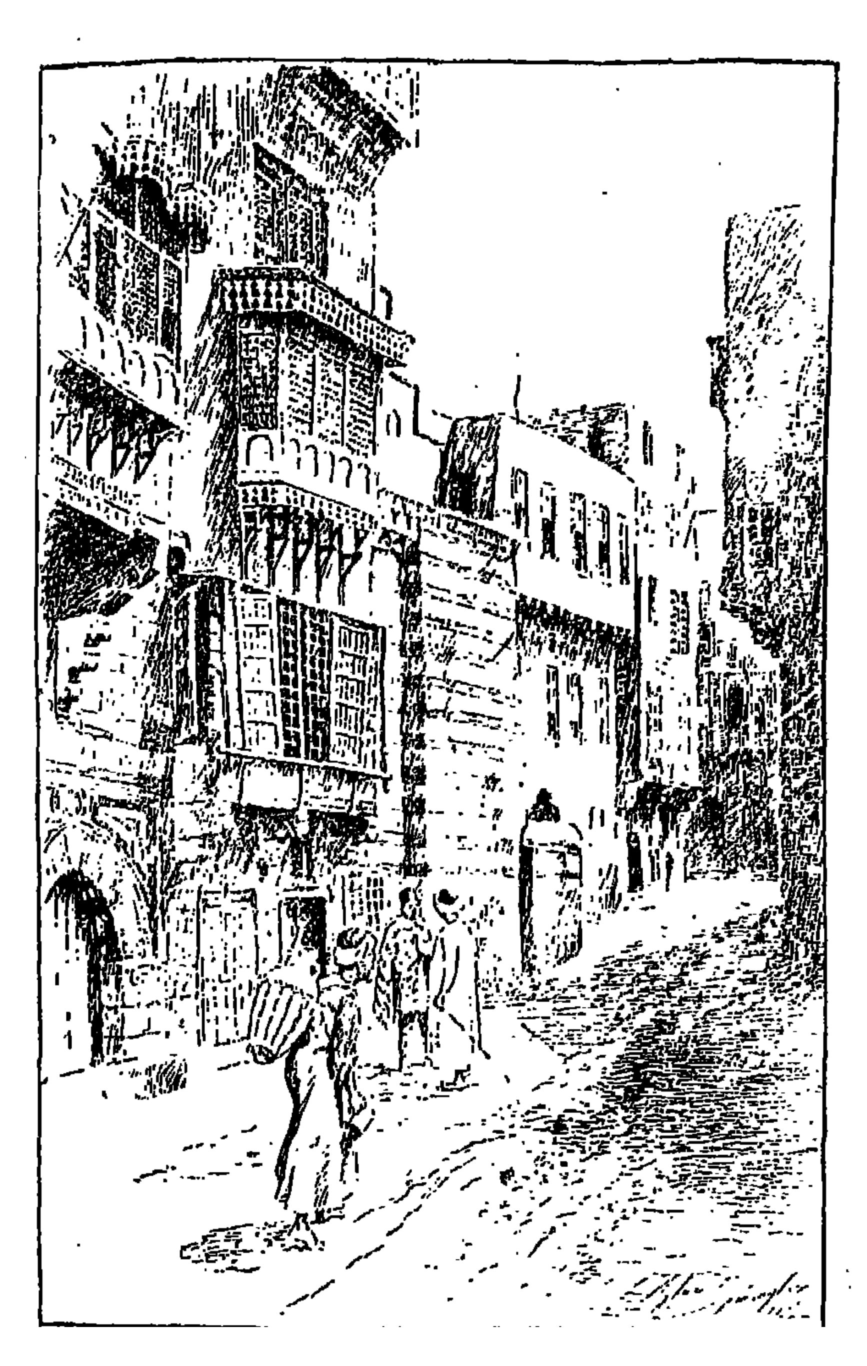
وفي هذه الكلمات شيء من الصحة، ولو أنه مبالغ فيها كثيرًا. حقيقة كان كافور شجاعًا، غير أنه لا يمكننا أن نصفه بأنه كان قائدًا ناجحًا، على الرغم من الانتصارين اللذين أحرزهما في أيامه الأولى في سوريا، وإلى حنكته السياسية ومهارة موظفيه يرجع الفضل في الاحتفاظ ببلاده – التي كانت تمتد إذ ذاك إلى حدود سوريا الشمالية وتشمل بلاد الحجاز، حيث نجد المدينتين المقدستين مكة والمدينة – حتى سادها الأمن والطمأنينة وانتشر فيها الرخاء طوال مدة إمارته، على الرغم من انخفاض النيل أكثر من مرة، وما تبع ذلك من القحط والزلازل المروعة التي انتابت البلاد والحريق الهائل الذي دمر أكثر من ألف وسبعمائة منزل في مدينة مصر سنة ٩٥٤م.

ومع ذلك فقد عرف الخصي الأسود كيف يحفظ النظام، غير أنه لسوء الحظ لم يترك من يخلفه بعد موته، مثله في ذلك مثل معظم الحكام المستبدين المشهورين، وكان من أثر ذلك أن غزت البلاد تلك القوات

التي كان يعدها الخلفاء الفاطميون منذ زمن بعيد، نتيجة للضعف الذي كانت عليه حكومة الأمير الجديد حفيد الإخشيد.

وليس هناك وصف يستحق الاقتباس لمدينة مصر في ذلك العصر الذي عرف بالثراء، غير أن الرحالة ابن حوقل قد أمدنا بوصف موجز بعد ذلك بقليل سنة ٩٧٨م، فيقدر مساحتها بثلث مساحة بغداد تقريبًا، وهو يخص بالذكر أسواقها البديعة وطرقاتها الفنية ودورها المبنية من الطوب، وكان ارتفاعها خمس طبقات بل سبعًا في بعض الأحيان، وكانت تتسع لمائتين من السكان، أضف إلى ذلك الحدائق وأماكن النزهة التي كانت تحيط بتلك المدينة، وكان مسجد عمرو بن العاص الذي كان ما يقع في وسط المدينة لا يزال أهم ما يلفت النظر من بين المباني القائمة، مما يدل على أنه لم تكن هناك قصور فخمة أو دور حكومية شاهقة.

وكان قصر كافور يقع في خارج المدينة، وأغلب الظن أنه كان في الحديقة المسماة «بستان كافور» مع أنه بنى لنفسه في وقت من الأوقات قصرًا جديدًا كلفه مائة ألف دينار، وكان بجوار بركة قارون على مقربة من جامع ابن طولون، غير أن العفونة التي كانت تنبعث من المياه الراكدة دفعته إلى ترك ذلك القصر، وكانت تلك الحاضرة تقع في مكان غير المكان الذي تقع فيه مدينة القاهرة الحالية، لأن النيل كان قد أخذ في ذلك الوقت يغير مجراه نحو الغرب مما أدى إلى تكوين جزيرة بولاق أو «الجزيرة».



شارع في مصر القديمة

وفي عصر الإخشيد، كانت مياه النيل تجري تحت أسوار حصن بابليون، وتحف بالعسكر، وتمر بالمراكز التي تعرف الآن بباب اللوق وباب الحديد«١».

وكانت المياه تغمر وقتئذ جميع أحياء مصر القديمة وقصر العيني وقصر الدوبارة وبولاق، وكانت الحاضرة تنتشر على جانبي النيل وتمتد إلى جامع ابن طولون تقريبًا.

ولعل أحسن وصف في هذا الصدد ما أورده ناصر خسرو الفارسي الذي زار مدينة «مصر» في سنة ١٠٤٧م، أي بعد وفاة كافور بثمانين سنة. حقًا – ولو أن ذلك ليس من المحتمل– أن هناك تغييرات مهمة قد حدثت في تلك الفترة، وناصر خسروا هذا لا يعرف شيئًا عن القطائع، ومن ثنايا وصفه لمصر كمدينة بنيت على أرض مرتفعة وما إلى ذلك، يتضح لنا في جلاء أن القطائع كانت في أيام ذلك الرحالة من أحياء مدينة مصر، وأنه كانت لا تزال هناك بعض الدور على الرغم من الدمار الذي أعقب سقوط البيت الطولوني، وكان مسجد ابن طولون يقع في ظاهر المدينة ويحيط به إذ ذاك سور مزدوج أقوى مما شاهده هذا الرحالة في بلد من البلاد، اللهم إلا إذا استثنينا آمد وميارفارقين. وليس من شك أنه كانت مئذنة قائمة في ذلك الوقت «١». وكان هناك سبعة مساجد في مصر القديمة أهمها مسجد عمرو بن العاص بمحرابه المغطى بالرخام الأبيض الذي نقشت عليه الآيات القرآنية كلها.

وكان صحن المسجد يزخر بالأساتذة والطلاب وغيرهم من مختلف الطبقات، الذين كانوا يتخذون هذا الصحن لعقد الاجتماعات العامة وبحث شئونهم المختلفة، وقد انتهى أمر هذا الجامع إلى أن اشتراه الخليفة الحاكم الفاطمي – الذي سنتكلم عنه بعد قليل– بمائة ألف دينار، أما المسجد الذي بناه ابن طولون فقد كلفه خمسة وثلاثين ألف دينار فقط، وأدخل عليه بعض الإصلاحات وقدم إليه ثريا كبيرة من الفضة علق فيها سبعمائة قنديل، وقد بلغ من ضخامة هذا المصباح أنهم لم يجدوا بدًا من خلع أحد أبواب المسجد ليتمكنوا من إدخاله، وكان قاضي القضاة حتى ذلك الوقت لا يزال يعقد مجالس القضاء في صحن المسجد.

أما في الخارج، فقد كانت أبواب المسجد تطل على الأسواق، وفي الشمال زقاق القناديل الذي لم ير ذلك الرحالة مثيلًا له في أي مكان آخر، ولقد أعجب بما عرض هناك من بللور وأصداف وغير ذلك من النقوش الدقيقة، كما شاهد كثيرًا من سن الفيل وريش النعام وغيرها من منتجات السودان والحبشة.

وفي ذات يوم – إذا شئنا الدقة في الثامن من عشر من شهر ديسمبر سنة ١٠٤٨– أحصى أنواع الأزهار والخضراوات والفواكه التي شاهدها في أسواق مدينة مصر: الورد الأحمر، والزنبق، والنرجس، والبرتقال، والنارنج، والليمون، والتفاح، والياسمين، والبطيخ، والموز، والزيتون، والبلح، والعنب، وقصب السكر، والقرع، والبصل، والثوم، والباذنجان، والجزر، والبنجر، مع أن هذه كانت تظهر في مواسم مختلفة،

وقد أضاف ناصر خسرو إلى ما تقدم أن مصر عبارة عن أرض فسيحة تنتج الفواكه التي تنمو في الجو البارد والحار على السواء، وأن محاصيل جميع الكور كانت تجلب إلى الحاضرة حيث تكون معدة للبيع في الأسواق.

وقد بلغ من إتقان الخزف أن ناصر خسرو كان يستطيع أن يرى يده من خلاله، وبلغ من مهارة الصناع في طلائه أنه كان يشبه الثياب القلونية. وكان هنالك أيضًا زجاج أخضر شفاف غالي الثمن (وقد أيد هذا كله بقايا القمامة التي عثر عليها بين أطلال المدينة القديمة). ومما شاهده ناصر خسرو بعض الأواني النحاسية الكبيرة المصنوعة من النحاس الذي كان يستورد من دمشق، وقد حدث أن وجدت هناك امرأة تملك خمسة آلاف من هذه الأواني، كانت تؤجر الواحدة منها بدرهم واحد في الشهر.

وكان من دواعي اغتباط ناصر خسرو أن كشف أنه لم تكن ثمة حاجة لأن يحمل المرء معه قارورة أو ورقة إذا ذهب إلى الأماكن التي تباع فيها العقاقير أو إلى تجار الحديد، فقد كان هؤلاء يزودون عملاءهم بما يودعون فيه سلعهم، والأغرب من هذا أن التجار كانوا يبيعون بأسعار محددة بدلًا من المساومة.

وإذا سولت لأحد التجار نفسه أن يغش، طيف به على جمل يسير في السوق وحمل جرسًا وصاح يقول: «لقد ارتكبت غشًا وهاأنذا أنال جزائي، ولعل الله أن ينزل عقابه بمن يرتكبون مثل هذا الجرم». وكان

جميع التجار يذهبون من دورهم إلى حوانيتهم ممتطين الحمير، وكانت هناك عند مفترق الطرق حمير للأجرة بلغ عددها خمسين ألفًا على ما نقله ناصر خسرو عن أهل مصر، ولم يكن يركب الخيل سوى الجنود.

وكانت المدينة تمتد على طول شاطئ النيل، والأكشاك والفساطيط تشرف على النهر، حيث كان الشخص يستطيع أن يحصل على الماء عن طريق الحبال.

وكان السقاءون في ذلك الوقت يحملون الماء- كما يحملونه الآن- في قرب كبيرة يحملونها على ظهورهم أو على ظهور الجمال.

وبعض الدور تتألف من سبع طبقات، في الطابق العلوي في كل منها حديقة ينمو فيها شجر البرتقال وغيره من أشجار الفاكهة، ترويها ساقية يديرها ثور يحمل إلى أعلى الدار حين كان لا يزال عجلًا صغيرًا، وقد بلغ حجم هذه الدور من الضخامة ٣٠ ذراعًا مربعًا، حتى إن إحداها كانت تتسع لخمسين وثلاثمائة من السكان.

وكانت بعض الطرقات والأسواق المسقوفة تضاء بالمصابيح باستمرار لأن ضوء الشمس لم يكن يصل إليها.

ولكي يعبر المرء جزيرة الروضة كان هناك جسر مكون من ستة وثلاثين قاربًا، غير أنه لم يكن هناك في ذلك الوقت جسر آخر يصل الروضة بالجيزة، ومن ثم كان على المرء أن يركب قاربًا، وكان عدد القوارب في «مصر» – لحسن الحظ – أكثر منه في بغداد أو في البصرة.

ويقول ناصر خسرو إن سكان هذه المدينة كانوا يتمتعون برخاء كبير في سنة ١٠٤٨م، وقد حدث في ذلك الوقت أن ولد أمير جديد فأخذ الناس يقيمون معالم الزينة في المدينة، حتى إنه اعتقد أن الناس لن يصدقوا ذلك الوصف.

والواقع أن ناصر خسرو لم يعرف قط بلدًا تمتع بما تمتعت به مصر من رخاء ونظام، وهو يحدثنا عن قصة رجل مسيحي موسر التقى به في مدينة «مصر» كان يمتلك مراكب الشحن لا عداد لها، وأنه حين لجأ إليه الوزير في إحدى سني القحط، قال له ذلك الثري إنه يمتلك مخازن من القمح تسد حاجة الحاضرة ست سنين.

أما الخان الذي كان يعرف بدار الوزير فقد بلغت إيجاراته اثني عشر ألف دينار في السنة، وقد قيل إنه كان هناك مائتان من أمثال هذه الخانات.

ومن المحتمل أن تكون تلك المدينة التي وصفها هذا الفيلسوف الفارسي في سنة ١٠٤٧–١٠٤٨م، قد تغيرت قليلًا في أواخر ذلك القرن الذي نعمت فيه بالثراء.

وكان أساس مدينة القاهرة قد فصل مرة أخرى الدوائر الرسمية والقضائية عن مدينة «مصر» قبل زيارة ناصر خسرو لها بثمانين سنة، ومع ذلك احتفظت الحاضرة القديمة بما كانت تتمتع به باعتبارها مركز التجارة، وليس هناك ما يدعو إلى الزعم بأن شأنها قد انحط في المائة

والعشرين سنة التالية، ولقد سبقنا الحوادث حين وصفنا مصر على ما كانت عليه في القرن الحادي عشر الميلادي.

ويجدر بنا هنا أن نختم هذا الموضوع بالكلام على ما انتابها من الدمار في القرن الثاني عشر، ففي سنة ١١٦٨م تقدم عموري، ملك بيت المقدس اللاتيني، نحو القاهرة، وقد عقد العزم على غزو مصر التي آمن الصليبيون بأهميتها لسلامتهم في فلسطين، ففي شهر نوفمبر استولى على بلبيس ولطخ اسمه بذبح كل رجل وامرأة وطفل، وقد دفع الخوف من وقوع أمثال هذه الفظائع وخطر وصول الغزاة إلى مكان قريب من القاهرة، أن أمر شاور – وزير الخليفة الفاطمي في مصر– بإحراق الفسطاط، ففي اليوم الثانى عشر من شهر نوفمبر أشعل عشرة آلاف من المشاعل وعشرين ألف برميل من النفط واستمرت هذه النيران أربعة وخمسين يومًا، ولا تزال بعض آثار الحريق في التلال الرملية جنوبى القاهرة وتمتد أميالا فوق هذه الآثار المطمورة، وكان الناس يهربون من الحريق كما لو كان قد نفخ في الصور فإذا هم من الأجداث ينسلون، وقد هجر الأب بنيه وافتقد الأخ أخاه، وتدافعوا إلى مدينة القاهرة لينجوا بأرواحهم الغالية، وقد استغل أصحاب الجمال هذه الكارثة المفجعة فكان الواحد منهم يؤجر جمله بثلاثين قطعة ذهبية لقطع مسافة ميل أو ميلين (١)، وكان الدخان المتصاعد من النيران يرتفع إلى السماء في شكل سحب كثيفة سوداء، مما اضطر الغزاة إلى أن يعسكروا على مسافة بعيدة منها، وربما كان هذا الإجراء القاسي ضرورة لابد منها، على الرغم من أن مدينة القاهرة قد أمكن تخليصها بوسائل أخرى، غير أننا في الوقت

نفسه إذ نتطلع إلى تلك التلال الرملية المقفرة التي تحدد موقع مدينة الفسطاط الزائلة وتحمل إلى أذهاننا ذلك الأمن والرخاء اللذين شاهدهما الرحالة الفارسي، يبدو لنا أن ألفًا من غزاة الصليبيين كانوا أهون بكثير من ضياع تلك المدينة القديمة وهي «مصر».

ومع أن هذه المدينة لم تسترد قط مكانتها بعد ذلك اليوم الذي أتت فيه النيران عليها، يجب ألا نظن أن ثمة جهودًا لم تُبذل في سبيل إعادة بنائها، وليس من السهل أن يغير الإنسان المكان الذي اعتاد أن يعيش فيه، فما إن طُرد الصليبيون حتى أخذ الناس يعودون إلى هذه المدينة ويبحثون عن دورهم التي غطاها السواد ويحاولون إصلاحها للإقامة فيها من جديد.

ولما زار ابن جبير، الرحالة العربي الأندلسي، مصر في سنة ١١٨٣م، أي بعد أن شب فيها ذلك الحريق الهائل بأربع عشرة سنة فقط، وجد المدينة أقل خرابًا مما قد يتبادر إلى أذهاننا من العبارات التي دونت عن ذلك الحريق الذي دام أربعة وخمسين يومًا، وقد قضى وقتًا في فندق «أبي الثناء» في زقاق القناديل، وقد سمي بهذا الاسم لأنه كانت تقيم فيه طائفة من النبلاء أمام كل دار منهم «قنديل» كان لا يزال بالقرب من جامع عمرو.

وعلى الرغم من آثار ذلك الدمار الحديث، أعاد الناس كثيرًا من الدور المخربة، وأصبحت المباني الجديدة التي تنتظم صفوفًا لا تكاد تنقطع تكوّن مدينة عظيمة مع بقايا المدينة السابقة الممتدة من خلفها ومن حولها وعلى مقربة منها، وكل هذه المباني تبين في وضوح إلى أي حد كانت المدينة

القديمة تمتد من قبل (١).

غير أن الجهود التي بُذلت لإعادة هذه المدينة القديمة إلى ما كانت عليه لم تصادف شيئًا من النجاح، وليس أدل على هذه الحقيقة من نقص عدد السكان، على الرغم من أن صلاح الدين وخلفاءه أسسوا في مصر وما حولها عشرة معاهد للعلم، اعتقادًا منهم أن هذه المدينة سوف تسترد مكانتها، فإنه لم يبن بها مسجد واحد بعد ذلك الحريق المروع، وكانت القاهرة في ذلك الوقت قد بدأت تحل محلها بسرعة، ولما زار ابن سعيد مصر حول سنة ١٢٤٠م، أحزنه منظر حيطان هذه المدينة السوداء ودورها المتهدمة وحالتها التي تنم عن القذارة والإهمال.

وكان لا يزال هناك جمهور كبير في الطرقات الملتوية، ولفيف من الباعة المتجولين ينادون على سلعهم بين الطلاب والأطفال في الجامع العتيق الذي كان يغطيه نسيج العنكبوت وتلقى فيه القاذورات، وكانت السفن التجارية الكثيرة لا تزال تختلف إلى مدينة الفسطاط، كما كانت هناك مصانع للسكر والصابون لا يزال يجرى العمل فيها (١). إلا أن الخراب كان برغم هذا يعم المدينة بأسرها، وتحولت عظمة «مصر» إلى القاهرة.

الباب الخامس

القاهرة

الانقلاب الشيعي- الخلافة الفاطمية- المعز - فتح مصر- تأسيس القاهرة- نتائج الانقلاب- القبط تحت الحكم الفاطمي - العزيز- الجامع الأزهر يصبح جامعة- مدينة القصر- القصر الكبير- أبواب القاهرة- باب زويلة- وصف «وليم الصوري»

- البلاط الفاطمي- ميناء المقس والأسطول- الثروة والفن والترف أيام الفاطميين- جامع الحاكم- الخليفة الحاكم- دار العلم- ألوهية الحاكم- الاستبداد العسكري وضياع الأقاليم- القاهرة في سنة ١٠٤٧- جبر الخليج- اليازوري - الأتراك والنهب والسلب- مجاعة السبع سنين- بدو الجمالي - السور الثاني وأبواب القاهرة- الوزراء الأرمن- حكم الوزراء- الاغتيالات والاستبداد العسكري- ابن رزيق- فن العمارة الفاطمي إن تأسيس مدينة القاهرة الحقيقية، كما تتميز عن مدينة مصر القديمة وضواحيها، ليدل على انقلاب خطير أبعد أثرًا من مجرد تغيير دولة بأخرى، أو انتقال موقع، فلقد كان الفتح الفاطمي الذي تمخض عن المدينة الجديدة بمثابة انقلاب في الدين وفي نظام الحكم والثقافة.

وإن الاختلافات الدينية التي حولت جامع عمرو مكانًا لا نظام فيه ولا

ترتيب في أيام الإخشيد، لم تكن شيئًا، لبُعد الشقة بين المذهب السني القديم وبين مذهب القادمين الجدد، وإذا أمعنا النظر في مذهب الشيعة مذهب الفاطميين وجدنا أنه لا يمت إلى الإسلام بصلة ما، ذلك أنه لم يفعل أكثر من أنه اتخذ ذلك الانقسام الذي حدث في الإسلام أساسًا تُبنى عليه حركة سياسية واسعة النطاق، وقد نجم ذلك الشقاق القديم عمن يرث الخلافة، ثم استحال إلى ذلك الخلاف بين نظريتي الانتخاب العام والحق الإلهي.

فقد ذهب أصحاب المذهب القديم أو مذهب السنة إلى أن انتخاب الخلفاء الثلاثة الأول وهم أبو بكر وعمر وعثمان كان يتماشى مع نظام الشورى في الإسلام، على حين ذهب الشيعيون إلى أن الحق الإلهي الذي يؤيد دعواهم في الخلافة ينحصر في بيت النبي، أى عن طريق علي زوج ابنته فاطمة وأولاده من بعده، فهؤلاء وحدهم هم ورثة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهكذا أصبح علي بدوره رابع الخلفاء الراشدين، غير أنه لقي معارضة مريرة وانتهى الأمر بقتله، وأُقصي أولاده، وهم أحفاد النبى، عن الخلافة، ولما حاول أحدهم، وهو الحسين، أن يطالب بحقه فيها، هُزم وقُتل، ومنذ ذلك الوقت بدأت مأساة الاستشهاد في كربلاء تثير أعمق مشاعر الشيعة في شهر المحرم من كل عام.
وكان اضطهاد الخلفاء الأمويين لآل محمد، داعيًا إلى عطف الناس عليهم والتأثر لمحنتهم، غير أن أحدًا من خلفائهم لم يلمع نجمه في سماء السياسة، ومن ثم فإن ثورات العلويين التي كانت تحدث في القليل النادر أهم من المحاولات الأخيرة التي قامت في أسكتلندا لإحياء دعاوى المدعى، ولم

يكن من البعيد أن تتلاشى هذه الحركة على أنها لم تكن أكثر من عارض جديد في عالم السياسة، أو بمثابة تجربة سُجلت على صفحات التاريخ، غير أن شيئًا من هذا لم يحدث بفضل التطور الذي أدخله على تلك الحركة في القرن التاسع الميلادي «الثالث الهجرى»، عبد الله بن ميمون القداح الفارسي الذي كان يشتغل بالسحر والشعوذة معًا.

ولقد دبر هذا الرجل الذي كان يضمر الكراهية والبغضاء للعرب وخلفائهم، مؤامرة ترمي إلى القضاء على الدين الإسلامي بمساعدة هؤلاء الذين فتحوا بلادهم من غير أن يدركوا الأغراض التي كان يرمي إليها، أما عقيدته الدينية التي كانت تعمل على الإفادة من نظرية العلويين القائلة بالحق الملكي، فإنها لم تقتصر على جذب المتحمسين الذين كانوا لا يزالون يبكون مأساة كربلاء، بل إنها عملت على استمالة جميع الذين لم يقبلوا اعتناق الدين الإسلامي الذي ينطوي على التعصب.

وقد نشر عبد الله تعاليمه التي تقول إن الله قد تجسد دائمًا في شخص أحد الأئمة أمثال آدم، وإبراهيم وهكذا حتى علي بن أبي طالب، كما قال إن العالم لم يكن أبدًا بدون إمام، غير أنه ليس من الضروري أن يكون هذا الإمام مما تراه العين، وهذا هو بيت القصيد في الموضوع، وعلى ذلك فقد حدث أن قطعت سلسلة الخلافة بعد علي بن أبي طالب، غير أنه على الرغم من ذلك، كان هناك في الوقت نفسه إمام مختفٍ يتحين الفرصة للكشف عن نفسه أمام العالم، وحينما ظهر هذا الإمام المختفي إذا بالناس يجدونه «المهدى» فيصرفون نظرهم عن الخلفاء الذين اغتصبوا سلطته.

وفي أثناء هذه المدة كان لابد لأولئك الذين ينتظرون عودته أن يعدوا عدهم من الرجال.

ولئن كان الإمام لا يزال مختفيًا، فإن هذا لا يمنع من أن يعمل أنصاره في حماسة على نشر الدعوة له، وفي أثناء غيبة ذلك الشخص الذي لا يعدو أن يكون لغزًا من الألغاز والذي أودعت فيه كافة أسرار الله سبحانه وتعالى، وجب على أنصاره أن يسيروا في البلاد ويدعوا الناس إلى الحق.

وهكذا كانت الدعاية قائمة على قدم وساق، وكانت هناك جمعية سرية أحسن تدريبها تعمل في سائر بلاد العالم الإسلامي، وكانت أنشط ما تكون في بلاد العرب والجزيرة وشمال أفريقيا، وكان الدعاة يُختارون ويُدربون على تعليم المبادئ التي يستطيع الذين دخلوا حديثًا في الدعوة قبولها في سهولة ويسر، فأما العامة والجهال فكانوا يلقنونهم ما يبدو في ظاهره دروسًا من القرآن ويشيرون دائمًا إلى قرب ظهور المهدي، تلك الشخصية الرائعة الغامضة، وأما المثقفون ذوو العقول المستنيرة فكانوا يلجأون معهم إلى المناقشات التي تتناسب مع إدراكهم الواسع وميولهم حتى يصلوا بهم إلى ما يبغون من التشكك.

ولم يكن هؤلاء الدعاة كالمسلمين في عقيدتهم، بل كانوا زنادقة فيما بينهم وبين أنفسهم، وكانوا أي شيء أمام الناس، وكانت أهدافهم سياسية محضة ترمي إلى قلب الإسلام بما يدخلونه في تعاليمه ثم ينقضون على المسلمين فيسلبونهم سلطانهم، وقد استخدموا لبلوغ غايتهم جميع مبادئ الدين دون حرج، وكانت كلها في نظرهم باطلة، وإنما انتفعوا بها

للوصول إلى الأهداف التي كانوا يرمون إليها، ويبذلون قصارى جهدهم في جذب الأتباع، ولا يلقنوهم من أسرار مذهبهم إلا بقدر ما يضمنون ولاءهم. وكم استعملوا اسم علي بن أبي طالب وأحاطوه بهالة من القداسة وبشروا بقرب ظهور مهدي جديد، لا لاعتقادهم في هذا أوذاك، ولا لاعتقادهم في الخلافة أو في التجسد الروحي، وإنما كان لابد لهم من أن يضربوا على وتر رنان يطرب لسماع نغماته الدهماء.

لقد أصاب دعاة الشيعة (١) ثلاث خطوات من النجاح: الخطوة الأولى هي سيادة القرامطة على بلاد العرب والجزيرة وسوريا في القرنين التاسع والعشرين، والخطوة الثانية هي امتداد الخلافة الفاطمية إلى شمال أفريقيا ومصر، والخطوة الثالثة والأخيرة كانت انتشار مبادئ الإسماعيلية أو الحشاشين الرهيبة في بلاد فارس ولبنان، والذي يهمنا هنا هو الخطوة الثانية، ولو أن القرامطة والحشاشين كان لهما تأثير في مصر.

وكانت الخلافة الفاطمية التي اشتقت اسمها من فاطمة، زوج علي بن أبي طالب وبنت النبي، أقوى وأبرز ما تمخضت عنه حركة الشيعة، التي وجدت في بلاد البربر تربة خصبة لنشر مبادئها بين البربر البسطاء، وأصاب أصحاب الدعوة نجاحًا كبيرًا بعد أن نجحوا في إيجاد خليفة لعلي بن أبي طالب وزوجه فاطمة في شخص عبيد الله المهدي في القيروان حاضرة البلاد التي تسمى تونس الآن، وذلك في سنة ٩١٠م.

ولقد خضعت بلاد المغرب من فاس في مراكش إلى الحدود المصرية لنفوذ المهدي بعد أن غزاها مرتين، فورث بذلك ملك الأغالبة الذين كانت لهم أعظم قوة بحرية في الجزء الأوسط من البحر الأبيض المتوسط مائة سنة،

والذين أخضعوا بها صقلية وسردينية وقرسقة ومالطة، فدمرت أساطيل الفاطميين فرنسا وإيطاليا، وكانت تسلب وتنهب وتحرق أينما حلت.
وكان المعز رابع الخلفاء الفاطميين من أسرة المهدي، وصاحب الفضل في فتح مصر، رجلًا قديرًا نزيهًا ذكيا وسياسيًا بارعًا خبيرًا بشئون السياسة، وكان إلى جانب ذلك خطيبًا مفوهًا ملمًا باللغات اليونانية والعربية ولغة البربر، واشتهر بأنه مسلم عادل أمين لمذهب الشيعة (٢).

لقد كانت هناك اختلافات بين طوائف الشيعة في تعاليمها، بعضها متطرف غامض وبعضها يظهر واضح الهدف، ولكنهما متقاربان حتى أنه ليصعب التمييز بينهما، والمعروف أن المعز كان كمعظم من جاء بعده لا يشارك الشيعيين المتطرفين آراءهم، ولكنه كان يؤمن بمبادئ القرآن التي تتفق مع آراء العلويين.
ذلك هو الخيلفة الفاطمي الذي عزم أخيرًا– بعد أن أخضع ممتلكاته في أفريقيا، ووصل بفتوحاته إلى المحيط الأطلسى «٩٥٩م»– على أن يتم غزو مصر التي حاول جده إخضاعها من قبل والتي كانت غاية ما تصبو إليه نفسه، فلم تكن أرض بلاد المغرب الجدباء ولا قبائلها الثائرة لتقارن بوادي مصر الخصب وتجارته النافقة، ومن ثم كان الخليفة قد وضع خطته لغزو مصر، ولم يكن ذلك الغزو إذ ذاك أمرًا عسيرًا، ذلك أن مولاه جوهر الرومي الذي نشأ في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، سار إليها في شهر فبراير سنة ٩٦٩م، فسلمت إليه الإسكندرية، لأن المصريين الذين قاسوا كثيرًا من المجاعة التي أعقبها وباء هلك فيه أكثر من نصف مليون من السكان في مصر وما جاورها وخضعوا لقيادة ضعيفة وتعرضوا لنهب

الجنود الثائرين، كانوا قد استمعوا لهؤلاء الذين اندسوا بينهم من أنصار الفاطميين، فلم يقاوموا الغزاة مقاومة تذكر، وتقدم جوهر فعبر النهر بعد أن اشتبك مع جند المصريين عند الجيزة، عند ذلك تقدمت إليه نساء مصر يلتمسن منه الرحمة، وقد أعقب التسليم عفو شامل، وأمر جوهر جنده بالكف عن النهب والسلب، ودخل الجيش الفاطمى «مصر» في الخامس من شهر أغسطس.

وفي نفس تلك الليلة وضع جوهر أساس مدينة جديدة، أو على الأصح أساس قصر حصين لاستقبال مولاه العظيم، وكان هو قد عسكر في الأراضي الرملية التي تمتد شمال شرقي الفسطاط على الطريق المؤدي إلى هليوبوليس، وهناك على مسافة تبعد عن النهر بما يقرب من الميل وضع حدود الحاضرة الجديدة، ولم تكن هناك مبانٍ سوى دير العظام القديم ولا زرع سوى تلك الحديقة الجميلة المسماة بستان كافور مما يعين جوهرا على إتمام خطته.

وقد وُضعت القوائم في مربع يبلغ كل ضلع من أضلاعه ألفًا ومائتين من الياردات، وأخذ المنجمون من المغاربة الذين كان المعز يثق بهم ثقة عمياء يتشاورون فيما بينهم عن تحديد موعد الافتتاح، وعلقت الأجراس على الحبال الممتدة من عامود إلى آخر في انتظار إشارة تعطى حينما يتفق هؤلاء العلماء المنجمون على حسن الطالع فتُدق الأجراس ويبدأ العمال في العمل فورًا، غير أنه حدث ما عجل بالأمر وسبق كلمة المنجمين، إذ وقف غراب على طرف أحد الأعمدة، فأخذت جميع

النواقيس تدق، وبدأت المعاول تعمل في الأرض وتحفر الحفر اللازمة للبناء، وكان ذلك طالعًا غير سعيد، فقد كان كوكب المريخ «القاهرة **Mars**» في صعود، ولكن ما تم عمله لم يكن نقضه، وهكذا سميت المدينة «القاهرة» نسبة إلى هذا الطالع غير السعيد أملًا في أن يتحول الفأل المشئوم إلى نتيجة مظفرة.

والواقع أنه يمكن القول إن القاهرة قد خيبت أوهام المنجمين، فقد حذف اسم الخليفة العباسي من صلاة الجمعة في مسجد عمرو بن العاص القديم، وحرم لبس السواد شعار العباسيين، فلبس الخطيب ملابس ناصعة البياض ودعا في خطبته للإمام المعز أمير المؤمنين، وطلب له ولأجداده– علي بن أبي طالب وفاطمة وجميع أفراد أسرهما المباركة – الرحمة والرضوان، وكانت الدعوة إلى الصلاة من فوق المآذن مما يتفق وميول الشيعة.

هذا وقد أُرسلت كل هذه الأخبار السارة إلى الخليفة الفاطمي على الهجن السريعة التي حملت رءوس القتلى، وضربت السكة باسم الخليفة فضرب على أحد وجهيها: «دعاء الإمام معد بتوحيد الإله الصمد» وفي السطر الثاني: «المعز لدين الله أمير المؤمنين»، وفي السطر الثالث: «بسم الله» ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلثمائة»، وضرب على الوجه الآخر «لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، على أفضل الوصيين وزير خير المرسلين» (١) واستمرت المساجد ودار صك النقود مدة قرنين من الزمان تنحو هذا النحو الذي يتفق وآراء الشيعة «٢».

كان التغيير الذي تم أكثر من إبدال عقيدة بعقيدة أخرى، ويرجع الفضل في ذلك إلى سياسة التسامح التي سار عليها الفاتحون وتجنب مبادئ الشيعة المتطرفة، فقد رضي الناس بالنظام الجديد ولم يقابلوه بالاعتراض أو التعصب، اللهم إلا عند ما جابههم الشيعيون بالاحتفال باليوم الأول من شهر المحرم تكريمًا لذكرى شهداء كربلاء، وظل السواد الأعظم من الشعب يدين بعقائد المذهب السني، أما التغيير الحقيقي فكان سياسيًا، فلم تعد القاهرة حاضرة ولاية تابعة للخلافة العباسية، ولا ولاية مستقلة استقلالًا داخليًا داخل حدود الخلافة، وإنما أصبحت حاضرة دولة مستقلة منافسة تشتمل على إمبراطورية من دول البحر الأبيض المتوسط، حقيقة إن الإمبراطورية لم تلبث أن فقدت ولاياتها الأفريقية البعيدة كما فقدت الجزر الأوروبية وانكمشت حتى لم تعد تشمل سوى البلاد التي وصلت إليها في عهد أحمد بن طولون، غير أن قوة الدولة الفاطمية وغناها كانا شيئًا جديدًا، وكان للتنافس بين القاهرة وبغداد، أو بين خلافة الشيعة الناشئة والنظام السني المتداعي، أثر بعيد المدى في مضمار السياسة والحضارة، إذ كانت قوة الفاطميين البحرية واتصالهم بدول أوروبا عاملًا جديدًا في السياسة الخارجية وفي تنشيط التجارة وفي تغيير حضارة مصر وسوريا في نواحٍ عديدة.

ومن جهة أخرى، فإن عزلة القاهرة أدت إلى نمو حضارة خاصة بها لم تكن كلها في مصلحة مصر، وذلك أن غلوها في نشر مذهبها قد عزلها عن المراكز الثقافية المهمة في العالم العربي في بغداد ودمشق وقرطبة، ثم إن الامتزاج القديم الذي كان من شأنه أن يجلب الأساتذة والطلاب من كل

أنحاء الدولة الإسلامية إلى مساجد المدن الكبيرة قد أصبح مستحيلًا في حاضرة مثل القاهرة كانت المساجد فيها في أيدي رجال الدعوة الشيعية المتطرفين، ومن ثم كانت القاهرة بمعزل عن تقدم الدراسات الإسلامية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وقلما ظهر هناك قادة في محيط الفكر أو الأدب العربي تحت الحكم الفاطمي.

أما في بعض الفروع الأخرى كالفلسفة والعلوم الطبيعية والطبية، فقد كان من المنتظر أن يظهر بعض التقدم نتيجة لسياسة حرية الفكر التي ينادي بها الشيعيون، وذلك هو ما حدث فعلًا، إذ سجل بعض العلماء والأطباء المسيحيين واليهود تقدمًا يذكر.

ولكن هذه الحالات الفردية لا تعد شيئًا إذا قورنت بالخسارة العامة التي عادت على مصر من عزلتها عن سائر العالم الثقافي، وقد تكون القاهرة قد استفادت شيئًا من اختلاطها بأوروبا، غير أن أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر لم تكن شيئًا مذكورًا في ميدان الثقافة.

على أن الذين استفادوا حقًا من تغيير الحكومة هم القبط المسيحيون، فحتى ذلك الوقت كان مصير القبط على الدوام يتوقف على مزاج حكام العرب أو الأتراك المختلفين، ولكن مع الخلافة الفاطمية بدأت فترة من التسامح لا عهد لهم بها، فقد كان الحكام الجدد– إذا استثنينا واحدًا منهم – يرعون على الدوام رعاياهم المسيحيين، وكثيرًا ما بنيت أو أُصلحت كنائس في عهدهم.

وكان للخليفة العزيز بن المعز – الذي حكم من سنة ٩٧٥ إلى سنة ٩٩٦م زوجة مسيحية، وكان اثنان من إخوتها بطاركة ملكانيين، كما

كان للخليفة من بين اليعقوبيين رجلان من خاصة أصدقائه، هما البطريك إفرايم وساويرس أسقف الأشمونين، وكان الأسقف يشجع على المجيء إلى القصر والتحدث في اللاهوت مع رئيس القضاة، كما أن البطريق قد سمح له بإصلاح كنيسة الأنبا ميكاريوس (١) في خارج مصر.

ويحدثنا أحد الكتاب الأرمنيين أنه كانت لهذا القديس كنيسة تقع على ضفة النهر، غير أنها كانت متهدمة ومستعملة كمخزن لقصب السكر، وذلك أنه حدث في أيام البطريق مكاريوس أن تساءل الناس عن صحة العقيدة المسيحية ومقدار صحتها أو كذبها، فتجمع الأهالي من المسيحيين وذهبوا إلى الجبل وخرج المسلمون واليهود يشهدون الأمر بأنفسهم، فصار المسلمون يصلون ويدعون الله أن يبين لهم الحق من الباطل، وداموا على تهجدهم ينادون الله أكبر، ولم تحدث المعجزة التي كانوا يرقبونها، ثم جاء اليهود وقاموا بدورهم يطلبون من الله إظهار الحق، ولكن لم يكن حظهم أوفر من حظ المسلمين، ثم تقدم البطريق مكاريوس يتبعه الدباغ الذي كان الله قد أجرى على يديه معجزة من قبل، وتبعهما المؤمنون من الشعب، فأخذا في الصلاة والدعاة وإحراق البخور، ونوديا «كيرياليسون – ارحمنا يا رب» ثلاثًا، وما إن أتما ذلك حتى حدثت المعجزة وتحرك الجبل (جزء من جبل المقطم قريب من قلعة الكبش بين القاهرة ومصر) بقوة إيمان الدباغ الذي فقأ عين نفسه في حضرة الخليفة العزيز بالله وكبار رجال حكومته والفقهاء. ولما شاهد العزيز هذه المعجزة التفت إلى البطريق وقال له: "كفى أيها البطريق فقد رأينا ما فعل الله لك"، وطلب إليه أن يتمنى عليه ما يشاء ليحققه له، فتمنع البطريق أولًا،

غير أن إلحاح العزيز عليه جعله يطلب إليه أن يأذن بإصلاح كنيسة قديمة كان قد لحقها الخراب، فأجابه العزيز إلى ما أراد، ويقال إنها هي نفس كنيسة الأنبا مكاريوس (١)، ومما يستحق الذكر أن البطريق لم يقبل المال الذي منحه إياه العزيز لإصلاح الكنيسة، ولكنه أصلحها من ماله الخاص، وتم هذا العمل تحت حراسة قوات الخليفة التي كانت تحمي المسيحيين من «عامة المسلمين» الذين لم يكونوا يطيقون التساهل مع أولئك «المشركين».

وكان أحد وزراء العزيز يهوديًا أسلم ووزير آخر مسيحيًا «ابن نسطورس»، وكان المسلمون لا يظهرون بطبيعة الحال ارتياحهم لمثل هذا التسامح الديني، مما دعاهم إلى هجاء الخليفة، أما النساء فكن دائما في صف المسيحيين، وقد نجحن كما هي العادة.

وحتى في أيام الخليفة الحاكم – الذي سبقت الإشارة إلى أنه كان دون الخلفاء جميعًا رعاية للقبط، والذي جاء وقت اضطادهم فيه اضطهادًا مريرًا – كانت الوظائف الكبرى لا تزال في أيدي المسيحيين، وعلى الرغم مما حدث من السلب والنهب في أيام الوزير اليازوري في منتصف القرن الحادي عشر، يبدو أن ذلك كان نتيجة عسر مالي وليس نتيجة اضطهاد ديني، ومما لاشك فيه أن الوزراء الأرمن في النصف الأخير من ذلك القرن كان لهم أثر عظيم في تحسين شعور العداء نحو المسيحيين، حتى أننا نرى الخليفة الحافظ في القرن الثاني عشر يتلقى دروسًا في التاريخ مرتين في كل أسبوع على يد البطريق الأرمني، كما أن كثيرًا من الخلفاء الذين جاءوا بعده كانوا يزورون الحدائق ذات الظلال الوارقة في

الأديرة القبطية حيث كان يستقبلهم الرهبان ويبالغون في إكرامهم، وكثيرًا ما نقرأ عن مساعدات قيمة أسديت لإقامة إحدى الكنائس أو الأديرة.

وقد اتخذ الخليفة الآمر راهبًا مساعدًا له وبنى نزلًا له في أحد الأديرة القريبة من الجيزة، كان ينزل فيه كلما خرج للصيد ويدفع للرهبان ألف درهم كلما زارهم. وكان يداخله السرور كلما وقف في مكان القسس من الكنيسة، ولو أنه كان إذا دخل سار إلى الخلف حتى يتجنب الانحناء إذا دخل من الباب المنخفض.

وكذلك كان العاضد آخر خلفاء الفاطميين يلجأ إلى دير العذراء على مسافة بضعة أميال من القاهرة ينعم بالهواء وبمنظر النيل الخلاب (١).

وكما كان للكنائس نصيب من العناية في هذا العهد، كان للمساجد نصيب لا يقل عنها، وعلى الرغم من أن عهد الفاطميين لم يكن مشهورًا بكثرة المساجد التي أقامها أهل الخير والإحسان كما كانت الحال في الشطر الأخير من عهد المماليك، اقترن عهد الفاطميين بإنشاء جامعين كبيرين في القاهرة كانت تعقد فيهما اجتماعات حافلة، فقد كان أول ما قام به جوهر بعد أن بدأ في بناء أسوار القاهرة أن وضع أساس ذلك الجامع الذي لا يزال قائمًا حتى اليوم، والذي اشتهر في العالم باسم الجامع الأزهر، وقد وضع أساسه في يوم الأحد ٣ أبريل سنة ٩٧٠م، وتم بناؤه في الرابع والعشرين من شهر يونيو سنة ٩٧٢م.

وفي سنة ٩٨٨م أصبح العلماء يؤمون هذا الجامع من كل حدب وصوب، ومنذ ذلك الوقت صار من أهم الجامعات الإسلامية كافة، يجتمع فيه عدد كبير من الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي من ساحل الذهب إلى ولايات الملايو، ولكل شعب رواق خاص به، ويتلقى هؤلاء الطلاب على أيدي الشيوخ دروسًا في مختلف فروع الثقافة العربية القديمة: القرآن والحديث والتفسير والفقه والنحو وعلم العروض والمنطق والبلاغة الجبر وما إلى ذلك.

وإلى سنة ١٩٠١ كان يختلف إلى الجامع الأزهر أكثر من تسعة آلاف طالب يتلقون دروسهم على أيدي تسعة وثلاثين ومائتين من الأساتذة، ويتعلم هؤلاء الطلاب بالمجان، ولم يبخل أهل العلم والأدب في القاهرة وفي كثير من الحواضر الأخرى بعلمهم وثقافتهم على طلابهم، وكانوا يكسبون عيشهم من التدريس ومن نسخ الكتب الخطية، وكان الغرباء من الطلاب لا يتلقون العلم بدون مقابل فحسب، بل كانوا يُعطون قدرًا من الطعام ينفق عليه من المال الموقوف «الجراية».

وكانت الثقافة الأزهرية في بادئ الأمر محدودة، ولكن على الرغم من ذلك فإنها مثل طيب للتعليم الحر الذي يفتح أبوابه للفقراء دون تمييز في الجنس أو اللغة أو الطبقة.

وليس على المرء أن ينسى منظر الطلاب وقد التفوا على شكل حلقة حول أستاذهم وأخذوا يستمعون إليه كأن على رءوسهم الطير، أو منظرهم وهم يمشون مقبلين مدبرين يستظهرون ما تعلموه من أساتذتهم،

والواقع أن هؤلاء يمثلون في أذهاننا ما كانت عليه الثقافة العربية في العصور الوسطى حيث الرغبة الصادقة في العلم الذي لا يتحمس في طلبه بقصد الحصول على الجوائز أو اجتياز الامتحانات، وذلك ما تفتقر إليه الجامعات الغربية.

والواقع أن قسمًا من البناء الحالي للأزهر يمثل البناء الأصلي القديم، فقد أصلح أكثر من مرة، وأعيد بناؤه على نطاق واسع في القرن الثامن عشر، وفي منتصف القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من بعض الأفاريز الكوفية والأروقة الفارسية التي يتميز بها الحكم الفاطمي، نراه يصطبغ الآن على وجه العموم بصبغة حديثة.

ومهما يكن من شيء، فإن الصحن المربع الشكل يقع في نفس المكان الذي قام فيه الخليفة المعز بالصلاة في سنة **٩٩٣**، عشية دخل المدينة دخول الظافر المنتصر تسبقه توابيت جثث أسلافه حيث أودعها ثرى تلك المدينة الجديدة التي بناها قائده الأمين جوهر، دون أن يحفل بأمر مدينة الفسطاط الحاضرة الأولى التي كانت تستقبل الحاكم الجديد وهي في أبهى حللها.

ولقد أم الخليفة المصلين في يوم عيد الفطر، وخطب فيهم، ثم غادر المسجد في موكب حافل يحوطه الوقار ويحف به جنوده ويحرسه أولاده الأربعة شاكي السلاح يتقدمهم اثنان من الفيلة، وظل على ذلك حتى وصل إلى القصر الذي كان قد أعده قائده جوهر لنزوله.

ولم يكن الغرض من بناء تلك الأسوار الحصينة أن تضم حاضرة مصر، إنما كان الغرض منها أن تضم مقر الخليفة ورجاله وعبيده وموظفيه وقواته من المغاربة، ولم يكن العامة من أهل مصر يدخلون إليها، إذ لم يكن يسمح لأحد بالدخول من أبوابها بدون إذن، حتى إن سفراء الدول الأجنبية كانوا يترجلون حين يصلون إلى الأسوار، ثم يمشون إلى القصر في حراسة بعض الجند كما كانت الحال في بيزنطة، وبالاختصار كانت القاهرة مقر الخليفة ولم تكن مدينة عامة لجميع طوائف السكان، وكانت أسوارها المرتفعة وأبوابها التي أقيم عليها الحراس تمثل العزلة والغموض الذي كان يشغف به الخليفة، وإن اسمها الذي عرفت به وهو القاهرة «المحروسة» يوضح تلك العزلة وذلك الغموض.

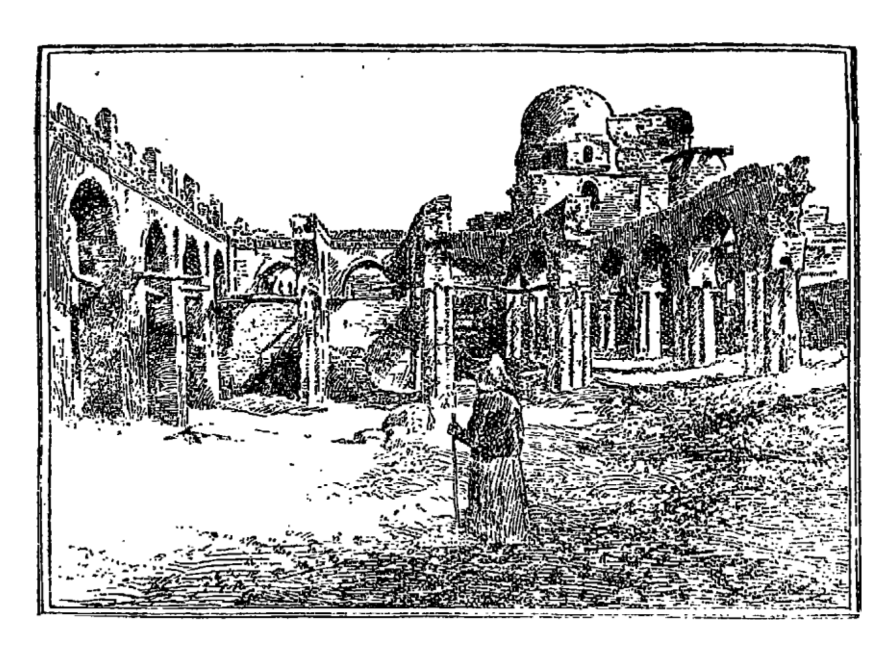
وكانت الأسوار الأصلية القديمة قد بنيت من الطوب الكبير الحجم الذي يبلغ طوله قدمين تقريبًا وعرضه خمس عشرة بوصة، وكان سمك هذه الأسوار بحيث يسمح لفارسين أن يسيرا فوقه جنبًا لجنب، ولقد قاس المقريزي ما تبقى من هذا السور الأول في سنة ١٤٠٠م وقال إن الأيام لم تبق على شيء منه (١).

وكانت المساحة الأصلية القديمة أقل بمائة قدم من كل جهة من المساحة التي بني بها سنة ١٠٨٧م، ومن السهل علينا أن ندرك طول المدينة الأصلية التي بناها جوهر، إذا علمنا أن باب الفتوح الحالي «بما في ذلك جامع الحاكم» وباب زويلة «بما في ذلك جامع المؤيد» يقعان خارج الساحة الأصلية.

أما عرض تلك المدينة فكان يمتد من باب الغريب خلف الأزهر شرقًا إلى الخليج غربًا، والحد الغربي الذي كان يحاذي الخليج لا يزال يتمثل في الشارع الذي يسمى «بين السورين» في آخر الموسكي، وهكذا كان المكان كله يبلغ طوله من كل جهة ألفًا ومائتى ياردة، وتقرب مساحته من نصف ميل مربع.

وبالقرب من وسط المدينة كان يقع ذلك الميدان المسمى «بين القصرين»، وهو الاسم الذي لا يزال يطلق على جانب من الشارع المعروف باسم سوق النحاسين، والذي يتاخمه الآن بعض المساجد التي يرجع تاريخها إلى ما بعد ذلك، وهذا الاسم يفسر نفسه، لأن الميدان الذي كان أعرض بكثير من الطريق الحالي ويتسع لعرض عشرة آلاف جندي كان يفصل بين قصرين يواجهانه.

هنالك كانت تعقد الاجتماعات العامة بالمدينة، أما القصر الذي كان يقع على الجانب الشرقي فهو القصر الكبير الذي بناه جوهر للمعز، ويقع خان الخليلي على أحد جوانبه والحسينية على الجانب الآخر، وأما القصر الصغير الذي بناه العزيز فإنه يواجه القصر الكبير، وقد بني مارستان قلاوون على جزء من أرضه، ويطل من الخلف على بستان كافور الفسيح الأرجاء الذي بني فيه قصر الإخشيد.



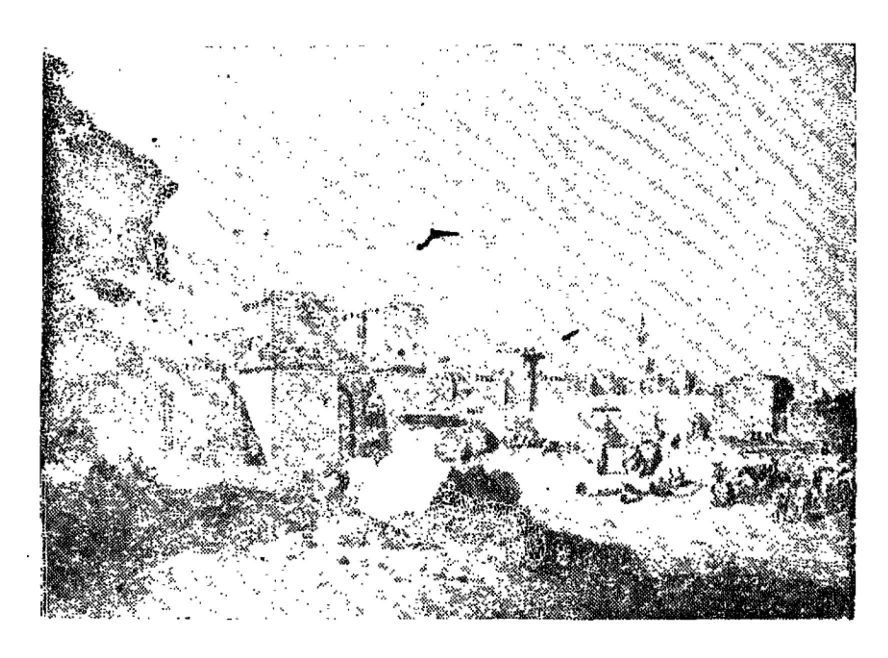
جامع الحاكم

وقد أفرد المقريزي نحو مائتي صفحة لوصف هذين القصرين العجيبين، فنقرأ في هذا الوصف عن أربعة آلاف حجرة وعن باب من الذهب يوصل إلى ردهة من الذهب، وعن مقصورة فخمة كان يجلس فيها الخليفة فوق عرش من ذهب يحيط به حجابه وحاشيته «وكانوا في العادة من الروم أو السودان» حيث يشاهد احتفالات المسلمين وراء ستر من الذهب، كذلك نقرأ عن قاعة الزمرد ذات الأعمدة المصنوعة من الرخام، وعن الإيوان الكبير الذي كان الخليفة يختلف إليه في يومي الإثنين والخميس، فيجلس قريبًا من النافذة وفوق رأسه قبة فخمة، كما نقرأ عن الباب الذي يجلس عنده الخليفة كل مساء يستمع إلى أصحاب المظالم ويقضي في شكاياتهم.

كل هذه الأبنية التي تكون في مجموعها ما يعرف بالقصر الكبير لم تكن وليدة سنة واحدة ولم تكن من عمل حاكم واحد، فقد بدأ جوهر في بناء القصر في نفس الليلة التي وضع فيها أساس مدينة القاهرة في يوليو سنة ٩٦٩، وفي شهر مارس التالي كان قد تم بناء بابين من أبواب هذه المدينة، وفي سنة ٩٧٠-٩٧١ أقيم سور حول القصر، ويقول ناصر خسرو- الذي كتب عن هذا السور بعد ذلك بثلاثة أرباع قرن- إن قصر الخليفة كان يبدو من خارج المدينة كأنه جبل لارتفاع بنائه، غير أن المرء حين يقترب منه قلما يتبين منه شيئًا، وذلك لارتفاع السور الذي أقيم حوله (١).

لما وضع الخليفة المعز رسم القصر الأصلي لم يكن يحوي نصف الأبهاء الفخمة التي وصفها المقريزي، فقد بنى الخليفة العزيز الذي اعتلى العرش من بعده قاعة الذهب والإيوان الكبير والقصر الصغير في الجهة الغربية ومنظرة اللؤلؤ في بستان كافور، وقد وسع الخلفاء والوزراء هذا القصر بعد ذلك وعدلوا فيه، حتى أنه لما أطلق على هذه القصور اسم «القصور الزهراء» كانت تشمل بضعة مساكن منفصلة وعدة غرف بنيت في أوقات مختلفة، وكان للقصر الكبير وحده عشرة أبواب عدا ممر تحت الأرض يصل منه الخليفة راكبًا بغلته إلى القصر الغربي الذي أفرد الحريم، وقد بلغ عدد الحريم في هذه القصور في القرن الحادي عشر اثني عشر ألفًا، وإذا أضيف عدد النساء إلى هذا العدد بلغ من كانوا يقيمون في هذه القصور ثلاثين ألفًا.

وقد قام مسيو رافيس برسم هذه القصور الفاطمية وخطط تصميمها مستعينًا بوصف المقريزي في كتابين لهما قيمتهما (٢)، وعلى الرغم من أن بعض التفصيلات يجب أن ينظر إليها على أنها ناقصة وعرضة للنقد وإعادة النظر،



باب النصر

فإنها تمثل التنظيم الحقيقي للمدينة الفاطمية، وعلى ما جاء في هذه الأبحاث الشائقة نجد أن القصر الشرقي الكبير كان يحتوي أولًا على ثلاثة مبانٍ مستطيلة الشكل مختلفة الأحجام تؤلف في مجموعها ثلاثة أرباع المربع، أما الباقي وهو المربع الشمالي الشرقي فقد كان به البهو الذي كانت تقام فيه الاحتفالات، وهو مكان مكشوف يقع بين القصر الكبير ودار الوزارة، حيث كان الأهالي يحتفلون بالأعياد، ويقع القصر الكبير

الذي وصفناه بين دار الوزارة والأزهر، وكان الأزهر يشغل المساحة الواقعة بين خان الخليلي وحي الحسينية إلى شارع الجمالية حيث جامع بيبرس الجاشنكير الآن.

وكانت الأبهاء والقاعات والدواوين المختلفة موزعة في تلك المباني، أما الإسطبلات والخزائن فكان لها أبنية أخرى بعيدة منعزلة، وإلى الجانب الآخر من «بين الصورين» يبدأ القصر الغربي حيث المارستان الآن ويمتد إلى حارة برجوان، وكان له جناحان بارزان في كلا الطرفين لكي يمتد بين القصرين، أما المسافة بين القصر الغربي وسور المدينة الغربي فكان يشغلها بستان كافور تتخللها أكشاك مختلفة تطل على الخليج.



مآذن باب زويلة

وأما سائر المدينة المسورة خارج القصور فكانت فرق الجيش الفاطمي المختلفة تعسكر في حاراتها مثل الجودرية والديلم وكتامة والبرقية وزويلة وحارة الروم وهكذا.

أما أبواب المدينة فكانت تتألف من باب النصر وباب الفتوح في الشمال وباب القنطرة المؤدي إلى جسر جوهر فوق الخليج وباب الفرج أو باب الشعرية (١)، كما يسمى أحيانًا، وباب السعادة (٢) وباب الخوخة في الغرب وتفتح على الخليج، وباب زويلة (٣) الذي كان عبارة عن بابين في الجنوب، أما في الشرق فكان هناك الباب المحروق الذي سمي بهذا الاسم، لأن بعض المماليك الهاربين كانوا قد أحرقوه في القرن الثالث عشر الميلادي، والباب الجديد الذي بناه الخليفة الحاكم، وباب البرقية الذي يسمى الآن باب الغريب.

وقد سبق أن ذكرنا بعض الخرافات الحديثة المتصلة بباب زويلة، وكان دائمًا مرتعًا للأشباح، وزاده رهبة أن عقوبات الإعدام كانت تنفذ على مقربة منه. ويذكر لنا المقريزي أن الباب الأصلي الذي كان بجوار معبد سام بن نوح كان يتكون من بابين، أحدهما يسمى باب القنطرة ومنه دخل المعز حين جاء إلى القاهرة في موكبه الرسمي الأول وحذا حذوه الناس جميعًا، أما الباب الثاني فقد تشاءم الناس ولم يدخلوا منه، ويقول المقريزي إن هذا الباب لم يكن له وجود أو أثر إلا أنه يفضي إلى الموضع الذي يعرف بالحجارين، حيث تباع آلات الطرب مثل الطنابير والعيدان وما إلى ذلك، ومازال شائعًا بين الناس أن كل من يسلك من

هناك لا تقضى له حاجة، ويقال إن السبب في ذلك يرجع إلى أن الآلات الموسيقية لا توجد إلا في بيوت اللهو والعبث وفي دور المغنين والمغنيات من الرجال والنساء، ولكن الأمر على العكس من ذلك، فإن هذا القول كان جاريًا على ألسنة أهل القاهرة منذ دخلها المعز وقبل أن يصبح هذا المكان سوقًا للمعازف (٤).

ولعل هذه التفاصيل الطبوغرافية تهم رجال الآثار أكثر من غيرهم، وإنه ليتحتم علينا أن نبحث في أسفار الرحالة عن أوصاف أكثر وضوحًا عن محتويات هذا القصر، غير أنه لسوء الحظ أن الأجانب الذين كانوا يزورون ذلك القصر الفاطمي قليلو العدد، ومن ثم فإننا قلما نجد وصفًا جديدًا نضيفه إلى ما خلفه المقريزي، حقيقة إن الرحالة الفارسي ناصر خسرو ذهب إلى هناك في سنة ١٠٤٧م، إلا أن وصفه لم يكن واضحًا، وإنا لنلمس غموضًا ونقصًا في وصفه قاعة الذهب وما كان يوشي جدرانها وسقفها من الرسوم والصور التي تمثل الصيد، وفي وصفه الستر المرصع الذي كان يفصل العرش عن الجزء الآخر من القاعة، وكان من الذهب أيضًا، وفي وصف الدرجات المصنوعة من الفضة التي كانت توصل إلى العرش، ولعل أحسن وصف هو ما ذكره وليم الصوري عن بعثة الصليبيين في سنة ١١٦٧م حينما ادعى عموري أنه حامي الخليفة، ولو أن القصر كان قد تغير كثيرًا عما كان عليه منذ قرنين من عهد إنشائه.

ولقد كان مثول السفراء المسيحيين في حضرة الخليفة أمرًا لم يسبق من قبل، حتى إنه لم يكن ليتاح ذلك إلا لقليل من المسلمين من ذوي المكانة الرفيعة، غير أن عموري كان قويًا، وبذلك تمكن من تنفيذ ما أراد. وقد أوفد هيو صاحب قيصرية وجوفرى فلتشر أحد فرسان المعبد في هذه البعثة إلى الخليفة. ولما حضر أوصلهما الوزير بنفسه في حفل رائع إلى القصر الفاطمي الكبير، وسار بهما في ردهات سرية يحرس أبوابها جند من السودانيين شاكى السلاح، ثم تخطى بهما فناء فسيحًا مكشوفًا تحيط به أروقة مقامة على أعمدة من الخام، وسقوفها تغشاها صفائح من الذهب مزينة بالألوان، وأرضها مغطاة بالفسيفساء مما بهر أنظار هذين السفيرين وتركهما في دهشة وإعجاب من إبداع في الصناعة والفن الذي لم يكونا قد رأيا له مثيلًا من قبل في بلاد الغرب، وكانا كلما سارا طالعهما عجب جديد؛ فهنا نافورات من المرمر وطيور ذات أصوات مختلفة وريش بديع اللون لا شبيه لها في العالم العربي، وهناك في قاعة أخرى حيوانات أبدعت يد الفنان الماهر في رسمها وتصويرها أو تفتقت قريحة الشاعر في نظمها في قصائده أو تخيلها نائم في أحلامه، مما لا تجود به إلا بلاد الشرق والجنوب والتي لا يراها الغرب أو يكاد يسمع بها.

وأخيرًا بعد سير طويل في منعطفات وأروقة، وصلا إلى قاعة الذهب حيث عرش الذهب فشاهدا عددًا كبيرًا من الخدم والأتباع بملابس مزركشة فاخرة تتناسب مع عظمة مولاهم الخليفة، وهنا أخرج الوزير سيفه من غمده وانحنى أمام الخليفة في خشوع زائد ثلاث مرات، كما لو كان ماثلًا أمام معبود في أحد المعابد، عند ذلك فتحت الستائر

الثقيلة الموشاة بالذهب واللؤلؤ، وظهر الخليفة جالسًا على عرش من الذهب، وقد ارتدى من الملابس الفاخرة التي لم توجد عند كثير من الملوك.

ثم قدم الوزير الفارسين الأجنبيين في أدب جم وخشوع زائد، وأعلن لمولاه في صوت منخفض مقدار الخطر الخارجي، ونوه بصداقة ملك بيت المقدس الوطيدة، فأجاب الخليفة الشاب في وقار وجلال وعبر عن رضائه عن العلاقة القائمة بينه وبين حليفه العزيز، غير أنه حينما طلب إليه أن يمد يده دلالة على توثيق ذلك الرضا، تردد قليلا وسرت في الحاضرين موجة من الغضب على هذه الجرأة، إلا أن الخليفة ما لبث أن مد يده – والقفاز فيها – إلى السير هيو، وكان رجلًا صريحًا جريئًا، فقال: «يا مولاى لا يحتاج الصدق إلى ما يخفيه عهد الأمراء»، وأخيرًا ابتسم الخليفة في ألم كأنما يتزل عن شيء من كرامته، فخلع القفاز ووضع يده في يد السيد هيو، ثم أقسم بأن يرعى عهده (١).

وليس من شك في أن الخلفاء الفاطميين كانوا أكثر الملوك الذين حكموا مصر حبًا للمظاهر، ومع أن المعز لم يكن ميالًا إلى الترف والنعيم، فقد كان يستمع بنفسه على الدوام إلى كل كبيرة وصغيرة من شئون الحكم، وكان ينظر في المظالم ويدير شئون الجيوش الذي كان يستمد منه قوته وسلطانه، كما بنى دارًا للصناعة عند المقس بالقرب من الأزبكية في شمال دار الصناعة القديمة التي كانت في الروضة وفي مصر، واستمرت

المقس ميناء القاهرة ودار صناعتها حتى تغير مجرى النهر فحلت محلها بولاق.

وقد بنيت في المقس بعد ذلك ستمائة سفينة، وقد شاهد ناصر خسرو في سنة ١٠٤٧ بعض سفن المعز راسية هناك، وكان طول كل منها نحو ٢٧٥ قدمًا وعرضها ١١٠ أقدام (١).

وعلى الرغم من أن المعز كان يميل إلى الجد والعمل، كان في الوقت نفسه محبًا للأبهة والظهور، فقد كانت تحيط به العظمة والجلال حين يشرف حفلة جبر الخليج. وينفق أموالًا طائلة في صنع كسوة الكعبة بعد أن اعترفت مكة بسلطانه، وكان يعرض هذه الكسوة على الناس في عيد الأضحى.

والمعز هو الذي وضع رسم مباني جميع القصور، ولم يكن جوهر إلا المنفذ لإرادته والقائم على أعماله المختلفة، وكانت هذه المدينة الجديدة العظيمة أكبر دليل على ميل الخليفة إلى الترف وعلى تعدد موارده وكثرتها.

والواقع أن ثراء الفاطميين كما يصوره لنا المؤرخون كان يفوق كل وصف، وإنا لنقرأ عن بنتين للمعز، تركت إحداهما مليونين وسبعمائة ألف من العملة الذهبية، وتركت الأخرى حجرات متعددة ملأى بالجواهر، من بينها خمسة أكياس من الزمرد وثلاثة آلاف قطعة فضية وثلاثين ألف ثوب صقلي، حتى كان الشمع الذي استعمل في الختم على

هذه الثروة أربعين رطلًا، وقد اشترى المعز نفسه مقطعًا من النسيج الفارسي قدر باثني عشر ألفًا من الجنيهات رُسمت عليه أقطار العالم وبلدانها، كما أنفقت زوجه في سنة ٩٦٦م مالًا كثيرًا في بناء مسجدها بالقرافة، الذي رسمه الحسن الفارسي وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة.

وكان من أثر ذلك قبول الآراء الفنية التي كان يمقتها السنيون والتي عمل على تشجيعها الفاطميون، من ذلك رسم صور الأشخاص وتمثيلهم في مختلف نواحي الفن، وكان ذلك محرمًا في أيام النبى (٢).

وعلى أي حال فإن مسجد القرافة فاق كل ما بني في مصر من قبل إذا استثنينا ما قيل عن قصر خمارويه في القطائع، وكان رسمه كرسم غيره من المساجد، وكان مربع الزوايا، وعلى جوانبه أروقة كالأزهر، غير أن النقوش التي على جدرانه كانت في غاية الإبداع، وكانت المقصورة يُدخل إليها من أربعة عشر بابًا مربعة، أمام كل باب قنطرة مقوسة على عمودين من الرخام في ثلاثة صفوف، وكانت الأبواب مدهونة بالأزرق والأحمر والأخضر، كما كانت السقوف ملونة بمختلف الألوان، وكان أمام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس، ملونة بألوان مختلفة، يكاد الناظر إليها يخالها شكلًا طبيعيًا، وقد حاول النقاشون أن يحاكوها فما استطاعوا.

وإنا نقرأ كذلك عن اثنين من الفنانين كان أحدهما ينافس الآخر، أولهما القصير والآخر ابن عزيز العراقي، وكانا يتمتعان برعاية الوزير

اليازوري، وقد صور أحدهما راقصة في ثياب بيض، في قوس ملون بالسواد، يخيل إلى من رآها أنها داخلة فيه، وصور الآخر راقصة أخرى في ثياب حمر في قوس أصفر، يخالها الناظر بارزة عن القوس، وكان في إحدى دور القرافة صورة للكتامى، أحد نقاشي جامع القرافة، تمثل يوسف عليه السلام يتهيأ للراحة وهو في الجب (١).

وكانت نفقات ذلك القصر الفخم وسكانه الذين تراوح عددهم بين عشرين ألفًا وثلاثين ألفًا يعيشون في بذخ وترف، وكانت هذه النفقات تأتي من الضرائب والأجور المتأخرة من جراء سن نظام جديد للضرائب بدل نظام الضرائب القديم، وقد جمعت كل دوائره في مركز واحد في دار الإمارة المجاورة لجامع ابن طولون، وتشددت الحكومة في تحصيل ما تأخر منها، وكان من أثر هذه السياسة أن زادت موارد الدولة زيادة كبيرة، حتى لقد بلغ ما كان يُستخرج من الفسطاط في يوم واحد مقدارًا يتراوح بين خمسين ألفًا ومائة وعشرين ألف دينار، وكانت الضرائب كلها تُدفع بالعملة الفاطمية الجديدة، أما العملة العباسية فقد أُبطل استعمالها.

أما العزيز– الخليفة التالي – فقد كان خبيرًا بالجواهر، ابتدع نوعًا جديدًا من العمائم محلاة بخيوط الذهب وسروجًا معطرة بالعنبر، وكانت أسلحته محلاة بالذهب، واقتنى كثيرًا من الطرف يزين بها موائده، وشغف – كخمارويه بن أحمد بن طولون – بجوارح الطير الغريبة، وجلب لذلك

الطيور والحيوانات من السودان، غير أنه في الوقت نفسه شابه أباه في حبه للسياسة وإدارة البلاد، ولم يشغله عنها حبه للترف والنعيم.

وقد بنى العزيز أسطولًا لمحاربة الإمبراطور بازيل، وقام بنفسه بحملة موفقة ضد سوريا السنية التي لم تكن قد خضعت لسلطان الفاطميين. كان عهده عهد سلام لمصر، وكان اسمه يُذكر في صلاة الجمعة في المساجد من جزيرة العرب إلى المحيط الأطلسي، كما كان يؤم الناس في الجامع الأزهر باعتباره رئيسًا دينيًا ودنيويًا.

أما الجامع المعروف باسم جامع الحاكم، فيرجع الفضل في وضع أساسه في أواخر سنة ٩٩٠م، إلى الخليفة العزيز ووزيره ابن كلس الذي أتمه، وأقيمت فيه صلاة الجمعة بعد ذلك بسنة، أما الزخرفة والمآذن وغير ذلك من الأشياء الثانوية فإنها لم تتم إلا في عهد ابنه الحاكم الذي بدأ جميع الأعمال في سنة ١٠٠٣م، وهكذا شهدت القاهرة مسجدها الجامع الثاني، وكان يسمى في أول الأول «الجامع الجديد» أو «الجامع الأنور» «على غرار الجامع الأزهر»، ثم أطلق عليه اسم جامع الحاكم. ولقد مرت بهذا الجامع أحداث أقسى مما حدثت لجامع عمرو، فإنه لما احتل الصليبيون القاهرة في سنة ١١٦٧م حولوا جانبًا من جامع الحاكم إلى كنيسة، ولما أعاد الأيوبيون المذهب السني إلى مصر وأبطلوا استعمال الجامع الأزهر، لأنه كان مركز التعاليم الشيعية، أصبح جامع الحاكم الجامع الرسمي للحكومة إذ ذاك.

ويبدو أن هذا الجامع قد استُعمل بعد ذلك لمرابط الخيل، وفي سنة ١٣٠٣م قوض دعائمه زلزال مروع، ثم أعاد بيبرس بناءه في العام التالي، وما جاءت سنة ١٤٢٠ التي كتب فيها المقريزي عن هذا المسجد، حتى كان قد تهدم مرة أخرى بفعل الحريق والإهمال، وبدأ سقفه تتساقط لبناته واحدة بعد أخرى، ومنذ ذلك العهد غدا الدهر يقسو عليه يومًا بعد يوم، أما الفناء فقد تحول إلى ملعب ثم إلى منشر للملابس، ثم إلى طريق عام يصل إليه السائر من داخل مقهى أو حانة أو مصنع للمسابح والخرز، وخير ما استعمل له هذا المسجد أنه صار متحفًا للفن العربي الذي ظل في العشرين سنة الماضية يشغل جانبًا من أروقته الشرقية التي احتفظت بنقوشها الكوفية وأروقته الجميلة القديمة، فصارت أنسب مكان تُدخر فيه هذه الكنوز النادرة من الفن العربي.

وعلى الرغم من البؤس الذي يبدو على صحن جامع الحاكم وما حوله من الجدران والأروقة المتهدمة، مازال يحتفظ بقسط كبير من أهميته، ويلاحظ أن الأروقة الشائعة في جميع المباني الفاطمية هي الفارق الوحيد الذي يميزها عن البناء الفارسي، ويعزى هذا إلى أن بناءه كان في أوائل عهد الفاطميين، وإلى محاكاة هذا البناء لجامع ابن طولون.

ومما يتميز به هذا المسجد مئذنته التي يطلق عليها عادة اسم مباخر لما لها من شكل عجيب انفردت به، ويلاحظ أن القواعد المربعة الثقيلة لا دخل لها ببناء المآذن الأصلية التي بني الجزء الأسفل منها من أحجار منتظمة الشكل عليها نقوش فاطمية. وقد تدع أبحاث هرتز بك وفان

برشم ما يدعو إلى الشك بأن الطوب الذي استعمل في المآذن يرجع إلى الإصلاح السريع الذي عمل في سنة ١٣٠٤م عقب حادث الزلزال الذي تقدمت الإشارة إليه، ذلك أن بيبرس لم يعن بإعادة بناء المآذن إلى الأسلوب القديم، ولكنه استعمل الطوب، وربما أحاط القاعدة وغطاها بمكعبات قبيحة الشكل خدعت كثيرًا من علماء الآثار في حقيقة شكل المآذن الأصلي، ولا يبعد أن يكون تاريخ هذه المكعبات راجعًا إلى العصر المتأخر الذي شاهد بناء أبواب المدينة. على أن بقايا المآذن الحجرية لها أهميتها، لأنها تمدنا بالدليل الوحيد على أن أسلوب بناء هذا النوع من المآذن يرجع إلى عهد الفاطميين لا إلى ذلك العهد الذي كتب فيه المقريزي، وذكر أن بناء المآذن من الأحجار لم يُعرف قبل عهد قلاوون أى قبل سنة ١٢٨٤، وهذه المآذن تشبه المآذن التي بنيت في آخر عهد المماليك، فهي تبدأ من أساس مربع يتحول إلى شكل مثمن «ذي ثمانية أضلاع»، وأخيرًا ينتهي إلى جزء أسطواني، أما من الداخل فكانت هناك درجات حلزونية الشكل تؤدي إلى نوافذ كان المؤذنون ينادون منها إلى الصلاة (١).

ويعتبر الخليفة الحاكم من أبرز شخصيات التاريخ المصري، ولو أن شخصيته متناقضة غريبة، حتى أن المؤرخين الذين كتبوا عنه كانوا في آخر الأمر يفسرون سلوكه بضعف قواه العقلية. وكان الحاكم ابن العزيز الوحيد، وكانت زوجته المسيحية التي كانت شقيقة اثنين من البطارقة، وذلك مصداق ما قيل من أن أقارب رجال الدين ليسوا أفضل من سائر الناس في أحوالهم العامة.

ولم يكن الطفل الصغير يدرك شيئًا عن الحكم حينما وجد نفسه يعتلي العرش طفرة واحدة وهو في سن الحادية عشرة، وكان قائده برجوان عبدًا صقليًا – مازال اسمه يطلق على إحدى الحارات التي لا تبعد عن بين القصرين – وكان يرتع ويلهو في قصر اللؤلؤة في بستان كافور بينما كان الجند من البربر والترك يتقاتلون في الشوارع.

وقد رأى الحاكم في صباه رجال الحرس من الأتراك يقدمون له رأس زعيم قواد البربر بعد أن انتصروا عليه، ولم يكن هذا إلا مقدمة لقتل نائب الملك نفسه، وبعد ذلك بأربع سنين قضاها الحاكم تحت وصاية ضعيفة، تسلم أمور الدولة وكان قد بلغ الخامسة عشرة.

وكلما بدا الخليفة الصغير أمام الشعب ظهر شذوذه وتناقضه، وكان وجهه الغريب وعيناه الزرقاوان المخيفتان تجعل الناس يهابونه، وكان صوته الأجش يجعلهم يرتجفون منه، وكان معلمه يسميه الحرذون «سحلية»، لأنه كانت له طريقة خاصة في التسلل بين الناس كما تفعل الحرذون، وكان مشغوفًا بالظلام، حتى إنه كان دائمًا يجمع مجلسه في الليل، وكثيرًا ما ركب حماره الأشهب وجاب به الشوارع يتجسس على الناس ليطلع على آرائهم وما تنطوى عليه نفوسهم تحت ستار التفتيش على الموازين والمكاييل في الأسواق حتى صار الليل نهارًا والنهار ليلًا، ذلك أنه أمر بمباشرة الأعمال ومزاولة التجارة ليلًا، فكانت تُفتح الحوانيت بعد غروب الشمس وتضاء المنازل.

وكان شديد الوطأة على من يسيء إليه، وقد حرم على النساء مغادرة منازلهن، وعلى الرجال الجلوس على المقاهي، ومنع صانعي الأحذية من أن يعملوا أحذية للنساء حتى لا يتمكنَّ من مغادرة المنازل. ولم يكن يُسمح لهن أن يقتربن من نوافذ المساكن أو الاختلاف إلى أسطح المنازل لاستنشاق الهواء، كما حرم على الناس التمتع بأنواع الطعام والشراب.

وكان الحاكم لا يشرب الخمر، شأنه في ذلك شأن كل مسلم يحافظ على تعاليم دينه، فقد حرم شرب الجعة وصادر النبيذ والخمور واقتلع الكروم ومنع تجفيف العنب وحرم أكل الملوخية، وجمع العسل وألقى به في النيل، ومنع لعب الشطرنج وأحرق لوحاته وقطعه، وأمر بقتل الكلاب كلما عثر عليها في الطرقات، وقلل من ذبح خيار الماشية إلا في عيد الأضحى.

وكان يعاقب كل من تسول له نفسه مخالفة أمر من الأوامر بالجلد أو بقطع الرأس، أو بالقتل بإحدى الطرق العديدة التي تفنن هذا الخليفة الغريب الأطوار في ابتداعها، وليس من شك في أن كثيرًا من هذه اللوائح والتعليمات قد أملته روح الإصلاح؛ غير أنها كانت روح مصلح مجنون. لقد كان الواجب أن لا يترك لنساء القاهرة المرحات، الحبل على الغارب يفعلن ما يبدو لهن، ولكن من كان يظن أن يكون السبيل إلى ذلك هو مصادرة أحذيتهن؟ أما تحريم الخمر ولعب الميسر وغير ذلك من وسائل التسلية، فقد كان صادرًا عن شخص متطرف في أمور الدين مبتعد عن

زخرف الحياة ومباهجها، رائده في ذلك العمل على رفع المستوى الخلقي في البلاد، غير مراعٍ ما جره ذلك من استياء رعاياه وسخطهم.

ولكن العس بالليل والأحكام التعسفية والقيود التي لا داعي لها كانت كلها تشير إلى عقل غير متزن، وإذا كان الحاكم يقصد الخير فقد كان الطريق إليه غريبًا غير مألوف، ومن الصعب علينا أن نسبر غور هذا الجنون أو أن نميط عنه اللثام، فقد كان المسيحيون في بادئ الأمر يتمتعون بقسط كبير من العدالة والتسامح، ولكن حول سنة ١٠٠٥م بدأوا يتعرضون لسلسلة من الاضطهادات والمضايقات، فقد اضطروا إلى لبس شارات مميزة لهم وملابس خاصة بهم، كما تعرضوا إلى مصادرة أملاكهم وهدم كنائسهم.

على أن المسلمين لم يكن حالهم أحسن منهم، فقد كان الوزراء من المسيحيين والمسلمين يُقتلون أو يُشنقون بلا تمييز أو تحقيق، حتى أن ابن جوهر القائد العظيم اغتيل داخل القصر، كما أن كثيرًا من الموظفين على اختلاف طبقاتهم قُتلوا أو عُذبوا لأتفه الأسباب.

ويقال إن أحد القواد المشهورين– بعد أن أخمد ثورة أقامت مصر وأقعدتها مدة عامين– حضر حين كان الحاكم يقطع طفلًا كان قد قُتل– فقد حياته جزاء إزعاج مولاه حين كان مشغولًا– كل هذا كان يحدث بينما كان الخليفة الشاب يشرف على تجميل مسجده (١) وإنشاء المعهد المعروف بدار العلم داخل حرم القصر الكبير، حيث كان المثقفون على

اختلاف آرائهم يجتمعون ويتناقشون في أي موضوع شاءوا، تغذيهم مكتبة قيمة.

وهذه الاجتماعات تذكرنا بالمصلى الذي بناه أكبر في أجرا، وليس هذا هو وجه الشبه الوحيد بين هذين الرجلين العظيمين، على الرغم من أوجه الخلاف العديدة بينهما، فقد سمح أكبر لنفسه أن يعبده الناس كأنه إله، ووصل الحاكم في النهاية إلى نفس النتيجة، وكان هذان الرجلان يتأثران بتعاليم الشيعة.

وليس ثمة ريب في أن جولات الحاكم الفردية فوق حماره الأشهب في تلال المقطم المقفرة، وتلك الليالي الطويلة التي كان يقضيها في المرصد فوق المنحدرات حيث كاد يرصد النجوم ويسبح في الأوهام، تدل على عقل تشبع بتعاليم الشيعة الغامضة، فقد كان في نظر نفسه الإمام الذي تقمصت فيه روح الله لتظهر للعالم الجاهل، وهو الوحيد المطلع على الأسرار الإلهية، ومن السهل أن ينتقل بعد ذلك إلى الاعتقاد بأنه إله.

لقد استغرق وصوله إلى هذه الدرجة أكثر من عشرين سنة، وساعده في ذلك بعض المتصوفين من الفرس، حقيقة لم ينجح هؤلاء الدعاة في نشر دعوتهم وإثبات ألوهية الحاكم، فإن الناس كانوا لهم بالمرصاد، فقد قتلوا واحدًا وذبحوا الآخرين الذين دنسوا مسجد عمرو بكفرهم، حتى إن الدرزي زعيم المذهب المشهور في جبال لبنان هرب من ثورة الأهالي والناس في إثره حتى دخل القصر ولم ينجه من أيديهم إلا تدخل الخليفة نفسه.

لم يقبل أحد التعاليم الجديدة التي كانت غير مقبولة في نظر السنيين، ولم يكن السواد الأعظم من الأهالي من الشيعيين المعتدلين، بل كانوا في الحقيقة سنيين من ذوي الآراء القديمة، وكانت مصر كلها تغلي، وكانت قاب قوسين أوأدنى من الثورة، إلا أن الجنود السود قاموا بأعمال وحشية، فنهبت الحاضرة القديمة واقتحموا الدور وأساءوا إلى النساء وأشاعوا الرعب والفزع في البلاد، فقُضي على الثورة في مهدها، وتجمع الرجال في المساجد يطلبون المعونة والرحمة.

وجاءت المعونة من مصدر لم يتوقعه أحد، ذلك أن القوات السودانية لما أسرفت في أعمالها الوحشية تعاون جند الأتراك مع البربر ضد السودانيين، لا رحمة بالأهالي ولكن لمجرد كبح جماح السودانيين، وفقد الخليفة الحاكم سيطرته على الجيش ونفر منه نساء القصر، إذا كان قد طعن في شرف أخته، التي أبت أن تقف إلى جانبه وتدرأ عنه الأخطار، وتآمرت عليه، فبينما هو في إحدى جولاته على تلال المقطم يسير في غير مبالاة ولا اكتراث كما جرت عادته، إذا به يلقى مصيره في اليوم الثالث عشر من شهر فبراير سنة ١٠٢١م، وقد وُجد الحمار الذي كان يركبه والملابس التي كان يرتديها وعليها آثار الطعنات التي لا شك في أنها قضت عليه، غير أنهم لم يقفوا على أثر لجثته، وظل الناس ردحًا طويلًا من الزمن يتوقعون عودته في خوف ووجل كما يفعل الدروز في لبنان إلى اليوم.

وبعد زوال ذلك الكابوس المروع، كانت القاهرة في حاجة إلى الراحة والاستقرار، وقد تحقق لها ذلك بعد فترة من الزمان، فقد أعقب الحكم العسكري القاسي فترة حكم فاسد على يد عصابة من رجال البلاط، ثم حدثت في سنة ١٠٢٥ مجاعة دفعت بالشعب الجائع إلى قطع الطرق، وأرهقت ميزانية الدولة، وسلك عبيد القصر سبيل التمرد والعصيان، وأعلنت سوريا الثورة، كل ذلك والخليفة الجديد – الظاهر ابن الحاكم – يلهو مع المغنين والراقصات، غير أن حسن طالع الفاطميين لم يكن قد فارقهم بعد، حيث هدأت أحوال البلاد نسبيًا، فقد جاء وفاء النيل في مواعيده تباعًا، ونشط عامل سوريا في قمع الثورة هناك، وهدأت حركات الجند بعد أن اختفت الحزازات بين عناصرها، وشهدت مصر ربع قرن من الهدوء والاستقرار.

وكان الوادي «مصر» هو كل ما بقي للفاطميين من أملاكهم، فقد انسخلت بلاد البربر عنهم في سنة ١٠٤٦م، وانتهى سلطانهم على البحر الأبيض المتوسط إلى الأبد، ولم يكن يربطهم بسوريا إلا قوة السلاح.

وأما بلاد العرب من المدينة إلى اليمن وحضرموت، فعلى الرغم من أنها كانت تخضع للخليفة في مصر، كان أميرها الشيعي يكاد يكون مستقلًا، ولم يكن يذكر اسم الخليفة الفاطمي في صلاة الجمعة في بغداد مدة أربعين أسبوعًا في سنتي ١٠٥٨و١٠٥٩م راجعًا إلا إلى الدسائس السياسية في أراضي الخلافة الشرقية وليس بسبب قوة الخلافة الفاطمية.

وعلى كل حال، لم يكن هناك ما يقلق الفاطميين في مصر؛ فقد اعتلى الخلافة في سنة ١٠٣٦م طفل صغير يبلغ من العمر ثمانية أشهر، يدعى المستنصر، الذي استطاع – دون أن يكون له أي نفوذ–أن يحتفظ بالخلافة حتى سنة ١٠٩٤م، وقد اقترنت هذه الفترة الطويلة منذ أن اعتلى العرش – ولا يصح أن نقول منذ أن حكم – بالسعادة والبؤس. وعلى الرغم مما كان لوالدته السودانية من أثر سيئ، إذ جلبت من أبناء جلدها كثيرًا من ذوي البطش الذين ارتكبوا كثيرًا من الأعمال الوحشية لإحداث الرعب والفزع بين سكان الحاضرة وإرهابهم– على الرغم من ذلك، ساد هذه البلاد عهد من الاستقرار والهدوء في أواسط القرن الحادي عشر لم تره إلا نادرًا.

يدل على ذلك ما كتبه ناصر خسرو بين سنتي ١٠٤٧ و١٠٤٩م، حيث قال إن مصر عامة كانت في ذلك الوقت في بحبوحة من العيش وإنها كانت في هدوء واستقرار لم تشهده من قبل (١)، وكان الخليفة المستنصر محبوبًا من الشعب، ولم يكن أحد يخشى سلبًا أو تعديًا في ظل حكومته، ولقد ساد الأمن والنظام في وقته، حتى أن تجار الجواهر والصيارف لم يكونوا يحفلون بإغلاق حوانيتهم، إذ كانوا لا يخشون عليها من اللصوص، وكان في القاهرة وحدها ما يربو على عشرين ألف متجر كانت كلها ملكًا خالصًا للخليفة، وكان إيجار كل منها في الشهر يتراوح بين دينارين وعشرة دنانير.

وقد قيل إنه كان يمتلك عشرين ألف منزل، يبلغ ارتفاع أحدها خمسًا أوست طبقات، وكان إيجار أحدها في المتوسط يبلغ أحد عشر دينارًا في الشهر «أى سبعين جنيهًا في السنة»، وكانت الدور مُحكمة البناء، مبنية بالحجر لا باللبن، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة. ولم يكن هناك أسوار للمدينة «إذا كان السور القديم قد تهدم ولم يكن الثاني قد بني إلا بعد أربعين سنة من ذلك الوقت»، غير أن المنازل المرتفعة كانت في حد ذاتها- كما يقول الرحالة- كالحصون في مناعتها، وكل قصر منها حصن منيع.(١)

وكانت المسافة بين القاهرة ومصر تبلغ ميلًا في طولها، وكانت الساحة التي تغطيها الحدائق والمنازل الريفية عرضة لأن تطغى عليها مياه الفيضان فتبدو كالبحر.

ولقد شهد الرحالة الفارسي ناصر خسرو أحد الاحتفالات التي تقام في مصر كل عام، وهي الاحتفال بوفاء النيل أو جبر الخليج، فقد كان يحتفل به بحضور المستنصر نفسه، وفي ركبه عشرة آلاف فارس يمتطون الخيول المطهمة الملجمة، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب، والأحجار الكريمة، المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة، ويلي هؤلاء صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة، وكذا كانت عدد البغال عليها من الزينة والجواهر شيء كثير، وكانت فرق الجنود تسير فصيلة تلو فصيلة، ميممين فم الخليج، وتتكون جنود البربر من قبيلة كتامة، وكان عددهم ٢٠٠٠٠ وهم من سلالة أبطال المعزل، ومن المغاربة

١٥٠٠٠، ومن المصامدة ٢٠٠٠٠، ومن الأتراك والفرس وهم المشرقيون ولو أنهم ولدوا في مصر ١٠٠٠٠، ومن بدو الحجاز ١٥٠٠٠، ومن السودان ٣٠٠٠٠ (٢)، ويلي كل هؤلاء الأرقاء والحجاب والموظفون على اختلاف مراتبهم، والشعراء والأطباء والأمراء من مراكش واليمن، وأمراء النوبة والحبشة وآسيا الصغرى والقوقاز وتركستان، حتى الأمراء من أبناء سلطان دهلى، وكانت أمهم تقيم في القاهرة إذ ذاك.

وكان الخليفة شابًا في مقتبل العمر، بهي الطلعة، حليق اللحية، يرتدى كساءً طويلًا ناصع البياض، وكان يمتطي بغلة عارية من كل ما يزينها، يسير في ركابه ثلاثمائة من الديلم ، حاملين المعاول مرتدين الحلل السندسية المصنوعة في بلاد الروم.

ويسير إلى جانب الخليفة أحد كبار الدولة يحمل مظلمة الخليفة (١)، ويحف بها خصيان يطلقون البخور، وكان الناس إذا مر الخليفة سجدوا له إكبارًا وإجلالًا، حتى يصل إلى الفسطاط المصنوع من الحرير الذي أقيم له عند فم الخليج.

فإذا ألقى الخليفة عصاه على السد، قام الجميع بمعاولهم، حتى تنساب مياه النيل في الخليج، ومن ثم يهرع الناس للتنزه في زوارقهم في النهر فرحين جزلين، يتقدمهم زورق يحمل جماعة من الصم والبكم تيمنًا وتفاؤلًا.

كان الرحالة ناصر خسروا حسن الحظ بزيارة مصر في ذلك الوقت، إذ أن البلاد تعرضت بعد مدة وجيزة من زيارته إلى شر مستطير، فقد قامت بها أعمال السلب والنهب، وواجهت من أسباب الخراب ما واجهته لأول مرة منذ إنشائها منذ قرن من الزمان (٢).

ولقد استطاع الوزير الكفء اليازوري أن يسيطر على جميع الأحزاب ويقضي على الخلافات الحزبية، كما أنه بذل جهودًا موفقة في تخفيف وطأة المجاعات المتكررة، وربما كانت خرائب مخازن الغلال الكائنة في مصر القديمة والمعروفة باسم مخازن يوسف، هي المخازن التي كان يستعملها اليازوري لحفظ ما يسد حاجة البلاد في أيام القحط، إذ لم يكن في ذلك العهد رجال من أمثال ولككس وسكوت منكريف، لوضع تصميم القناطر والخزانات التي تخضع النيل لخدمة الفلاح الفقير، فإن مياه النيل كانت في أيام الفيضان إذا لم تصل إلى ارتفاع خاص من مقياس النيل بالروضة – وهو الذي كان يُطلق عليه اسم ناكر ونكير– تحدث المجاعة ويصحبها الوباء، وكثيرًا ما كانا متلازمين، وبعد انتشار القحط تحل الفوضى وتكثر الجرائم.

وقد أبعدت مخازن اليازوري الخطر عن الحاضرة بعض الوقت، ولكن بعد أن مات هذا الوزير بالسم في سنة ١٠٥٨م، لم يبق هناك من يستطيع منع الاختلافات والسيطرة على الأحزاب، وهل أدل على عدم الاستقرار من تعاقب أربعين وزيرًا في الحكم في فترة لا تتجاوز تسع سنوات؟

وكان الخليفة يستمع إلى نصيحة كل من يتقدم إليه، حتى أصبح صغار القوم ومن لا رأي لهم يغشون مجالسه، أما الحكام الحقيقيون فكانوا هم الأجناد التركية الذين تحالفوا مع جنود البربر، وطردوا الجنود السودانية من القاهرة وطاردوهم إلى الصعيد، حيث عاثوا فيها وأدخلوا الرعب إلى قلوب أهلها حتى ترك الفلاحون مزارعهم وأراضيهم.

ثم غدر الجنود الأتراك بالبربر وطردوهم من القاهرة، فهاجر البربر إلى الوجه البحري وتعمدوا إفساد نظام الري لنشر القحط بين الفلاحين، أما الجنود التركية فقد كانت السلطة في القاهرة في يدهم، ينهبون ويسلبون، ويجردون قصور الخلفاء مما فيها، فبددوا المجموعات الفنية التي لا تقوم بمال (١) والأحجار الكريمة والمجوهرات.

وأمعن من هذا الإجرام بعثرتهم محتويات المكتبة النفيسة التي لم يكن لها نظير والتي كانت تحوي ضمن ما تحويه مائة ألف مخطوط لا يزال المستشرقون يجدون في البحث عن بعضها، ولقد استخدم هؤلاء العابثون تلك الكنوز الثقافية النفيسة في رتق أحذيتهم وفي إشعال النيران، بل كانوا يلقون بها فوق أكوام القاذورات.

ولما أصبحت مصر العليا والسفلى في قبضة جند السودان والبربر، انقطعت المؤن عن الحاضرة وبدأت المجاعة الكبرى في سنة ١٠٦٦م واستمرت سبع سنين، قاست منها مصر الأمرين، وأصبحت على شفا الخراب، وظل الجنود المسرحون يلقون الرعب في قلوب الفلاحين

ويشلون حركتهم في أعمال الزراعة، ولم يكن هناك من يخفف من سوء الحالة الناشئة عن انخفاض النيل أو من يقوم ببذر حبوب العام التالي.

وبانقطاع استيراد المؤن العادية إلى القاهرة ومصر، أحس الناس في هاتين المدينتين بالضيق والحرمان، ومسهم الضر، حتى أن ثمن الرغيف بلغ ثمانية جنيهات والمترل يستبدل بربع من الدقيق، والنساء يلقين بمجوهراهن النفيسة لأهن لم يجدن من يأخذها مقابل شيء من الطعام، وكانت الخيل والكلاب والقطط تباع بأثمان فادحة ويقبل الناس على التهام لحمها، وسرعان ما عدمت أمثال هذه الحيوانات حتى لم تبق في المدينتين دابة تذبح، وقد أقفر إسطبل الخليفة، حتى أن خدمها الجياع لم يبق عندهم إلا ثلاثة أفراس هزيلة عجاف، وبدأ الناس يخطفون بعضهم ليسدوا رمقهم، وبيع لحم الإنسان عند القصابين.

ثم أعقب ذلك وباء حصد الأرواح بمنجله حصدًا ذريعًا، واكتسح الديار دارًا بعد دار لا فرق بين غنى وفقير، حتى أن السادة المترفين كانوا يعرضون أنفسهم في الحمامات العامة لقاء كسرة من الخبز، أما الخليفة فكان مدينًا بحفظ حياته لابنة أحد الفقهاء بما كانت تقدمه له من الطعام، إذ كانت تجري عليه رغيفين في كل يوم، بعد أن سلبه الأتراك ما عنده وهجرته حاشيته وفرت زوجته وبناته إلى بغداد خوفًا من الطاعون.

ولم يحدث أن مر بمصر في حياقا كلها مثل تلك السنين السبع العجاف، غير أن لكل شيء هاية، فقد جاء محصول سنة ١٠٧٣م وفيرًا، وقُتل قائد الجنود التركية وقطعت جثته إربًا، ثم منَّ الله على البلاد بوزير

خطير في سنة ١٠٨٤م فأنقذ الدولة من الدمار– ذلك هو بدر الجملي الذي أرسل إليه الخليفة يستدعيه في محنته.

وكان بدر أرمينيًا، ولكنه لم يكن مسيحيًا، وقد نشأ نشأة مملوك، ثم رفعته عبقريته إلى أعلى المناصب، فكان واليًا على دمشق ثم عكاء. وكان بدر هذا رجل الساعة، وقد حدث أن دخل على الخليفة، والمقرئ يتلو بين يديه: «ولقد نصركم الله ببدر» (1)، فتفاءل الخليفة وقاطع المقرئ ولم يتركه يتم قراءته، وقال: "ألا لو قلت بعد هذا شيئًا لقطعت رأسك".

لم يتوان القائد العظيم في التخلص من طائفة الأتراك فأعمل في قوادهم القتل ونجى مصر من عهد الإرهاب.

وقد قلده الخليفة قيادة الجند، ومنصب قاضي القضاة وداعي دعاة الشيعة، وصار رب السيف والقلم، وما لبث أن أعاد الأمن إلى الحاضرة، ثم وجه همته إلى الأقاليم، فأخضع البربر والسودان والعرب وأعمل فيهم السيف حتى ساد الأمن في كافة البلاد من الإسكندرية إلى أسوان.

وقد بدأ الفلاحون– بعد أن عاد إليهم الأمن والطمأنينة – في فلاحة أراضيهم مرة أخرى، فزادت موارد الدولة بسرعة واستردت البلاد خلال عشرين عامًا نشاطها وحيويتها.

والواقع أن القاهرة قد استفادت إلى حد بعيد من تلك السياسة الرشيدة التي اتبعها ذلك الأرمني العظيم – بدر الجمالي – فقد كان التجديد في مبانيها قد وقف منذ أن بنى العزيز قصره الغربي ومنظرة

اللؤلؤة قبل قرن من الزمان، ولو أن الحاكم أتم بناء مسجده الأول، وبناء دارالعلم، أما المستنصر فكان يفضل منظرته التي بناها في هليوبوليس على مثال بناء الكعبة الشريفة بمكة، وأنشأ بجوارها بركة من خمر متمثلًا فيما عمل ببئر زمزم حيث كان يطيب له أن يتهكم على الحجر الأسود وعلى مياه البئر الآسنة بما لم يجرؤ عليه رجل من المسلمين.

وما إن بدأ بدر الجمالي عهده حتى سمعت أصوات آلاف البنائين، وكان لابد من تحصين القاهرة لتأمن شر تمرد الجند وعصيانهم كما حدث من قبل، وكان السور القديم المبني بالآجر قد هُدم في الوقت الذي اتسعت فيه رقعة المدينة لامتدادها خارج الأسوار التي بناها جوهر، فهدمت الأبواب وأعيد بناؤها بالحجارة بين سنتي ١١٨٧ و١١٩١م بحيث ضمت بينها مساحة أكبر من مساحة المدينة القديمة؛ من ذلك الحي اليوناني في الجنوب الذي دخل في نطاق المدينة، وبني سور جديد من الآجر قام صلاح الدين الأيوبي بتوسيع مساحة الأرض التي يضمها، ولكن أسوار بدر الجمالي مازالت باقية إلى الآن، وتصل باب النصر بباب الفتوح من جهة الشمال وتمتد إلى طابية على مسافة ثلاثمائة وثلاثين قدمًا غربي باب الفتوح، وإلى زاوية شرق باب النصر ما يقرب من مائتي قدم، كما توجد قطعة أرض أخرى مما حوته هذه الأسوار بين المنازل التي تقع على مقربة من باب زويلة، كما كانت هناك قطع أخرى من تلك القطع التي كانت في داخل الأسوار حتى سنة ١٨٤٣م غربي الأزبكية.

ولم يطرأ على الأبواب الثلاثة الكبيرة تغيير يذكر إلا ما كان منها خاصًا بأبراج باب زويلة، حتى اقتطع منها قليلًا بحيث يسمح لمآذن مسجد المؤيد الذي بنى في القرن الخامس عشر بالظهور، وهذه الأبواب هي في الحقيقة أروع آثار الفاطميين إلا أنها بيزنطية وليست عربية.

ويقول أبو صالح الأرمني إن راهبًا قبطيًا يقال له حنا هو الذي قام بعمل الأسوار والأبواب للوزير الأرمني، غير أنه مهما يكن ما قام به هنا في تصحيح الأسوار أو الأبواب، فإنه لا يمكن أن يكون هو المهندس الذي وضع رسم هذه الأبواب التي أقيمت على الطراز النورمندي (١). وعلى ذلك فإن المقريزي كان على حق في نسبتها إلى ثلاثة إخوة من أهالي الرها، وهي مدينة يكثر فيها الأرمن وكان من الطبيعي أن يلجأ إليها بدر الجمالي – وهو الخبير بسوريا– للبحث عن المهندسين الذين يحتاج إليهم، وقد بنى كل واحد منهم بابًا.

ومما يؤيد صحة هذا القول أن هذه الأبواب بنيت على الطراز المعروف بالسوري البيزنطي، وأنها تحمل شواهد كثيرة من أساليب العمارة البيزنطية، وعلى الجملة، فإن أبواب القاهرة وأسوارها، كما ذكر فان برشم، بُنيت على مثال فرسان المعبد– تمييزًا له عن الطراز الفرنسي– في الهندسة العسكرية، وهو طراز فرسان المعبد البيزنطي العظيم الذي يمكن أن تتبع خصائصه في مختلف البلدان والعصور في القسطنطينية ونيقية وبروسة، وفي الحصون العربية القديمة في شمال سوريا، وفي العصور التي تلت الحروب الصليبية في أسوار بيت المقدس.

وأهم ما يميز هذا الطراز من البناء هو الأبراج المربعة ونوافذها المربعة أو المستديرة التي تختلف عن الطراز الفارسي ذي الأقواس، وهو ما بنيت على غراره المساجد الفاطمية والأبراج المستديرة الموجودة في سور صلاح الدين، ويتراوح سمك الجدار فيها بين أحد عشر وثلاثة عشر قدمًا، وتقع فيه حجرات الرماة بالقوس وآلات الدفاع الأخرى، وتتكون هذه الأبواب من فتحة مقنطرة سقفها المقوس مستدير، وعلى جانبيها أبراج أعدت بها أماكن الرماة بالقوس أو بإلقاء الأحجار، ويتصل بعضها ببعض بطرقات فوق قنطرة الباب.

ومما يزدان به باب النصر، درجات حلزونية بديعة الشكل وأفاريز رائعة الصنعة، ودروع منقوشة وكتابات كوفية جميلة (١) تمثل عقيدة الشيعة، شأنها شأن كتابة مماثلة على باب الفتوح، على أنها بقيت ثمانية قرون دون أن تمحوها الحكومات السنية التي حكمت مصر في هذه المدة، والخلاصة أن الأبواب الثلاثة الكبيرة هي أثر رائع لأحد وزراء القاهرة العظام في العصر الوسيط، وقد أفادت مصر كثيرًا من حكم الأرمن مدة ستين عامًا.

ومات بدر الجمالي في سنة ١٠٩٤، وهي السنة التي مات فيها الخليفة المستنصر، ولكن الأفضل خلف أباه بدر الجمالي في منصبه وظل على ذلك حتى أمر الخليفة الآمر بقتله في سنة ١١٢١م. وفي سنة ١١٣١م كان أبو علي بن الأفضل يحكم نيابة عن الخليفة المنتظر، وهكذا

نرى العودة إلى نظرية الشيعة القديمة التي تقول باختفاء الإمام متجاهلين بذلك حقوق الفاطميين.

ولما قُتل أبو علي بن الأفضل وهو في طريقة إلى ملعب الكرة «بولو»، تقلد الوزارة يانس أحد عبيد الأفضل، ثم خلفه بهرام الأرمني المسيحي حتى سنة ١١٣٧م، وقد أدى نفوذ الأرمن المتزايد إلى حصر المناصب الرئيسية في مختلف دواوين الحكومة في أيديهم، وكان لهذا رد فعل طبيعي أدى إلى طرد بهرام وألفين من بني جلدته، وزال نفوذ الأرمن بعد أن خدموا البلاد خدمات جليلة وحكموا حكمًا يتسم بالعدل وبُعد النظر واتساع الأفق.

ولا شك في أن بدر الجمالي وابنه قد أسديا إلى مصر خدمات جليلة، ولئن قيل إنهما جمعا ثروة طائلة – إذ بلغ ما جمعه الأفضل ثلاثة ملايين من الجنيهات، وبلغ دخله من بيع ألبان ماشيته خمسة عشر ألفًا وسبعمائة وخمسين ألفًا من الجنيهات – فإن آل الجمالي قد جمعوا ثروتهم بجدهم وذكائهم، وكان العدل والكرم من شيمتهم، أما سياستهم نحو القبط فقد لهجت الألسنة بالشكر والثناء عليها.

ومع أن أبا علي أحيا تلك النظرية الشاذة الخاصة بالإمام المختفي الذي نُقشت صورته على النقود، فقد ورث عن أبيه وجده صفاتهما الطيبة وتسامحهما إزاء المسيحيين، وأظهر اعتدالًا، كما كان صديقًا لهم ونصيرًا للعلم.

وسوف نرى أنه منذ عهد وزارة بدر الجمالى أصبحت مصر لا يحكمها الخلفاء، وإنما يحكمها الوزراء، وهذا يشبه النظام الميروفنجي الذي كان عماده ناظر السراي أو القهرمان (١).

والواقع أنه منذ عهد الحاكم الذي اتسمت سياسته بالاستبداد، لم يحاول أى خليفة أن تكون له سلطة مباشرة في شئون الدولة، اللهم إلا الخليفة الآمر الذي حاول أن يكون وزير نفسه بمساعدة الراهب ابن كنة، غير أن هذه التجربة قد أخفقت، فقد تملك الراهب الزهو والغرور، وأمر الخليفة بقتله، فضُرب بالسياط حتى مات. ولما كان الآمر قاسيًا كرهه الناس ولم يلبث أن قتله أحد الإسماعيلية وهو في طريقه من الهودج، وهو المترل الريفي الذي بناه في جزيرة الروضة إرضاءً لميول زوجته البدوية، وكان ذلك في سنة ١١٣٠م، ولم يكن له أثر إلا بناء المسجد الأقمر بين القصرين.

ومنذ مقتل الآمر نزل الخلفاء عن السلطة للوزراء الذين أصبحوا هم أنفسهم أداة تحركها الأحزاب العسكرية.

أما التقشف والعزلة التي نادى بها الفاطميون من رجال الدين، فقد كانت لا تزال تراعى في ذلك الوقت كما ذكرنا في وصف الفارسين اللذين أرسلهما عموري، ملك بيت المقدس، غير أنه يجب أن نعرف أن ذلك التبجيل والاحترام الزائد قد صارا أقرب إلى الهزل منه إلى الجد، فإن قتل الآمر والظافر، وحبس الحافظ، وقتل الوزير الشاعر رضوان أمام مسجد الأقمر على يد حراسه السودانيين المدمنين على الخمر، ودس

الخليفة السم لابنه على يد طبيبه المسيحي، ومنظر سفك الدماء المروع في القصر حيث عرض الطفل الفائز أمام رجال القصر بصفته إمامهم الروحي، وهم يرتجفون من الخوف والفزع (١)- كل هذا لا يدل على أى احترام حقيقي لخلافة الشيعة الغامضة.

وقد عرفت بغداد الخلفاء الذين لا سلطة لهم منذ عهد طويل، وكان منافسوهم على ضفاف النيل أيضًا أشباحًا لمجد غابر.

وكان الرعب الذي حل بالبلاد أخيرًا أكثر مما يحتمله سكان القاهرة الذين طالما قاسوا الشدائد واحتملوها؛ فإن قتل الخليفة الظافر بعد قتل الوزير الكردي ابن السلار بفترة وجيزة، والمذبحة المروعة التي حدثت في القصر، والجرائم التي تمت بتدبير الأقرباء والندماء، والوحشية التي انطوى عليها عرض الخليفة الطفل وهو في سن الرابعة وسط جو من الرعب والهلع- لا شك أن ذلك كله قد أثار روح الانتقام.

وسرعان ما هرب الوزير الجديد عباس ورجمه الأهالى بالحجارة حتى قُتل بالقرب من البحر الميت، أما نصر، وهو القاتل، فقد ألقى جماعة فرسان المعبد القبض عليه وسلموه إلى نساء القصر لقاء مبلغ ثلاثين ألفًا من الجنيهات؛ فقمن بتعذيبه وقطع أوصاله وسمل عينيه، وبُعث ليشهر به في شوارع القاهرة ثم يصلب على باب زويلة.

وكانت النساء قد أرسلن في أثناء اشتداد المحنة بهن خصائل من شعورهن إلى والى الأشمونين في صعيد مصر يستنجدون به، فلبى طلائع بن

رزيق نداءهن في سنة ١١٥٤م، وركب إلى القارة وهو يلوح بتلك الخصائل، وفي ركابه تابع عربي واحد، وتسلم الوزارة في دار المأمون (٢) فاستعادت الحاضرة ثقتها.

وكان طلائع قد تشبه بالوزراء المحدثين، فاتخذ لقب ملك، ولقب نفسه الملك الصالح، ويعد طلائع هذا آخر دعامة للدولة الفاطمية المتداعية.

وكان طلائع رجلًا مثقفًا شاعرًا واسع الإدراك، كريمًا متواضعًا، يتعهد الأمور في كياسة وحكمة، ويدل مسجده الذي لايزال بالقرب من باب زويلة، على تقواه وسماحته، كما يدل على ما بذل من جهد في سبيل تجنيب مصر العواصف التي كانت تتركز في سوريا وفلسطين نتيجة الارتباكات السياسية، إلا أن نساء القصر وجدن أنهن قد استدعينه لإنقاذهن، ولكنه كان مؤدِبًا قاسيًا، فنسين فضله ودبرن أمر مقتله، وكان آخر ما قال إنه آسف لعدم غزو بيت المقدس واستئصال شأفة الفرنجة، وحذر ابنه من شاور العربي أمير الصعيد، وكان على حق في نصحه، لأن شاور عزل رزيق «ابن الوزير» ثم قتله في مستهل سنة ١١٦٣م، ولم يمض عام حتى كان ملك بيت المقدس المسيحي في مصر.

وقبل أن ننتقل إلى غزو الصليبيين للقاهرة وإلى وصول صلاح الدين الأيوبي إليها وانتهاء حكم الفاطميين بموت العاضد آخر خلفائهم – يجمل بنا أن نذكر شيئًا عن بقايا المدينة التي خلفتها تلك الدولة الفاطمية وهيأت لها كل عوامل الفخامة والأبهة التي لا مثيل لها، إذ لم يبق

مما شيد من الأبنية التي تشهد لهذه الدولة بالعظمة سوى الأبواب الثلاثة العظيمة وجانب من الأسوار وبقايا أربعة مساجد (١). أما القصور فقد عفت آثارها، ذلك أن الذين خلفوا الفاطميين لم يستعملوها، فتهدمت على مر السنين ورثاها الشاعر عمارة اليمني في سنة ١١٧٤م، كما تهدمت دار العلم ودار المأمون ودار الوزارة وغيرها من قصور الخلفاء الفاطميين وحاشيتهم، ولم يكن ذلك نتيجة تخريب أو تدمير متعمد، ولكنه كان نتيجة إهمالها وعدم موالاتها بالتعمير حتى تداعت من تلقاء نفسها.

ومن بين الآثار الباقية نجد أن أقدمها وأصدقها شاهدًا على عظمة الفاطميين هو جامع الحاكم، ذلك أن الأزهر لا يحتفظ إلا بالقليل من بنائه الأصلى وزخرفته القديمة، يتلوه جامع الأقمر الذي بناه الخليفة الآمر بين القصرين، وهو أول مسجد بني من الحجر، إذ كانت جميع المساجد من قبل تُبنى بالآجر. على أن واجهته فقط هي التي بنيت من الحجارة، وكانت منتظمة الشكل جميلة النقش، أما الأروقة الداخلية فكانت من الآجر وأعمدتها من الرخام. وعلى صغر حجمه وتهدمه، فإنه من بين المساجد الفاطمية يتميز بواجهة جميلة تختلف كثيرًا عن الواجهات العادية البسيطة للمساجد الأخرى، ومما يسترعي الاهتمام جمال النقوش التي زُينت بها فجوة المحراب والكتابة الكوفية والنقش الذي يزين المشكاة الجانبية وما يجاورها من الأفاريز.

ومن هذه النقوش، اثنان يحملان اسم الخليفة الآمر، ويرجع تاريخهما إلى سنة ٥١٩هـ «١١٢٥م» وهو تاريخ بناء المسجد، كما أن هناك نقشين آخرين يسجلان إعادة البناء على يد الأمير يلبغا السلمى

سنة ٧٩٩هـ «١٧٩٦م». ومن حسن الحظ لم تؤد إعادة بنائه إلى تغيير كبير فيه، وعلى الرغم من أن مسجد طلائع بن رزيق في ١١٦٠م بالقرب من باب زويلة قد تهدم، إلا أنه يرينا تقدمًا ملحوظًا في فن النقش إلى حد أننا لا نرى بين النقش العربي شيئًا أبدع من هذا في أى مسجد بُني بعد ذلك التاريخ.

وهناك أمثلة عديدة في دار الآثار العربية تصور لنا في جلاء قوة الفاطميين وبراعتهم في فن النقش، نخص بالذكر منها تلك الأبواب المبينة بالصفائح الرقيقة كالورق من أيام الحاكم والمحاريب الثلاثة، وقد أُخذ اثنان منها من الأزهر ونقش عليهما ما يفيد بأنهما صنعا على يد الخليفة الآمر في سنة ١١٢٥م، والثالث أخذ من ضريح السيدة رقية، ويرجع تاريخه إلى سنة ١١٣٥م، ويحوي نقوشًا هندسية معقدة بين الزخرف العربي والكوفي.



جامع الجيوشي

ومن سوء الحظ أن العقائد المخالفة للسنة، ولو أنها قد عملت على تشجيع النواحي الفنية، إلا أنها في الوقت نفسه كانت السبب في هدمها وإزالتها، إذ لو لم يكن الفاطميون مغالين في معتقداتهم الدينية، لأبقى من جاء بعدهم من الحكام السنيين على هذه القصور الجميلة وتلك التحف النادرة، ولما تحمس مخالفوهم في العقيدة لإزالة كل أثر من الآثار التي قضوا عهدهم في تشييدها، مما كلفهم أموالا طائلة ومجهودات فنية عظيمة.

الباب السادس

قلعة صلاح الدين

عوامل غزو مصر– الأتراك والصليبيون– شاور وضرغام– عموري وشيركوه في مصر– صلاح الدين يتقلد الوزارة – عزله الخليفة الفاطمي – حروب صلاح الدين– أعمال صلاح الدين في القاهرة – الأسوار الجديدة – القلعة– الثورات في القاهرة – رأس الحسين– صلاح الدين يشيد المدارس السنية – أقوال ابن جبير– المستشفيات – خصائص المستشفيات والمساجد– أثر إحياء المذهب السني وتشجيع العلم.

كانت القاهرة في مستهل القرن الثالث عشر الميلادي، مدينة تختلف تمام الاختلاف عنها يوم أن كانت مقرًا للفاطميين، ذلك أنها صارت أوسع رقعة، وكانت تحوي عددًا من المباني الجديدة ذات صبغة لم تعرفها مصر من قبل، كذلك كان بها قلعة.

وكل هذه التغييرات يرجع الفضل فيها إلى صلاح الدين الأيوبي، ولو أنه لم يعش حتى يراها وقد تم تشييدها، وإذا أردنا أن نتتبع في شيء من التفصيل الأسباب التي أدت إلى غزو مصر على يد ملك بيت المقدس الصليبي ثم طرد الفرنجة على يد جيوش نور الدين سلطان دمشق، لخرجنا بذلك عن الموضوع الأصلي الذي نكتب فيه، غير أن أهم العناصر في

الموقف السياسي يتلخص في تقسيم سوريا بين قوتين جديدتين متعاديتين: الصليبيين والأتراك السلاجقة، فإن تسرب القواد الأتراك إلى خلافة بغداد أدى إلى غزو كبير بقيادة السلاجقة الذين لم يكتفوا في أواسط القرن الحادي عشر بإخضاع بلاد فارس وبلاد الموصل واتخاذ الخلافة العباسية آلة في أيديهم، بل غزوا أملاك الفاطميين في سوريا، وكانت قبضتهم عليها ضعيفة في كل وقت. وقد استولوا على دمشق في سنة ١٠٧٦م، ولم يمنعهم من غزو مصر نفسها سوى ما أقامه الوزير الأرمني بدر الجمالي من الاستحكامات الحربية والرشوات التي كان يقدمها لهم.

لقد تفككت الدولة السلجوقية في أواخر ذلك القرن، ومع ذلك لم تكن سوريا تحت قيادة الأنابك زنكي وابنه نور الدين بأقل خطرًا على الفاطميين من الدولة السلجوقية الموحدة.

وفي الوقت نفسه جد عامل زاد السياسة السورية تعقيدًا، فقد بدأت الحملات الصليبية وأعاد المسيحيون بيت المقدس في سنة ١٠٩٩م وأقاموا هناك مملكة لاتينية، وبدأت جيوش الفاطميين تتقهقر نحو الجنوب، وحاول الأفضل بن بدر الجمالي أن يتفاوض مع الصليبيين، فلما أعياه ذلك حاربهم ردحًا من الزمن في فلسطين، ولكنه لم يستطع رد الصليبيين أو إيقاف تقدمهم فسقطت طرابلس في سنة ١١٠٩م، وصدر في سنة ١١٢٤م، وقاومت عسقلان وهي آخر معاقل الفاطميين مدة طويلة ولكنها استسلمت في سنة ١١٥٣م.

وأصبح الصليبيون على الحدود المصرية، وقطعت حصونهم في الكرك وفي منتريال الواقعة عند البحر الميت مواصلات الفاطميين مع سوريا، ولم تكن إحدى المملكتين: اللاتينية في بيت المقدس وسلطنة دمشق التركية، من القوة بحيث تستطيع أن تسحق الأخرى، فكانت مصر هي القوة المرجحة، فإذا استطاعت إحدى القوتين الاستيلاء على النيل، تمكنت من مهاجمة منافستها وكتب لها الفوز.

وكان طبيعيًا أن تتآلف المملكتان الإسلاميتان في دمشق والقاهرة، ولكن اختلاف المذاهب الدينية وقف حجر عثرة في سبيل هذا الائتلاف، إذ كان نور الدين سنيًا متحمسًا لمذهبه لا يطيق موالاة دعاة الشيعة، ولم يشجع المفاوضات التي فاتحه فيها الوزيران ابن السلار وطلائع، وبقي بعيدًا عن مصر، حتى رأى جيش الصليبيين في القاهرة، وحينئذ فقط رضي أن يرسل جيوشه لمساعدة مصر.

وكان سبب هذا التدخل أن الوزيرين شاور وضرغام كانا يتنافسان على ما بقي للفاطميين من سلطان، فلما تغلب ضرغام على منافسه شاور وطرده من الوزارة، استنجد هذا الأخير بنور الدين، أما ضرغام فقد تحالف مع عموري ملك بيت المقدس الذي كان قد قام فعلا بغزو مصر ليطالب بالإتاوة المالية السنوية، التي كانت الحكومة الفاطمية المتداعية قد ألزمت نفسها بدفعها لجارتها المسيحية، وفي سنة ١١٦٤م عاد شاور يعاونه جيش سوري بقيادة شيركوه، ومن بين هيئة أركان حربه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، وهزم ضرغام في بلبيس وأرغمه على أن يحتمي بالقاهرة، على حين عسكر شاور ومن معه في مصر.

وكان لضرغام من الصفات ما حبب فيه الناس، فقد كان عربيًا شجاعًا قاتل الصليبيين في غزة، وكان يقود كتيبة من الجيش الفاطمي من أهل برقة، غير أنه أساء إلى نفسه حين امتدت يده إلى أموال الأوقاف ليدفع منها مطالب جيوشه، فامتنع الخليفة عن مساعدته وتخلى عنه أتباعه، وكان منظره في آخر مواقفه يدعو إلى الأسى، فإنه عندما اشتد عليه القتال أمر بدق الطبول، ونفخ في البوق يدعو المحاربين إلى أماكنهم على الحصون، لم يجبه أحد، ووقف الأمير اليائس في خمسمائة من حرسه أمام قصر الخيلفة إلى الغروب يستحلفه بأجداده أن يطل على الناس ويدعوهم لمؤزارته، والخليفة يصم أذنيه عن ندائه، وقد بدأ الحرس ينفض من حوله حتى لم يبق معه إلا ثلاثون رجلًا، وسمع من يحذره ويطلب إليه أن ينجو بحياته، وقد دقت طبول شاور آتية من باب القنطرة، وحينذاك ركب القائد المخذول متجهًا إلى باب زويلة، إلا أن المذبذبين من أفراد الشعب قطعوا رأسه وطافوا به الشوارع فرحين مهللين، وتركوا جثته فريسة للكلاب، وهكذا كانت خاتمة سيد شهم اتصف بالبطولة وقرض الشعر.

وما إن تخلص شاور من منافسه، حتى استدار الوزير الخائن وطلب من عموري ورجاله من الصليبيين أن يساعدوه في طرد منقذيه السوريين، وبعد معارك طويلة عقد الفريقان هدنة، وانسحب الجيشان المسيحي والسوري دون أية نتيجة حاسمة. غير أن الغزو الذي قام به السوريون كان بداية احتلال دائم، إذ بينما كانت الجند السورية عائدة في طريقها إلى دمشق أخذت تنشر أخبارًا عن ضعف الحكم الفاطمي وتحث نور الدين على غزو مصر موضحة له أهمية ذلك، ولكن السلطان كان حذرًا

فلم تغره هذه الأقوال إلا بعد أن علم أن عموري يتآمر مع شاور، وحينذاك أرسل الجيش السوري للمرة الثانية لغزو وادي النيل، فعبر النهر في نفس الوقت الذي وصل فيه جيش الصليبيين في سنة ١١٦٧م، واحتل مدينة القاهرة وعقد المعاهدة التي سبق أن أشرنا إليها حينما أرسل الفارسين سير هيو صاحب قيصرية وجوفرى فواشر أحد فرسان المعبد(١).

أما شيركوه فقد احتل الوجه القبلي، بينما احتل صلاح الدين الإسكندرية وبقى بها خمسة وسبعين يومًا، ثم عقد الصليبيون والسوريون هدنة ثانية ورجع الجيشان إلى بلادهما، غير أن الصليبيين تركوا نائبًا عنهم في القاهرة وأقاموا حرسًا منهم على أبواب المدينة، وعسكر بعض جنودهم في جامع الحاكم، وكانت تقارير هؤلاء الشهود عن ضعف الحكومة وتخبطها في الحكم، سببًا في قدوم عموري في السنة التالية، وقد عقد النية على ضم مصر لأملاكه نهائيًا.

وكان هذا الغدر من جانب الصليبيين والمذبحة الشنيعة التي أقدموا عليها في بلبيس، مما أشاع الفزع والرعب في قلوب المصريين ودعاهم إلى الاستنجاد بسلطان دمشق، حتى أن الخليفة حرك شعور نور الدين بإرساله خصلات من شعر نسائه ليخف إلى نجدته، وللمرة الثالثة دخل شيركوه مصر بصحبة صلاح الدين في سنة ١١٦٩م، وقد صح عزمهما على البقاء نهائيًا، وانسحب عموري دون أن يشتبك مع شيركوه في قتال، أما شاور فقد حاول اغتيال منقذيه بتدبير المؤامرات ضدهم، ولكنه

أخفق وألقي القبض عليه وأعدم، فتقلد شيركوه الوزارة وبقي في ذلك المنصب شهرين، ولما وافته منيته خلف عليها صلاة الدين الأيوبي في سنة ١١٦٩م.

كان مركز صلاح الدين مركزًا شاذًا باعتباره وزير الخليفة الفاطمي الشيعي، والجندي النائب عن سلطان دمشق السني، وعلى الرغم من أنه اضطلع بأعباء الحكم مدة عامين، كانت الخلافة الفاطمية قد أذنت بالزوال، في وقت كان آخر الخلفاء يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكانت الفرصة مواتية للتغيير المنتظر، ففي صلاة الجمعة في العاشر من شهر سبتمبر سنة ١١٧١م، ذُكر اسم الخليفة العباسي السني في الخطبة في جميع مساجد القاهرة، وقد ذكر لنا أحد الرحالة العرب وصفًا شبيهًا بهذا حدث في إسبانيا بعد ذلك باثنتي عشرة سنة.

قال ابن جبير: في أحد المساجد قام الخطيب اليوم في صلاة الجمعة، متبعًا الطريقة المأثورة عن السنيين: «فأكثر بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله، ورضي عن أصحابه، واختص الأربعة الخلفاء بالتسمية رضي الله عنهم جميعهم، ودعا لعمي النبى صلى الله عليه وسلم حمزة والعباس، والحسن والحسين ووالى الرضى عن جميعهم، ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبى صلى الله عليه وسلم، ورضي عن فاطمة الزهراء وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ»، ثم ألقى عظته بعبارات بليغة، أثرت في السامعين حتى لانت له أقسى القلوب وسالت من العيون الدموع الغزيرة، «وكان لابسًا ثوب سواد– وهو شعار العباسيين–

مرسومًا بذهب، وعليه طليان شرب رقيق «يسميه الإسبان الأحرام»، ومتعممًا بعمامة سوداء مرسومة أيضًا، وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلد له، فعند صعوده في أول درجة «قلده المؤذن المذكور السيف» ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين– إشارة منه إلى التزام السكون– ثم في الثانية ثم في الثالثة، فإذا ما انتهى إلى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة»، ثم أخذ يتلو الدعاء وهو واقف بين علمين أسودين عليهما علامات بيضاء، وقد ثبتا في أعلى المنبر، «ثم دعا للخليفة العباسي أبي العباس أحمد الناصر «الدين الله بن المستضيء»، ثم لصلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب ولولي عهده أخيه أبي بكر بن أيوب» (١).

ولم يدهش هذا الدعاء جمهور المصلين الذين سمعوه لأول مرة في سنة ١١٧١م، ولم يبد أحد تذمره (2)، وربما كان ذلك لأن الدعوة الشيعية لم تتغلغل في نفوس أهل القاهرة، واستمر الجمهور متأثرًا بعقيدته السنية، على الرغم من سيادة غلاة الشيعيين مدة قرنين. وعلى كل حال فقد تم الانقلاب دون مقاومة ومات آخر الخلفاء الفاطميين «العاضد» قبل أن يعلم بزوال ملكه، وأما أهله وأقاربه فقد عوملوا معاملة كريمة في الأسر، غير أن حاشيته وعبيده قد استُغني عنهم وذهبوا حيث شاءوا.

ولما كانت قصور الخلفاء من الفخامة بما لا يتفق ومطالب صلاح الدين المتواضعة فقد أنزل بها قواده، واكتفى هو بقصور الوزراء، أما المكتبة النفيسة التي كانت تضم مائة وعشرين ألف كتاب جُمعت بعناية بعد أن أُتلفت المكتبة الأولى منذ قرن من الزمان، فقد أهديت إلى القاضي

الفاضل، ووزعت النفائس التي اقتناها الفاطميون أو بيعت.

وهكذا زالت قصور الفاطميين بالتدريج، وبقيت مساجدهم، وساد المذهب السني مرة أخرى في مصر.

وكان أغلب حياة بطل الإسلام العظيم في خارج مصر، ذلك أن صلاح الدين الأيوبي لم يقض من مدة حكمه التي بلغت أربعة وعشرين سنة سوى ثماني سنوات في مصر «ونقول حكمه لأنه كان يحكم فعلًا، وما كانت تبعيته لملك دمشق التي دامت خمس سنين إلا تبعية اسمية»، كما أن أعظم انتصاراته وهزائمه القليلة كانت في سوريا وبلاد الموصل وفلسطين.

ولما غادر القاهرة في اليوم الحادي عشر من شهر مايو سنة ١١٨٢م وخرج رجال القصر لتوديعه، وقف الركب عند بركة الجيش وصدحت الموسيقى، سمع صلاح الدين شاعرًا ينشد شعرًا تشاءم منه ووقع في نفسه أنه لن يرى مصر بعد ذلك اليوم، وقد صح حدسه فلم تكتحل عيناه بمرأى مصر بعدها، وقد غزا أرض الفراتين، واستولى على دمشق التي كان قد ضمها إلى أملاكه بعد موت نور الدين، وانتصر على الصليبيين في موقعة حطين، واسترد بيت المقدس التي كانت مقدسة بالنسبة إليه كما كانت بالنسبة إلى المسيحيين، وأخضع الأرض المقدسة بأسرها، وحارب فرسان أوروبا حول عكا نحو سنتين، ونازل آخر الأمراء ريتشارد نزالًا جعل اسم صلاح الدين يتردد على كل لسان حتى أوروبا نفسها، وأخيرا أمضى معاهدة الصلح في الرملة بعد أن هاجم يافا وصد عنها، ومات صلاح الدين في شهر مارس سنة ١١٩٣م في دمشق.

لقد انتهت الحرب المقدسة وانتهى معها صراع خمس سنوات، فلم يكن للمسلمين قبل موقعة حطين «يوليو ١١٨٧م» شبر واحد من فلسطين غربي الأردن، أما بعد صلح الرملة الذي عُقد في شهر سبتمبر سنة ١١٩٢م، فقد أصبحت جميع الأراضي في أيدي المسلمين إذا استثنينا جزءًا ضيقًا من الساحل بين مدينتي صور ويافا. لقد دعا البابا العالم المسيحي أن يحمل السلاح لتخليص بيت المقدس ومملكة أورشليم، وقد استجاب لندائه الإمبراطور وملوك إنجلترا وفرنسا وصقلية وليو بولد صاحب النمسا ودوق برغندية وكونت الفلاندرز ومئات من مشاهير البارونات والفرسان من جميع الأقطار، وانضموا إلى ملك بيت المقدس وأمراء فلسطين وفرسان المعبد والكنيسة.

غير أن الإمبراطور قد مات وعاد الملوك من حيث أتوا، وقد تركوا أنبل جماعة من رعايهم قتلى في الأرض المقدسة، غير أن بيت المقدس بقيت في يد صلاح الدين، ولم يبق لملكها الاسمي إلا قطعة صغيرة من الأرض حول عكا. لقد تجمعت كل قوى العالم المسيحي في الحرب الصليبية الثالثة، ولكنها لم تستطيع أن تنال من قوة صلاح الدين وسلطانه، ولما انتهت حروب السنوات الخمس وخفت محنتها ومصائبها لم يكن لصلاح الدين منافس بحكم الأقطار التي تقع بين جبال كردستان وصحراء ليبيا، وكان ملك جورجيا وكاثوليك أرمينية وسلطان قونية وإمبراطور القسطنطينية – وكلهم وراء الحدود– يتوددون إليه ويخطبون وده ويتوقون إلى محالفته(١).

وعلى الرغم من أن مدة إقامة صلاح الدين الأيوبي لم تطل في القاهرة، لم يترك أحد ممن سبقوه من الحكام فيها مثل ما خلف من الآثار الخالدة، فإليه يرجع الفضل في اتساع الحاضرة، وتنسيق هندستها التي كانت تفخر بها إلى عهد قريب: فالقلعة وهي أبرز معالمها من إنشائه، والمدرسة التي بناها هي أكثر عمائرها ذيوعًا وشهرة، وكل هذه التغييرات تمت بفضل توجيهاته، ولما غادر صلاح الدين القاهرة بعد أن مكث فيها ثماني سنوات، ظل يبعث في طلب إمدادات منها بمعاونته في حروبه السنوية، وقد ترك بها من القواد والأقارب من قام بإتمام ما بدأه من أعمال، كان بعضها من أجل الدفاع عن البلاد وبعضها في سبيل الدين، فأما الأعمال الدفاعية، فقد تجلت في إنشاء القلعة والسور وجسر النيل، وكلها من الأعتمال المستحدثة التي لم يسبقه إليها أحد، إذ أن الحكام الذين جاءوا قبله جعلوا هدفهم بناء مبانٍ حكومية أو ضواحٍ ملكية، كل يبعد عن سابقه نحو نصف ميل إلى الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، حتى أن القاهرة الفاطمية نفسها لم تكن تشمل سوى قصور الخلفاء والموظفين ولم تكن حاضرة للبلاد المصرية.

أما صلاح الدين فكان أول من وضع بأحكام، تصميمًا شاملًا لحاضرة عظيمة، إذ أنه بدلًا من أن يحذو حذو من سبقوه من الحكام ويقيم ضاحية جديدة كما أقام أسلافه، عقد العزم على توحيد جميع الأحياء الآهلة بالسكان وإحاطتها بسور عظيم وتتويجها بقلعة منيعة، وكانت مدينة مصر التي أتى عليها الحريق، تناضل ما استطاعت لتنفض عن نفسها الرماد وتصلح ما فسد منها، ومد صلاح الدين يد المعونة لها،

وكان لابد له من أن يجمع شتات المساكن المعبثرة في الأطراف وأن يضم ميناء المقس إلى المدينة بمد الأسوار إليها، كما كانت بيروس بالنسبة لأثينا، وقد أراد أن يكون السور من الأحجار وأن يكون امتدادًا لسور بدر الجمالي الأرمني حتى المقس غربًا وإلى جبل المقطم جنوبًا، ومن هناك يمتد إلى النيل ليضم بقايا مدينة الفسطاط.

غير أن هذا المشروع العظيم لم يتم قط لأن واضعه صلاح الدين كان منشغلًا بحروبه في سوريا، ولم يتمكن أعوانه في القاهرة إلا من جمع الأموال والرجال اللازمين له في حروبه والقيام بالضروري فقط من المباني، وربما هداه تفكيره هو وأعوانه إلى أن حالة مباني مدينة مصر المتهدمة لا تستحق ما كان سيُنفق من الأموال على مد الأسوار إليها، وكل ما تم هو مد سور بدر الجمالي في الشمال من الخليج إلى نهر النيل حيث أقيمت أبراج المقس المحصنة، أما من جهة الشرق فقد مد السور القديم جنوبًا إلى باب الوزير بالقرب من سور القلعة الجديدة، إلا أن موت السلطان قد أوقف العمل قبل أن يتم ضم الأسوار. أما الأسوار الجنوبية فلم يكن قد بدأ بعد في بنائها. ولا تزال بعض أسوار صلاح الدين قائمة إلى الآن، ولو أن بعضها قد اختفى من بين المنازل، غير أنه يمكن تتبعها فيما بين الخليج وباب الحديد الذي كان يسمى باب البحر بالقرب من حصن المقس الذي اندثرت معالمه، ويمكن المقارنة بين الأبراج الفاطمية القديمة الأبراج المستديرة في سور صلاح الدين بما فيها من أبراج ومنافذ للمراقبة.

ونجد هذه المميزات في السور الشرقي الذي يفصل المدينة عن قرافة قايتباي، ثم يظهر طراز جديد عند باب الوزير (١)، فإن جانبًا من السور عند الزاوية الشمالية الشرقية – بما في ذلك برج الظافر– يتوغل في الصحراء، مما يدل على أن المدينة قد انكمشت في هذه البقعة إلى حدودها التي كانت عليها في القرن الثاني عشر الميلادي.

والواقع أن الأسوار لم تكن إلا امتدادًا لأسوار بدر الجمالي، أما القلعة فقد كانت فكرة جديدة، ربما استوحاها صلاح الدين من كراهيته للسكنى في القصور الفاطمية التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالشيعة ودعاتها، وعلى الرغم من أن صلاح الدين لم يتخذ مقامه في القلعة مدة طويلة ينوي أن يجعل فيها مقر إقامته كما فعل خلفاؤه، على أن التفسير الظاهر لذلك، هو أن صلاح الدين بنى القلعة مسترشدًا بما رأى في سوريا، حيث كان لكل مدينة كبيرة قلعتها أو حصنها، وكان من الطبيعى أن يدرك صلاح الدين، وهو الجندي المحنك، أن أصلح مكان لبناء قلعته هو سفح جبل المقطم، ولم يكن يقلل كثيرًا من مركزها – وهي تشرف على «مصر» من ارتفاع مائتين وخمسين قدمًا– وجود أماكن أخرى من الجبل أكثر منها ارتفاعًا، ذلك لأن أسلحة الحروب في ذلك الوقت كانت تنحصر في قذف الأحجار بالمقلاع والمنجنيق.

وإذن كانت القلعة حصنًا منيعًا في نظر مهندسي القرن الثاني عشر، كما أنهم عملوا على تحصينها من الأسفل اتقاء خطر الفتن والثورات في المدينة.

وقد بدأ العمل في سنة ١١٧٦-١١٧٧م تحت إشراف الأغا قراقوش، أحد أمراء صلاح الدين المخلصين، الذي اختلط اسمه لسوءالحظ بذلك المهرج المشهور، على الرغم مما قام به هذا الجندي العظيم من الخدمات الجليلة والأعمال الحربية المتعددة، ولم تتوج القلعة باسم مؤسسها إلا بعد بنائها بست سنوات، ومازال يعلو باب المدرج في الجزء الأصلي «الغربى» من القلعة.

وهذه هي الكتابة المنقوشة على باب القلعة:

«بسم الله الرحمن الرحيم: أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة، المجاورة لمحروسة القاهرة بالعرمة التي جمعت نفعًا وتحصينًا واسعة، على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصينًا، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين، على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش عبد الله المكي الناصر، في سنة تسع وسبعين وخمسمائة» (١).

كانت أهرام الجيزة الصغيرة تُتخذ محاجر لجلب الأحجار اللازمة، وكان الأسرى من الفرنجة والأوروبيين الذين وقعوا في قبضة صلاح الدين في حروبه يُستخدمون في أعمال البناء.



قلعة الكبش

ولقد زار الرحالة الأندلسي ابن جبير مصر في سنة **١١٨٣م**، وشاهد العمل في بناء القلعة يجري على قدم وساق، فقال: «وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المتعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة، والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومئونته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور والعظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور، وهو خندق ينقر بالمعاول نقرًا في الصخر عجبًا من العجائب الباقية الآثار، العلوج الأسارى من الروم، وعددهم لا يحصى كثرة، ولا سبيل أن يمتهن في ذلك البنيان أحد سواهم، وللسلطان أيضًا بمواضع آخر بنيان، والأعلاج يخدمون فيه، ومن يمكن استخدامه من المسلمين في مثل هذه المنفعة العامة، موفة عن ذلك كله ولا وظيفة في شيء من ذلك

على أحد» (١)، وذلك لأن السخرة لم تكن شيئًا جديدًا في مصر، ولو أنها بدت غريبة في نظر الرحالة الأندلسي.

ولم يكتمل بناء القلعة إلا في سنة ١٢٠٧-١٢٠٨م، حين كان الكامل ابن أخي صلاح الدين سلطانًا على مصر، ولما كانت القلعة مقر حكام مصر حتى سنة ١٨٠٥م فقد أجريت بها تعديلات كثيرة، ووسعها كثير من سلاطين المماليك، وقام محمد علي باشا نفسه ببعض التعديلات، حتى أنه لم يبق حينذاك من المساجد أو القصور التي بنيت في عصر صلاح الدين الأيوبي شيء، إذ إن المسجد القديم كان قد بناه الناصر محمد في سنة ١٣١٨م، وأما المسجد الذي اشتهر بمئذنته التركية الدقيقة فهو من بناء محمد علي في سنة ١٨٢٤م، وبئر يوسف التي يعتقد الكثيرون أنها من بناء صلاح الدين لم تكن سوى جانب من أحد قصور الماليك، كذلك الأبراج الداخلية لم تكن من البناء الأصلي، وبني الباب الذي يؤدي إلى الرميلة في أواسط القرن الثامن عشر.

وعلى الرغم من ذلك كله، لم تزل هناك أجزاء من البناء الأصليي بخلاف البئر الشهيرة المعروفة باسم "بئر السبع سقايات" التي يبلغ عمقها مائتين وعشرين قدمًا، والتي حفرها قراقوش، وهناك أيضًا أجزاء من السور التي بناها صلاح الدين، ولكن لكي نميزها مما بني بعد ذلك يجب أن يكون المرء على شيء من العلم بفن البناء، كما أن بعض الممرات الداخلية يرجع تاريخ بنائها إلى وقت بناء القلعة، ومما هو جدير بالذكر أن شيوع استعمال الأبراج المستديرة البارزة التي تحمي جانبًا من السور،

وانعدام الممرات الداخلية، والحجرات والفتحات في الجزء الأسفل من الأسوار، وكثير من النقط الصغيرة الأخرى، يكشف لنا أن هندسة البناء الأصلي أقرب إلى الطراز السوري الفرنجي منه إلى الطراز البيزنطي.

وآخر الأعمال الدفاعية، كان جسر الجيزة الذي شيد على الضفة الغربية للنيل، وقد وصفه ابن جبير فقال: «من مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين، القناطر التي شرع في بنائها بغربي مصر، وعلى مقدار سبعة أميال منها بعد رصيف ابتديئ به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير به مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة، وهي نحو الأربعين قوسًا من أكبر ما يكون من قسى القناطر، والقنطرة متصلة بالصحراء التي تفضى منها إلى الإسكندرية، له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة – إعداد الحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض به وامتناع سلوك العساكر بسببه، فأعد ذلك مسلكًا في كل وقت إن احتيج إلى ذلك، والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحذور بمنه، ولأهل مصر في شأن هذ القنطرة إنذار من الإنذارات الحدثانية، يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء الموحدين عليها وعلى الجهات الشرقية، والله أعلم بغيبه ولا إله سواه» (١).

وليس هناك شك في أن الغرض من بناء هذا الجسر، هو الدفاع عن البلاد، فلم ينس صلاح الدين قصة غزوات الفاطميين العديدة من ليبيا، حيث إنه لم يكن هناك ما يصدهم عن الوصول إلى النيل، ولهذا اتخذ

الحيطة لصد مثل هذا العدوان، ويذكر ابن جبير أنه كانت هناك مخاوف من هجوم الموحدين الذين غزوا الجزائر وتونس وطرابلس في سنة ١١٥٨م، بعد أن أخضعوا مراكش وبلاد الأندلس حتى صارت طلائع الجيش عبد المؤمن القائد المنتصر على مقربة من حدود مصر الغربية. لقد أحسن صلاح الدين باتخاذه الحيطة، على الرغم من أن الغزو الذي كان منتظرًا لم يقع.

هذه الأعمال الدفاعية ضد الأعداء في الخارج، كان يصحبها في الوقت نفسه إجراءات أخرى خاصة باستتباب الأمن في الداخل، إذ يجب أن يكون معلومًا أن إقرار النظام قد صادفته عقبات عدة ردحًا من الزمن، ومهما كان شعور عامة الشعب بالنسبة إلى حاكم شهم كريم شديد المراس مثل صلاح الدين، فإن التقاليد التي درجوا عليها منذ قرنين من الزمان لم يكن من السهل القضاء عليها بين عشية وضحاها.

كما أن أنصار الفاطميين كان لهم نشاط موفور، فقد قامت القوات السودانية بالثورة قبل موت الخليفة العاضد، وساعد الخليفة نفسه على إذكاء نارها، ولم يستطع صلاح الدين إخماد هذه الثورة إلا بعد جهد شديد، وبعد أن أعمل فيهم السيف ودانوا له بالطاعة، أمر بطردهم من المدينة، وكانوا يقطنون الحي المعروف بالمنصورية في خارج باب زويلة، وأحرق هذا الحي عن آخره وحوَّله إلى حدائق غناء وبساتين نضرة، حتى أن صلاح الدين لما خرج من القصر إلى القلعة ووقف بجامع ابن طولون استطاع أن يرى باب زويلة، إذ لم يبق بينهما بناء قائم. ثم

أعقب ذلك مؤامرات أخرى في الإسكندرية بإيعاز من الفرنجة استلزمت استعمال القوة في قمعها، واستمرت الأخطار تهدد البلاد، طالما كانت هناك جبهة قوية تعطف على أسرى الدولة الفاطمية.

ويمكن إدراك مدى تحمس الشيعة في ذلك الوقت، من وصف الرحالة الأندلسي للضريح الذي يحوي رأس الحسين، شهيد كربلاء، في المسجد المجاور للقصر الفاطمي الكبير.

يقول ابن جبير: «فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة، حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض، قد بني عليها بنيان حفيل، يقصر الوصف عنه، ولا يحيط الإدراك به، مجلل بأنواع الديباج، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعًا أبيض، ومنه ما هو دون ذلك قد وضع أكثرها في أنوار فضة خالصة، ومنها مذهبة وعلقت عليه قناديل فضة، وخف أعلاه كله بأمثال النفافيح ذهبًا في مصنع شبيه الروضة، يقيد الأبصار حسنًا وجمالًا، فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع، ما لا يتخيله المتخيلون ولا يحق أدنى وصفه الواصفون، والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها في التأنق والغرابة، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة، وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بنيان من كليهما المدخل إليها، وهما أيضًا على تلك الصفة بعينها، والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع، ومن أعجب ما شاهدناه في دخولنا إلى هذا المسجد المبارك، حجر موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل، شديد

السواد والبصيص، يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الهندية الحديثة الصقل.

وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك وإحداقهم به وانكبابهم عليه، وتمسحهم بالكسوة التي عليه، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة، ومتضرعين بما يذيب الأكباد ويصدع الجماد، والأمر فيه أعظم ومرأى الحال أهول، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم» (١).

وإن المظاهر التي تتمثل فيها العواطف الصاخبة للمأساة الفارسية، لتبين لنا أنه كان هناك في مصر شعور شيعي قوي بعد وفاة آخر خليفة فاطمي باثنتي عشرة سنة، وقد قام صلاح الدين بمعالجة مثل هذه الأحوال بطريقته الفذة، فهو برغم سماحته وطيبة قلبه كان لا يمتنع عن استعمال القسوة في قمع هذه الشائعات لوضع الأمور في نصابها: فقد كان سنيًا، نقيًا، عالمًا بالمبادئ السنية، كثير الاتصال بالعلماء ومناظرتهم، ولذا كان قاسيًا على الملحدين وكل من خرج على المبادئ السنية. وقد دل اضطهاد القبط وتخريب كنائسهم بعد عودة المذهب السني، على أن سماحة صلاح الدين لم تصل بعد إلى حد التساهل في العقائد الدينية، ولكنه في حالة الشيعة رأى أنه أمام حركة قوية وخطيرة بدأت منذ قرنين من الزمان، تم لها خلالهما السيادة والسلطان، فكان لابد له من أن يقابل الدعاية بمثلها، ورأى أن أهل القاهرة في حاجة إلى أن يتعلموا أصول الدين، وحينئذ ليس ثمة خوف من الإلحاد، ولما لم يكن بالقاهرة عند توليه

الحكم معاهد يتلقن الناس فيها أصول الدين ومبادئ السنة، أسرع في إنشاء المدارس أو المعاهد الدينية التي أصبحت بعد ذلك الحين أهم ما تصطبغ به القاهرة في مضمار البناء، ففي سنة ١١٧٦م بنى أول مدرسة في مصر وكانت تجاور ضريح الشافعي، صاحب المذهب السني الذي يهتدي به السواد الأعظم من المسلمين في مصر في عبادتهم، ولاشك أن الناس لا يزالون إلى يومنا هذا يزورون ضريح الإمام، في وسط القبور المعبثرة في القرافة جنوبي القاهرة، ولو أن هذه المدرسة قد اختفت معالمها منذ أمد بعيد.

ويصف لنا ابن جبير هذا الضريح في سنة ١١٨٣م فيقول إنه: «من المشاهد العظيمة احتفالًا واتساعًا، وبنى بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها لا أوسع مساحة ولا أحفل بناءً، يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها، والبناء فيها حتى الساعة والنفقة عليها لا تحصى، تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشاني، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول زد احتفالًا وتأنقًا وعلينا القيام بمئونة ذلك كله، فسبحان الذي جعل صلاح دينه كاسمه، ولقينا هذا الرجل الخبوشاني المذكور تبركًا بدعائه، لأنه قد كان ذكر لنا أمره بالأندلس، فألقيناه في مسجده بالقاهرة، وفي البيت الذي يسكنه داخل المسجد المذكور، وهو بيت ضيق العناء، فدعا لنا وانصرفنا، ولم نلق من رجال مصر سواه» (١).

وإلى جانب المدرسة الشافعية، بنى صلاح الدين مدرسة على مقربة من حصن الأعداء، وهو ضريح الحسين، وحول قصر المأمون القديم إلى مدرسة سيف الدين لعلماء الحنفية، ومدرسة رابعة للشافعية وخامسة للمالكية في مدينة مصر.

ونحن إذ نسجل هذه الأعمال الخيرية، لا ننسى المستشفيات التي بناها، فكل منا يعرف المارستان أو مستشفى السلطان قلاوون المملوكي في سوق النحاسين، ولكن الذي لا يعرفه الناس أن هذا العمل الإنساني العظيم كان قد سبقه إليه صلاح الدين.

وهنا يقول ابن جبير: «ومما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السلطان؛ المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائعة حسنًا واتساعًا، أبرزه لهذه الفضيلة تأجرًا واحتسابًا، وعيَّن قيِّما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها، ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاج كاملة الكسى، وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة ما يليق بهم، وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى، ولهن من يكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد، اتُخذت محابس للمجانين، ولهم أيضًا من يتفقد في كل يوم أحوالهم، ويقابلها بما يصلح لها، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال، ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها

غاية التأكيد. وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه، وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن طولون، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر، ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم إليهم، ولم يجعل يدًا لأحد عليهم، فقدموا من أنفسهم حاكمًا يمتثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده واستصحبوا الدعة والعافية وتفرغوا لعبادة ربهم، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذي هم بسبيله، وما منها جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس، إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى إليها ويلزم السكن فيها، تهون عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال.(١).

كانت عمارة المدارس التي أنشأها صلاح الدين فتحًا جديدًا في عالم البناء في القاهرة، فحتى ذلك الوقت كانت المساجد ذات شكل واحد، هو شكل الجامع «وقد سمي كذلك لأنه كان يجمع الناس في المناسبات العامة» الذي تؤدى فيه صلاة الجماعة. وقد كان كبيرًا بحيث يتسع للجم الغفير من الناس، فالإيوان المغطى في الطرف الشرقي كان معدًا بحيث يتيح لكثير من المصلين السجود والركوع، وإذا زاد العدد عما يحتمله الإيوان خصوصًا في المواسم والأعياد، فهناك الفناء المكشوف حيث يجتمع عدد كثير متجهين نحو القبلة، أما الأروقة التي تحيط بالفناء

فكانت مخصصة للأساتذة يستعملونها فصولًا للدراسة أو مأوى يأوى إليه الفقراء وأبناء السبيل، ولم تكن هذه الأروقة جزءًا أساسيًا من الجامع الذي كان كما يدل عليه اسمه مكانًا تُعقد فيه الاجتماعات العامة للصلاة فقط.

ولما زار ابن جبير القاهرة لم يكن هناك سوى أربعة جوامع من هذا الطراز، وهي: الجامع الأزهر، وجامع الحاكم، وجامع بن طولون، وجامع عمرو بن العاص.

أما المساجد القليلة الأخرى مثل مسجد الأقمر، ومسجد الصالح طلائع، ومسجدان أو ثلاثة مثلهما؛ فقد لحقها الخراب سريعًا، ومع أنها كانت على شكل الجامع، وكانت تستخدم في وقت من الأوقات لصلاة الجمعة، فإنها لم تعمر طويلًا، ولم تصبح من المساجد العصرية بعد وفاة مؤسسيها، بعد ذلك أسست مساجد كثيرة من حين إلى حين، ولا يزال أغلبها من أهم المساجد إلى وقتنا هذا، ولكن لم تكن من هذا الطراز.
الجوامع (١) التي يُطلق عليها كل منها اسم مسجد كانت قليلة العدد نسبيًا، وكانت صغيرة الحجم لا تستعمل لصلاة الجمعة (٢) وكثيرًا ما كانت تسمى زاوية، ولا فرق بينها وبين المسجد في شيء، اللهم إلا إذا كانت تستعمل مأوى للفقراء من الطلاب أو المجاورين، ولا يتميز المسجد عن الزاوية في شيء، فكلاهما بناء متواضع لا نعتقد أن أحدًا من الزائرين العاديين لمدينة القاهرة قد شاهد واحدًا منها أو استرعى نظره أحدها أكثر من كونه يزين أحد الأزقة.

والواقع أن الأبنية التي يعرفها الناس باسم مساجد هي في الحقيقة مدارس أو معاهد علمية، وهي أفخم ما كان في المدينة من العمائر مثل: مساجد السلطان حسن، وبرقوق، وابن مظهر، والناصر، وقلاوون، وما إلى ذلك، وهي تختلف تمامًا عن الجوامع في شكلها وفي الغرض الذي شيدت من أجله، ذلك أنها لم تشيد لأداء صلاة الجمعة، بل كانت تُبنى لتلقى العلوم الدينية فيها، وبطبيعة الحال كان لهذا أثر في تصميم المسجد وشكل بنائه، فبدلًا من الصحن الفسيح المكشوف الذي كان يتسع لجمهور كبير من المصلين في أيام الجمعة، كانت في المساجد الحديثة «المدارس» مربع صغير في الوسط، مسقوف في أغلب الأحيان بألواح من الخشب المطلى، تتوسطه قبة أو كوة صغيرة، ويحيط بهذا الصحن من جوانبه الأربعة أروقة طويلة مقنطرة السقف كأنها أجنحة المسجد.

فأما الجناح الشرقي وهو أطولها، فيخصص إيوانه للصلاة، وفيه المحراب والمنبر والدكة وغيرها مما يحتاجه المصلون، وهنا كانت تقام الصلاة – إلا صلاة الجمعة – وكانت الأروقة الأربعة تستقبل طلابها كلا حسب مذهبه: فأحدها للحنفية، والثاني للشافعية، والثالث للمالكية، والرابع للحنابلة، وكان الطلبة والعلماء يبيتون في رواقهم حيث قاعات الدرس والمكاتب والمعامل.

تلك إذن كانت خطة صلاح الدين في مقاومة الشيعة، وهي بناء معاهد لتعليم المذهب السني والإنفاق على هذه المعاهد من بيت المال، ولم تكن الفكرة من مبتكراته، وإنما هي فكرة نقلها من سوريا حيث كان

مولاه السلطان نور الدين يقوم ببناء المعاهد السنية لنشر مذهب الحنفية في دمشق وفي غيرها من المدن، وكان نور الدين نفسه يحذو حذو السلطان ملكشاه السلجوقي الذي بنى له وزيره العظيم نظام الملك صديق عمر الخيام المدرسة النظامية الشهيرة في بغداد، وإذن كان من الطبيعى أن يقوم صلاح الدين– وقد نشأ في كنف أمثال هؤلاء العظام– ببناء هذه المعاهد.

إلا أن مجرد تنفيذ الفكرة في مصر، كان فتحًا جديدًا وانقلابًا في أسلوب الثقافة وفي طراز البناء، فقد امحت آثار الشيعة، واجتذبت هذه المعاهد الجديدة رجال الثقافة والعلم من أنحاء العالم الإسلامي.

وكانت السلطة في مصر في أثناء غياب السلطان إما في يد ابنه أو أخيه، وكلاهما كان يستشير في أموره القاضي الفاضل، وهو عربي من عسقلان، ذو ثقافة واسعة وعقل راجح، وكانت مؤلفاته تفيض بالحكمة والاتزان. وبفضل تأثيره بدأ الغرباء من الطلاب يفدون إلى مصر ومساجدها، وانضمت مصر مرة ثانية إلى رابطة الثقافة الإسلامية واجتمع فيها علماء جاءوا إليها من أقصى بلاد فارس وتركستان بعلماء من قرطبة وإشبيلية.

ومن أمثلة ذلك أنه في سنة ١١٧٦م وفد إلى مصر أجنبي «ابن فرو» من أقصى بلاد الأندلس، استهوته حركة إحياء العلوم والثقافة في الشرق، ونظم قصيدة من ١١٧٣ بيتًا، تتضمن دروسًا مختلفة مقتبسة من القرآن وتدل على عظمة الخالق، وكان هذا الرجل العجيب يحمل في

رأسه من العلوم ما ينوء بحمله ذوو البأس الشديد، ولما جلس هذا العالم في حلقة الدرس، احتشد حوله جمهور من المستمعين لم يكن في قوله كلمة واحدة لا موضع لها، فلا عجب أن قربه إليه القاضي الفاضل – وكان قاضى القضاة وحاكم مصر من قبل صلاح الدين – وأنزله في داره، وواراه التراب بعد موته في مقبرته الخاصة. وقد خفف وجود هؤلاء الفلاسفة من غلواء الرؤساء، الذين عُرف عنهم الميل للقيام بأعمال النهب والسلب، إذ أن كبار رجال الحرب اعتادوا مجالسة هؤلاء العلماء. وكان نور الدين محبًا لمجالس العلم والشعر، وكان الكتاب يحفون به وينضمون إلى حاشيته، كما كان صلاح الدين محبًا لمناقشة رجال الفقه وأصول الدين (١)، وقد ذكره عبد اللطيف طبيب بغداد، فقال: «وجدته أميرًا جليلًا مهيب الطلعة جديرًا بالاحترام والتقدير، وديعًا متواضعًا ذكيًا سمح النفس واسع الإدراك»، ثم قال: «وجدته في ندوة من العلماء يتذاكرون العلوم، ورأيته وهو يحسن الإنصات ثم يشترك في الحديث، ويكفي صلاح الدين فخرًا أنه أدخل نظام المساجد المدرسية في القاهرة، وقد يتسم التعليم في هذه المدارس بالتعصب وضيق الأفق، ولكنه كان النظام السائد في العالم الإسلامى، وكان تطبيقه في القاهرة مما جعلها في مصاف مراكز العلم الإسلامية الشهيرة».

الباب السابع

بناة القباب

العادل سيف الدين– المجاعة العظمى– غزو الصليبيين– فردريك الثاني– الكامل– نظام المماليك– شجرة الدر والمماليك البحرية – حملة لويس التاسع – المماليك الأتراك– حروبهم ضد المغول– حروبهم ضد الفرنجة – إحياء الخلافة العباسية– بيبرس– قصر المماليك –

طيش الأمراء – بيت قلاوون – الناصر – التسامح الديني بالنسبة للمسيحيين – التعصب المحبوب – الفتن – الناصر وأبو الفداء – الإنتاج الفني – مساجد الأمراء – أسلوب المماليك الأول في البناء – السلطان حسن – مسجد السلطان حسن – المماليك الشراكسة – الفساد – الحروب – الذوق الراقي – فن البناء – قايتباي – مباني قايتباي – المساجد داخل الجدران – الوكالة – مساجد الأمراء والقاضي ابن مظهر – المدرسة الجديدة – مباني الغوري – الفتح العثماني

أولًا ـ المماليك البحرية

استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يرفع القاهرة مرة أخرى إلى مرتبة العواصم العالمية الشهيرة، وذلك بفضل تحصيناته لها من هجمات العدو،

وما شيده فيها من أماكن لنشر الدين والعلم، حتى أصبحت حلقة ذات قيمة في سلسلة الثقافة الإسلامية العظيمة.

وليس ثمة ريب في أنه أضاف كثيرًا إلى أعباء حكام مصر المقبلين ومسئولياتهم، حيث وجدوا أنفسهم أمام مشاكل ونضال وحرب مع حكام مدن سوريا من أقرباء صلاح الدين الذين لم يكن لهم شأن كبير، وكذلك مع فرنجة ساحل فلسطين الذين لم يكن قد فارقهم بعد حلمهم العزيز وهو تحرير بيت المقدس، والذين كان يدور بخلدهم وقتئذ أن الطريق الذي يؤدي إلى المدينة المقدسة – ولو أنه كان يبدو ملتويًا – كان يخترق مصر، ونحن لا يعنينا عند التحدث عن تاريخ القاهرة أن نسرد قصة الحروب التي شنها العادل سيف الدين، شقيق صلاح الدين وصديق الملك ريتشارد الذي نصب أحد أبنائه سيف الدين فارسًا، كما سبق أن نصب همفرى، صلاح الدين نفسه فارسًا من قبل.

غير أن العادل بعد أن حكم إمبراطورية أخيه في سنة ١٢٠٠م، أثبت بحق أن البلاد قد وجدت فيه بعض العزاء عن موت ذلك البطل العظيم، فقد خدم صلاح الدين في حياته بإخلاص، وكان ساعده الأيمن مدة ربع قرن، وفي خلال ربع قرن آخر، وجدناه يقبض على زمام الإمبراطورية التي لم يأل أقاربه جهدًا في العمل على تشتيتها وتقسيمها، ولقد استخدم الفطنة في إبقاء علاقته مع الفرنجة بنزوله عن ميناءين من الموانئ في فلسطين، ولم يقلل كل عداء حدث برغم هذا التساهل من منزلته العالية مثقال ذرة، ولقد وصفه أحد معارفه بأنه رجل كثير الخبرة،

واسع المعرفة، بعيد النظر، قوي البنية، في وسعه أن يأكل حملًا بأكمله في وجبة واحدة، ويذكر لنا أحد شعراء العرب المعاصرين مقدار نشاطه وسيطرته على جميع أنحاء مستعمراته الواسعة.

ومهما يكن من أمر يقظته، فإنه لم يستطع أن يدرأ عن البلاد تلك الكارثة التي طالما هددت مصر في العصر الوسيط؛ وهي نقص الفيضان وما كان يصحبه من وباء وفساد ومجاعة، ولقد حدث ذلك في سنة ١٢٠١م ثم تكرر حدوثه في سنة ١٢٠٢م وكانت النتائج وخيمة إلى حد بعيد، ولدينا رواية شاهد عيان تنطوي على صورة صادقة لما ساد ذلك العهد من رعب وفزع.

دوَّن عبد اللطيف – طبيب بغداد الذي عاش في القاهرة عشر سنوات «١١٩٤–١٢٠٤م»، واستمع إلى محاضرات الأساتذة في جامع الأزهر– ما صحب المجاعة من أحداث مروعة، فلقد بلغ من عظم النكبة أن كان السكان يرحلون جماعات عن أحياء المدينة وعن القرى التي أصبحت خالية من سكانها، أما أولئك الذين بقوا حيث كانوا فقد كانت تواجههم أخطار لا قبل لهم بها، وكان من المألوف أن يأكل الناس اللحوم البشرية، وحتى الآباء كانوا يذبحون أبناءهم ويطهون لحومهم، ولقد وُجدت امرأة وهي تأكل لحم زوجها نيئًا، وكان الرجال يكمنون للنساء في الشوارع ليستولوا على أطفالهن، بل إن الناس كانوا ينبشون القبور بحثًا وراء الطعام.

كان كل هذا يحدث في مصر من أقصاها إلى أقصاها، فقد أصبحت الطرقات مكدسة بجثث الموتى، وساد القتل والسرقة دون حساب، واستباح الفجار الذين تركت لهم الفوضى الحبل على الغارب أعراض النساء، وكانت الفتيات من الحرائر يبعن بمبلغ يساوي خمسة شلنات لكل واحدة، كما أن كثيرًا من النساء كن يجئن متوسلات لكى تباع الواحدة منهن كالجواري حتى لا تهلك جوعًا، وكان الثور يباع بسبعين دينارًا والمد (١) من القمح بما لا يزيد كثيرًا على عشرة شلنات، وكانت الجثث تبقى في الشوارع والمنازل من غير أن تدفن، مما أدى إلى انتشار طاعون مخيف في أنحاء الدلتا، وكانت العقبان والضباع تتعقب الموتى في الريف وفي طريق القوافل، كما كان الرجال يخرون صرعى بجوار المحراث بفعل الوباء، ولقد حدث في يوم واحد أن أدى أحد أئمة المساجد في الإسكندرية صلاة الموتى على أكثر من سبعمائة شخص، كما حدث أن انتقلت إحدى الثروات إلى أربعين وريثًا على التوالي في شهر واحد، ونقصت قيمة الممتلكات إلى حد عجيب.

ونظرًا إلى تناقص عدد السكان انخفضت إيجارات المنازل في القاهرة إلى سبع ما كانت عليه، وكان أثاث القصور وتحفها تُكسر لتوقد بها الأفران، هذا إلى أن الزلازل العنيفة التي شعر بها الناس في سوريا وصل تأثيرها شمالًا حتى أرمينيا قد أخذت تهدم عددًا لا حصر له من المنازل، وتخرب مدنًا بأسرها، فتزيد بذلك من هول البلاء.

ثم إن غزو جان دي بربين الذي استولى على دمياط جعل مصر في قلق وجزع ثلاثة أعوام «١٢١٨-١٢٢١م»، غير أن العادل – الذي توفي في مستهل ذلك الضيق – خلف من بعده ابنا كفئًا، هو الكامل، الذي دفع بالصليبيين وجعلهم يجرون أذيال العار باندحارهم، ولما أتى الإمبراطور فردريك الثاني بنفسه على رأس الصليبيين إلى فلسطين، رأى السلطان من الحكمة ألا يكتفي بالسماح له بأن يتوج نفسه في بيت المقدس، بل عقد معه محالفة دفاعية ضد الفرنجة في سوريا «١٢٢٩م».

وبالرغم من أن المدينة المقدسة والطريق المؤدي إليها سُلما للمسيحيين، احتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وما يحيط به، وهو كل ما يحفلون به.

وكانت المعاهدة المتقدمة الذكر أغرب ما تم بين قوتين إحداهما مسيحية والأخرى إسلامية، غير أنه يجب ألا يغرب عن بالنا في الوقت نفسه أن البابا أطلق على فردريك أنه من أتباع محمد، وأن مراسلات الإمبراطور مع الفيلسوف العربي ابن سبعين والمناقشات التي قامت بينه وبين سفراء الكامل، في العلوم العقلية، كانت كلها تدل على جهات النظر التي تنطوي على التسامح، ولو قام بها رجال أقل مقامًا لكان جزاؤهم الموت لكفرهم. وكان كتاب العرب يعجبون كثيرًا بفردريك ويشيدون به. أما الكامل فقد أثبت بحق أنه واسع العقل، إذ رحب برسول الإمبراطور– وهو الأسقف برنارد– في القاهرة، وأطلق سراح المسجونين الذين أسروا في «حملة الأطفال الصليبية»، كما وفى بعهده في المحالفة.

فلا عجب إذا نظر إليه المتزمتون من المسلمين نظرة البابا إلى فردريك،

وهم في ذلك مخطئون، إذ إن الكامل كان مسلما كامل الإيمان وإنما تعاهد مع المسيحيين في صالح السلام.

ثم إن المعهد الذي بناه «دار الحديث» أو «الكاملية» والذي لا تزال آثاره بين القصرين، يشهد على مبلغ غيرته على الإسلام واهتمامه به، ولطالما كانت عقلية والده الجبارة تسود عقلية الابن حين كان يشترك في اجتماعات العلماء في قصره مساء كل خميس. هذا إلى أن القاهرة تدين له بإتمام القلعة التي اتخذها مقرًا له، كذلك تحسنت مصر من الناحية الزراعية بفضل إشرافه الدائم على شئونها، وحفره الترع وتوسيعها وزيادتها وإقامة الجسور والسدود.

وكانت الخطة الجديدة التي انتهجها الأيوبيون من خلفاء صلاح الدين قد أوجدت شيئًا آخر إلى جانب نظام الحكم وإحياء العلوم والثقافات القديمة، ذلك هو نظام الإقطاع الذي ساد مصر- لحسن حظها أو لسوئه - ستمائة عام، مما كان له أثر ظاهر في الحياة الاجتماعية، وفي الفنون والآداب والنواحي المادية في القاهرة، ويمكن القول إن فترة المماليك بدأت بصلاح الدين، وفي الواقع أنه كان هناك مماليك- أى أرقاء من البيض- منذ أمد بعيد، وأن كثيرًا منهم قد أصبح له شأن كبير.

فابن طولون- أو على الأصح أبوه- كان مملوكًا، كما أن كثيرًا من الحكام الذين جاءوا بعد ذلك ينتمون إلى نفس طبقة العبيد المعتقين، سواء الأتراك منهم أو اليونانيين المستوردين من آسيا الصغرى أو من التركستان. ولقد استطاع العبيد في عهد الخلفاء الفاطميين أن يرقوا إلى أسمى الدرجات، فقد كان جوهر- مؤسس القاهرة - من اليونانيين أو

الصقالبة، ولو أننا لا نستطيع أن نذكر من أيهما كان هو على وجه التحديد، كذلك رأينا العبد الأرمني «بدر» قد أصبح في الواقع سيد مصر.

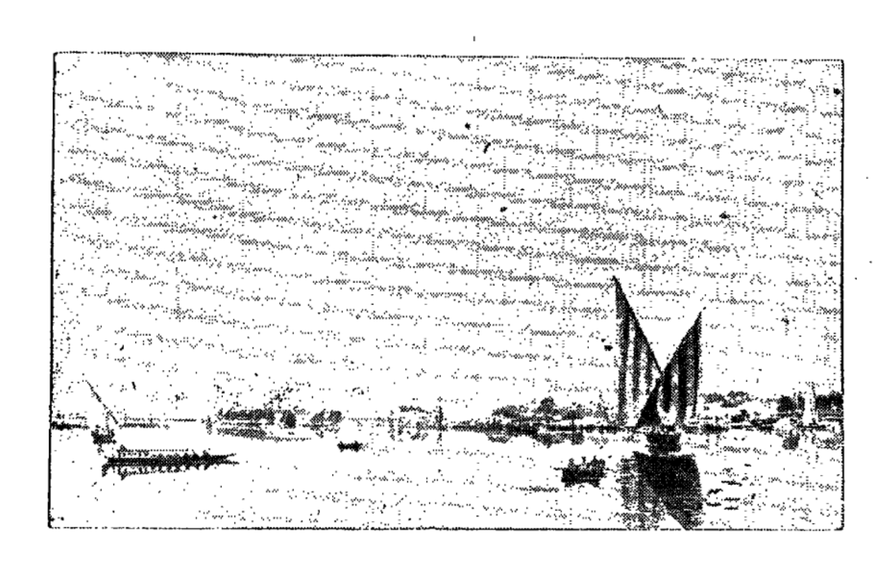
فليس الرق في الشرق إذن من العار في شيء، بل على العكس من ذلك تجد العلاقة بين السيد وعبده تطغى وتسمو على مجرد الخدمة، ذلك أن العبد كان يعتبر في العادة كأحد الأبناء، وإنا لنجد مثلًا لطيفًا لهذا الشعور يتجلى في وصمة العار التي انطبعت على جبين الأمير المشهور قوصون في القرن الرابع عشر، لأنه لم يكن له الحظ في أن يكون عبدًا لأحد، شأنه في ذلك شأن سائر أبناء طبقته في ذلك الوقت، وكانت جيوش الفاطميين حافلة بمثل هؤلاء المماليك الذين أحرزوا جاهًا وثروة. غير أن هذا النظام لم يكن قد وصل إلى الكمال الذي نشاهده في عهد خلفاء صلاح الدين، ولقد ترعرع بطل الإسلام العظيم في كنف النظام المملوكي، الذي وضع أساسه السلاجقة وأتباعهم، الذين كانت تستند قوتهم إلى نظام عسكري يتألف من قوات من المتطوعة أو من عبيد الشراء، تُدفع لها رواتبها من إقطاعات الأراضي والقصور والمدن، أو حتى من ولايات بأكملها، وكانت هذه القوات تقوم على أساس نظام عسكري بالغ الصرامة، وكان كبار أصحاب الإقطاعات يؤجرون جانبًا من إقطاعاتهم لأتباعهم الأقل شأنًا منهم، وكان عليهم أن يحضروا عددًا معينًا من الرجال لسيدهم، كما أن هذا السيد بدوره كان ملزمًا بأن يحضر جنوده لمساعدة السلطان في حروبه.

وكان هذا النظام سائدًا في جميع الولايات التي يحكمها قواد دولة السلاجقة، ولقد عمل نور الدين، الذي كان من قواد السلاجقة، على إدخال هذا النظام في سوريا، كما أن صلاح الدين– الذي درج في ظل نور الدين– أوجده في مصر، حيث كانت الأراضي والقرى تقسم على قواعد جيوشه الذين كانوا يعيشون فيها في الشتاء، فإذا ما أقبل فصل الصيف، وهو موسم الحرب في ذلك الوقت، ساروا على رأس أتباعهم ليلحقوا بسيدهم الأعظم.

وكان نظام الإقطاع هذا سائدًا في مصر منذ دخلها صلاح الدين وجنده الأتراك حتى تولى محمد علي باشا الحكم في القرن التاسع عشر، وقد تجلت سيادة هذا النظام في القاهرة حين كون الصالح – حفيد العادل – فرقة مختارة من المماليك في القصر الجديد وفي الثكنات التي بناها فوق جزيرة الروضة في مواجهة مدينة مصر، ومن موقع هذه الثكنات على النهر «البحر»، عُرف أولئك المماليك باسم «المماليك النيلية» أو «المماليك البحرية»، وقد قررت بسالتهم الرائعة في موقعة المنصورة بقيادة بيبرس وهزيمتهم أمهر فرسان أوروبا، مصير حرب لويس التاسع الصليبية، ومن ذلك الحين أخذوا يحكمون مصر مدة قرن ونصف القرن.

وعلى الرغم من الفوضى والاستبداد والجور والدسائس والمذابح– التي سادت في ذلك الوقت– يعد حكم المماليك البحرية من أروع الصفحات التي سجلها تاريخ القاهرة، ويجب ألا يغرب عن بالنا أن

انتصارهم الباهر في موقعة المنصورة لم يكن بالشيء اليسير، إذ كانت تحكمهم في ذلك الوقت امرأة، ونحن نعلم أن التاريخ الإسلامي لا يشتمل على ملكات إلا فيما ندر، ذلك أن النبى (صلى الله عليه وسلم) حال دون ذلك.



جزيرة الروضة

غير أنه من بين النساء المسلمات الثلاث أو الأربع اللاتى ارتقين العرش؛ كانت الملكة «شجرة الدر» تحتل المكانة الأولى، ولم تكن هذه سوى واحدة من الجواري قد مات سيدها وزوجها الصالح- حفيد العادل- أثناء الحرب مع الصليبيين، ومن ثم هبت في الحال للقيادة، وجعلت من خبر موت السلطان سرًا مطويًا حتى يحضر ابنه من أقاصي الإمبراطورية، وهكذا قبضت على زمام الحكومة، ونظمت الدفاع، وأصدرت أوامرها إلى القواعد والحكام الخاضعين لها، وبذلك استطاعت

بفضل شجاعتها وفائق ذكائها أن تسيطر على أمور الدولة كلها، ولما حضر الوريث في سنة ١٢٥٠م تخلت عن نيابتها للملك.

غير أن المماليك الحانقين لما قاموا في وجه الوريث القاسي وقتلوه– وكان ذلك بعد شهرين تقريبًا – استعادت شجرة الدر سلطانها، ويمكن القول إن القديس لويس يدين بحياته إلى كرم أخلاق شجرة الدر وشهامتها لقبولها الفدية منه.

كانت شجرة الدر ذات صفات عظيمة، تحمل لقبًا انتهى إليها بولادتها ابنًا للسلطان «الصالح» الأيوبي الراحل، وبالرغم من وفاة هذا الطفل، كانت تدعم مركزها في الحكم بهذه الأمومة، وكان توقيعها ونقودها(١) تحمل صنوفًا من الألقاب النسائية تنتهي «بأم الملك خليل» المنتصر، ولو أن الملك الطفل لم يكن يعلم أنه ملك.

لم تتمتع شجة الدر بالحكم منفردة مدة طويلة، لأن فكرة تولي النساء العرش كانت أكثر من أن يحتملها تحيز المسلمين، فقد تدخل خليفة بغداد في الأمر بكل ما أوتي من قوة وسلطان، وكتب إلى أمراء القاهرة يقول: «إذا كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلًا»، ومن ثم تزوج القائد «أيبك» الملكة شجرة الدر وأشرك معها في الحكم طفلًا من أقارب صلاح الدين، ليبقى مظهر الحكم في الأيوبيين، واستمرت شجرة الدر تحكم بالفعل، إذ وضعت يدها على الخزينة، ولم تكن تعامل زوجها الجديد بالاحترام الواجب، ولما كانت امرأة قبل كل شيء انتابتها غيرة النساء حتى أنها جعلته يطلق زوجة

أخرى، ولما سولت له نفسه الزواج من إحدى أميرات الموصل، استسلمت شجرة الدر في بادئ الأمر وطوت الخبر على حقد مرير، ثم ما لبثت أن استدرجته بكلماتها المعسولة إلى القلعة حيث أسلمته إلى غلمانها فقتلوه في الحمام، وكان ذلك في سنة ١٢٥٧م، وكان جزاؤها على هذه الفعلة الشنعاء سريعًا ورادعًا، فلم تُمهل أكثر من ثلاثة أيام إذ قبض عليها المماليك واعتقلوها في البرج الأحمر حيث أخذت تسحق مجوهراتها وحليها في هاون حتى لاتتزين بها امرأة أخرى من بعدها، وكان الحقد يمزق فؤادها تمزيقًا، ثم سيقت أمام الزوجة التي أكرهت زوجها أيبك على تطليقها، وما لبثت أن لقيت مصرعها بقباقيب النساء، وبقيت جثتها في فناء القلعة حتى تكون عبرة لغيرها، إلى أن جاء أخيرًا بعض ذوى الخير وتولوا دفنها، ويمكن مشاهدة قبرها الذي لا يزال قائمًا بجوار ضريح «السيدة نفيسة»، ولقد قام أحد أفاضل القوم فغطاه بقماش نقش عليه بالذهب اسم شجرة الدر.

من ذلك الوقت بدأ حكم المماليك البحرية خالصًا لهم دون أن يشترك فيه أحد من بيت صلاح الدين، ولو أن هذا الحكم لم يسلم في الوقت نفسه من المعارضة والدسائس من جانب أفراد الأسرة في سوريا، ولا من العداء من جانب عرب مصر الذين قاموا بحركة وطنية، ولكنهم لم يلبثوا أن سكنوا حينما استُخدمت معهم القسوة والقوة.

والواقع أن مجرد تعاقب ثلاثة وعشرين سلطانًا من المماليك البحرية وجميعهم من الأتراك وأغلبهم من القفجاق الذين خلفوا «أيبك» وحكموا من سنة ١٢٥٧ إلى سنة ١٣٨٢م، قد يضللنا ما لم نضع نصب

أعيننا الظروف التي أحاطت بحكمهم، وليس بين هؤلاء الثلاثة والعشرين من حكم فترة طويلة سوى أربعة فقط: فمجموع الفترات التي حكمها بيبرس وقلاوون والناصر وحسن يبلغ نصف الفترات التي حكمها الثلاثة والعشرون سلطانًا.

ولم يكن السلطان في الواقع أكثر من مملوك كبير المقام ينتخبه رفقاؤه، كان أحدهم يشعر بأنه ند له، مثال ذلك أنه لما انتُخب لاجين سلطانًا نتيجة دسائس الأمراء، سار هؤلاء في ركابه وأقسموا له يمين الطاعة والولاء، غير أنهم في الوقت نفسه جعلوه يقسم، ثم يعيد القسم، بأنه سوف يكون واحدًا منهم، لا يعمل شيئًا دون أن يستشيرهم، ولا يؤثر مماليكه دونهم. ولما حنث في يمينه وخص بعضهم دون البعض الآخر، لم يكن نصيبه سوى الاغتيال على أيدي هؤلاء الأمراء.

والواقع أنه لم يكن ليصمد طويلًا في ذلك المنصب الخطير سوى الأقوياء وحدهم، ولعل بعض الفضل في بقاء بيبرس طويلًا في منصبه، يرجع إلى تلك الحروب الرائعة التي قام بها في سوريا، ولما أطاح القدر بحياة هذا الرجل القوي، كان على ابنه أن يعتلي العرش سدًا للثلمة التي حدثت، على حين أخذ الأمراء المتنافسون يتبارون في إظهار قوتهم، فيعقدون الاجتماعات، ويستميلون الخصوم، إلى أن يتقدم أعظمهم قوة – أو أكثرهم سياسة ودهاءً– فيزيح عن العرش من يكون متربعًا عليه مؤقتًا، ويعتليه هو محتفظًا به أطول مدة مستطاعة، ثم تمضي السنون، وتظهر المشكلة من جديد، وهكذا دواليك.

على أنه يجب علينا أن نوفي المماليك حقهم كجنود أكفاء، فقد كان عليهم أن يواجهوا أبشع الغارات التي شنتها عليهم قبائل المغول بقيادة خلفاء جنكيز خان، أربع مرات، وكانوا في كل مرة يردونهم على أعقابهم، فقد حمل قطز عبء القتال في المرة الأولى، وكان رسل هولاكو من المغول يفدون على القاهرة، يطلبون الإذعان والتسليم في صلف وقحة، إلا أن قطز قطع رءوسهم وعلقها على باب زويلة، ثم تقدم إلى سوريا فهزم المغول هزيمة منكرة عند عين جالوت في سنة ١٢٦٠م، وخلص البلاد من شرهم.

كما أن «بيبرس» عبر نهر الفرات على رأس قواته عائمًا وهزم المغول عند بيرا سنة ١٢٧٣م، ثم اتجه إلى الغرب حيث قتل سبعة آلاف من الأعداء في أبلستين، وارتقى عرش السلاجقة الذي اغتصبه المغول، عند مدينة قيصرية في كيادوكيا.

أما قلاوون فقد رد غزوًا آخر في سنة ١٢٨١م، واستطاع بفضل سيطرته وسلطانه أن يجند جيشًا من مختلف الأجناس، فمنهم المماليك من الحرس، ومنهم الأتراك، ومنهم بدو الصحراء، ومنهم العرب من ناحية الفرات والحجاز، وكان يشد أزر هؤلاء جميعًا جنود حماة المحنكون وكان لا يزال عليها أمير من بيت صلاح الدين، فاستطاع السلطان بكل هؤلاء أن يحرز نصرًا مبينًا عند حمص حيث خاض جيشه غمار معركة حاسمة، وهكذا حرر السلطان سوريا مرة أخرى من جموع المغول، التي كانت تجتاح البلاد وتنتشر فيها انتشار الجراد.

غير أن المغول ما لبثوا أن عادوا في عهد ولده الناصر، وفي هذه المرة حلت بالجيش المصري الهزيمة في موقعة الخزندار بالقرب من حمص عام ١٢٩٩م. وقد سقطت مدينة دمشق، وظهر في القاهرة رسل المغول مرة أخرى، ليرغموا السلطان على الإذعان، إلا أن المماليك على الرغم من هذا لم يفقدوا روحهم المعنوية، فقد نشط صناع الأسلحة في القاهرة، وكان المجندون يفدون زرافات ووحدانًا.

وبلغ من شدة الحاجة إلى الجياد أن ارتفع ثمن الحصان من اثني عشر جنيهًا إلى أربعين جنيهًا، أما سوريا فكانت تخيم عليها سحابة من الرعب، بعدما خلفه فيها المغول من فوضى. إلا أن كبار الأمراء – من أمثال بيبرس الجاشنكير وغيره من رؤساء المماليك– ركبوا في كبرياء وساروا في طريقهم إلى النصر، وهكذا تقابل الجيشان المتعاديان مرة أخرى.

وفي سهل «مرج الصفر» في سنة ١٣٠٣م، وللمرة الرابعة والأخيرة، هُزم المغول وطُردوا من سوريا، وعاد الناصر إلى القاهرة متوجًا بإكليل من المجد والفخار، وكان الرسل قد أذاعوا الأخبار، وأخذ الأمراء يتنافسون فيما بينهم على إقامة السراداقات والخيام النفيسة على جانبي الطريق الذي سوف يجتازه الموكب، وكان محرمًا على العمال في ذلك الوقت أن يقوموا بأي عمل آخر سوى تشييد تلك الزينات الفاخرة، وأُجِّرت الحجرات التي على جانبي الطريق، حتى تراوح إيجار الحجرة الواحدة منها بين جنيهن وأربعة جنيهات في ذلك اليوم، وقد بسطت الطنافس الحريرية على طول الطريق، وأخذ السلطان الفخور يمر في ركبه بين الزينات الرائعة التي أقامها له الأمراء، بينما سارت جموع الأسرى من

المغول، كل أسير منها يحمل رأس زميل له مشدودة إلى عنقه لتكتمل بذلك المنظر بهجة النصر، وكانت الأصوات والهتافات تنبعث من كل مكان، كما كانت أنغام الموسيقى وقرع الطبول يصم الآذان.

لم يكن المغول وحدهم هم الذين لقوا الأمرين ولمسوا بأس المماليك، فإن بيبرس الأول العظيم، وهو تركي أزرق العينين أصيب بمرض في عينيه جعل ثمنه في سوق الرقيق لا يزيد على عشرين جنيها، قد أتى من نبلاد القفجاق، وعلى الرغم من نشأته المتواضعة، كان له من الشجاعة والحماس ما جعله يطمع في أن يصبح يومًا مثل صلاح الدين، ومن ثم نراه يقوم بالحرب المقدسة عشر سنوات في فلسطين، حيث كان الفرنجة يميلون إلى التحالف مع المغول، ولقد استولى على كل من قيصرية وأرسوف في سنة ١٢٦٥م، بعد أن أحالها أطلالًا، ثم جر حماتهما إلى القاهرة يجرون أذيال الذل والعار، وهناك أمر بعرضهم وهم يحملون الأعلام المنكسة والصلبان المكسورة.

وعلى الرغم من أن بيت المقدس كانت قد استُردت من المسيحيين قبل ذلك بعشرين سنة، كانت آثار الحرب الصليبية لا تزال تضطرم نارها تحت الرماد على الساحل وفي بعض الحصون الداخلية، لذلك عقد بيبرس العزم على أن يخمد آخر جذوة منها، ففي سنة ١٢٦٨ فتح يافا، أما أنطاكية وهي حاضرة شمال سوريا المسيحية، فقد حوصرت وأحرقت عن آخرها، وبعد ذلك بثلاث سنوات سقطت قلعة فرسان المعبد العظيمة ونكست أعلامها، وفقد الفرسان الجرمان (١) مونت فورت، وحتى

جزيرة قبرص التي كان الفرنجة يستوردون منها مؤنهم قد غزاها أسطول المماليك، وتم الاستيلاء على الحدود الواقعة على الجبال وتجريدها من السلاح.

وقبل أن يلقى بيبرس حتفه كانت أوامره تُطاع من البحر الميت (١)، ووادي نهر الفرات شمالًا إلى جنوب بلاد العرب وشلال النيل الرابع جنوبًا كما أصبحت المدن المقدسة: مكة، والمدينة، وبيت المقدس، داخله في أملاكه، وكذلك استولى على ميناءي سواكن وعيذاب على البحر الأحمر، وكان عرب الصحراء جميعًا طوع أمره، كما أدى له رؤساء المغاربة، وكان الخان الأعظم للقبائل الذهبية على نهر الفولجا حليفًا له، وقد أرسل له ابنته لتصبر زوجة له.

وعلى الرغم من أن بركة خان كان مغوليًا، فإنه كان عدوًا قديمًا لمغول فارس الذين كانوا قد انتشروا في سوريا، كما أن السفارات كانت قد تبودلت مع إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية الذي سمح ببناء مسجد في القسطنطينية، بينما زوده بيبرس بأحد البطاركة، كذلك كانت هناك علاقات سياسية وتجارية مع كل من منفريد صاحب صقلية، وجيمس صاحب أرغون، وألفونسو صاحب إشبيلية، وشارل صاحب أنجو، ولكى يتوج بيبرس انتصاراته بإكليل من الغار، عمل على إحياء الخلافة العباسية القديمة التي أزالها المغول من بغداد في سنة ١٢٥٨م، ومن ثم أحضر إلى القاهرة رجلًا من سلالة الخليفة العباسي، وأسكنه في القلعة تحوطه الأبهة والجلال ونصبه خليفة شرعيًا للإسلام، وقد مثل بيبرس بين يدي ضيفه

الخليفة في خشوع وتسلم من يده البردة والعمامة السوداء والخاتم وهي الخلع التي جرى العرف أن يتسلمها السطان الشرعي من صاحب السلطة الدينية العليا، ومنذ ذلك الحين أصبح في القاهرة خليفة – على الرغم من أنه كان ألعوبة في يد السلطان– حتى جاء الغزو العثماني وتحولت الخلافة إلى سلاطين العثمانيين في سنة ١٥٣٨م (٢).

كان بيبرس جنديًا محنكًا وسياسيًا قديرًا– ولو أنه لم يكن يؤمن جانبه – وكان قادرًا على إدارة شئون البلاد في قوة وحزم، ففي عهده تمت السيطرة على الأراضي المقدسة، ولم تكن جهوده في ذلك لتختفي على أحد، وكان يبدو كأنه في عدة أماكن في وقت واحد، لأن رحلاته كانت سرية وحثيثة، ومن الأمور المحببة إليه أنه كان يظل مختفيًا في القلعة بضعة أيام يراقب أعمال نوابه، في الوقت الذي كان يسود فيه الاعتقاد بأنه سافر إلى سوريا.

ولقد أمضى الجانب الأكبر من حكمه في حروب ونضال في خارج مصر، ولكنه كان يمضي شهور الشتاء في القاهرة عادة، حيث كان يريح جنده في الوقت الذي تعوق الأمطار والثلوج سير الجيوش، وكان ينتهز تلك الفترات ليقوم بالإصلاحات اللازمة في حاضرة البلاد وفي ريفها، ولم يكن شغفه بالشئون العامة ليتجلى في بناء المساجد والمدارس أو في إعادة بنائها، أو إعادة بناء دار العدل عند سفح القلعة بل إنه عمل في توسيع جداول الري القديمة وحفر أخرى جديدة، كما شق الطرق وبنى الجسور، وحصن مدينة الإسكندرية وأصلح منارها، كذلك عمل على

حماية مصبي النيل من خطر الغزو الأجنبي، وأعاد الأسطول المصري إلى ما كان عليه بأن بنى أربعين سفينة حربية.

وقد بلغ عدد قواته المنظمة اثني عشر ألفًا، عدا الجنود المصريين والعرب والجند المؤقتة، ومن الطبيعي أن نفقات الحرب الطائلة كانت تقتضي جمع ضرائب باهظة، وعلى الرغم من أنه حينما تولى الحكم أراد أن يستميل الناس إليه بتخفيض الضرائب التي فرضها قطز إلى ستمائة ألف دينار في السنة، وجد نفسه مضطرًا في نهاية الأمر إلى مواجهة نفقات حروبه بفرض ضرائب ثقيلة، ومع ذلك فإننا نقرأ عن إلغاء ضرائب قديمة أكثر مما نقرأ عن فرض ضرائب جديدة.

كما أن خزينة الدولة لم تكن تملؤها الضرائب التي كانت تجبى في مصر بقدر ماكانت تملؤها الأموال المرسلة من البلدان المهزومة ومن أنحاء سوريا، ومن الولايات التابعة له، ومن رسوم الجمارك.
وكانت حكومته مستنيرة عادلة حازمة، فلقد واجه مجاعة سنة ١٢٦٤م القاسية باستعداد سريع ينطوي على كثير من التعقل والكرم، ذلك أنه نظم مكيال القمح وعمل – وأرغم الأمراء والقواد على أن يعملوا معه – على إيجاد ما يكفي المعوزين من القوت ثلاثة أشهر.

كما أنه لم يسمح للخمر ولا للجعة ولا حشيشة الدينار بالدخول في ممتلكاته، برغم أن الضريبة التي تفرض على الخمور كانت تصل إلى ستة آلاف دينار في العام، كذلك حاول أن يستأصل شأفة الأمراض المعدية بواسطة الطرق العلمية. وكان بالغ الصرامة فيما يختص بأخلاق

رعاياه، إذ أغلق الحانات والمواخير وأقصى النساء الأوروبيات عن المدينة، وعلى الرغم مما كان يعرف عنه من انهماكه في الملذات، لم يكن مترفًا، فقد كان يُقبل على العمل في نشاط قلما نجد له مثيلًا، فإذا أمضى نهاره في الصيد والرماية والرياضة على اختلافها، أمضى ليله في أعمال الدولة، حتى أن الرسول الذي كان يصل في وقت السحر يتسلم الرد بعد ثلاث ساعات دون تأخير أو إمهال، وكثيرًا ما كان يملي أكثر من خمسين رسالة ثم يوقعها ويختمها في الهزيع الأخير من الليل بعد أن يكون قد أمضى وقتًا طويلًا في رياضة عنيفة، وكان البريد يرسَل مرتين في الأسبوع على ظهور الخيل، هذا إلى الاستعانة بحمام الزاجل المنظم.

فهل من عجب إذن أن يكون مثل هذا الرجل محبوبًا من الشعب الذي اتخذه مثالًا للملك الذي تتجلى فيه صفات الكرم والشجاعة؟ وهل من عجب أيضًا أن الشعب لا يزال يستمع بشغف حتى اليوم إلى القصص التي يرويها «الشاعر» عن الظاهر بيبرس في مقاهي القاهرة، وحتى رجال الدين كانوا يعجبون به ويجدون فيه ملكًا يرعى معاهد الدين بهباته، ويعدل في معاملة رجال المذاهب السنية الأربعة فيعين لكل فئة قاضيًا منهم.

بيد أن الأمراء والقواعد وحدهم هم الذين كانوا يخشونه، لأنه – وإن كان يحسن معاملة الصالح المطيع – لم يكن يغفر للسيئ، وكانت شكوكه تلاحقهم على الدوام في حركاتهم وسكناتهم، فكان من الطبيعي أن ينتقم منه أحد الذين يحقدون عليه، وقد حدث أنه مات في سنة

١٢٧٧م مسمومًا من كأس شربها، وربما كان قد أعدها لغيره، بعد أن دام حكمه الزاهر سبع عشرة سنة.

كان بيبرس المؤسس الحقيقي للقوة المملوكية وواضع نظام الحكم المملوكي، ومنذ اليوم الذي تولى فيه قيادة حرس المماليك البحرية ضد لويس، ملك فرنسا، في موقعة المنصوة، دأب على تقوية الجيش ورعايته، والتوسع في حركة التجنيد، وتشجيع العناصر المفيدة عن طريق توزيع الإقطاعات بسخاء، وكانت السياسة الخارجية التي سارت عليها مصر مدة طويلة من وضع بيبرس، كما كان بلاطه نموذجًا للسلاطين المتعاقبين، وكان قصره بالغ الروعة والبهاء، حيث كان يجلس السلطان يحيط به كبار رجال الدولة ورجال البلاط، وهم نائب السلطان، والقائد الأعلى للجيش والأستادار «مدير القصر»، وقائد الحرس، وحامل السلاح، وأمير آخور «المشرف على الركايب السلطانية» والساقي، والجاشنكير «ذواق الطعام»، والجمدار «حامل البقجة أوالثوب»، وأمير شكار «المشرف على الصيد»، و«الجوكان دار» حامل مضرب البولو، والبشمقدار «حامل الخف»، وصاحب المجلس، والجمقدار «حامل الدبوس»، والسناجقة، وأنابك الجيش ومساعدوه أمراء الطبلخانة الثلاثون يتبع كلا منهم أربعون فارسًا، وجوقة مكونة من عشرة طبول وأربعة أبواق، ثم الغلمان، والفرسان، والحجاب، وكاتمو السر، وأطباء البلاط، والقضاة، ورجال الدين (١)، كل هؤلاء الموظفين كانت تخصص لهم الرواتب والإقطاعات، فأمير الطبلخانة كان يصل دخله إلى ما يقرب من ستة عشرة ألفًا من الجنيهات في العام، ونستطيع أن نقدر الأموال التي

كانت تنفق على القصر، إذا علمنا أن عشرين ألف رطل من المأكولات كانت تعد في الأهراء السلطانية، وأن أثمان اللحم والخضر التي كانت ترد إلى القصر في عهد الناصر تتراوح بين ثمانمائة وألف ومائتى جنيه في اليوم الواحد.

وكان كبار موظفي القصر وقواد الجند هم بطبيعة الحال أكثر الرجال سلطة بعد السلطان، وكان كل منهم يعد نفسه خلفًا صالحًا للسلطان، وكانت سلامة السلطان ونفوذه يتوقفان على مقدار ولائهم، خاصة على ولاء حرس السلطان الخاص، وهو لواء مكون من عدة آلاف من الجند المختارين من ذوى الإقطاعات الواسعة في البلاد.

وكان كل واحد من الأمراء العظام – سواء أكان من قواد الحرس أو من رجال البلاط أو مجرد نبيل من النبلاء المقربين – صورة مصغرة للسلطان المملوكي.

فقد كان له كما للسلطان حرس خاص من العبيد، وكان هذا الحرس يقف بباب القصر في انتظار النبيل لاستصحابه أينما سار، كما كان رهن إشارته في اقتحام الحمامات العامة واختطاف النساء منها، والدفاع عنه إذا حاصر قصره نبيل آخر منافس له، كما كان يسير معه إلى ميدان القتال كلما دعى إلى ذلك. وكان هؤلاء النبلاء وأتباعهم خطر يهدد السلطان الحاكم باستمرار، فقد كان الساخطون منهم يكونون حلفًا يعضده بعض رجال القصر أو الحرس الخاص، فيتجمع أشياعهم في الطرق المؤدية إلى القصر بينما يسدد الساقي –أو غيره من الموظفين الذين

تسمح أعمالهم بالاقتراب من السلطان وملازمته – الضربة القاضية لسيده، أو يدس له السم في الكأس، ثم ينتخب المتآمرون من بينهم من يعتلي عرش السلطان الشاغر.

ولم تكن هذه الأعمال دائمًا لتخلو من المقاومة، ذلك أن حرس السلطان الخاص لم يكن من السهل رشوته أو التغلب عليه، كما لم يكن الحال يخلو من وجود نبلاء يرون في صالحهم أن يفضلوا الولاء للسلطان الجالس على العرش على الولاء لغيره من الأمراء الآخرين، وحينئذ ينتقل القتال إلى الشوارع، فيغلق التجار حوانيتهم فزعين ويفرون إلى منازلهم، ويوصد الناس الذين استولى الرعب على نفوسهم الأبواب الكبيرة التي تفصل بين الأحياء وتخلو الأسواق في المدينة، وتتقدم الأحزاب المتنافسة من المماليك، فتطوف بالشوارع التي يهجرها الناس بعد، ويستمر السلب والنهب وخطف النساء والأطفال، ويتقاتل الجند في الشوارع، وتطلق السهام والحراب من النوافذ، وكان تجار القاهرة الأثرياء يقفون خلف أبوابهم الضخمة يرتجفون رعبًا وفزعًا، ويقال إن خان الخليلي – وهو السوق الكبيرة في القاهرة – كانت تقف مدة أسبوع بينما يحارب الجنود في الشوارع المجاورة.

ولقد حدث مثل هذا حينما عزل كتبغا السلطان الناصر وهو طفل فترة من الزمن، ذلك أن الأشرفية، أو مماليك السلطان الراحل الأشرف خليل، قاموا بثورة وحاصروا القلعة، وحينئذ ركبت قوات كتبغا لقمع الثورة، واخترقت جموع المتآمرين وأعملت فيهم السيف، فمنهم من فقد

بصره، ومنهم من فقد عضوًا من أعضاء جسمه، ومنهم من غرق في النهر، ومنهم من طاح رأسه وعلق على باب زويلة، وهكذا بدأ حكم جديد في سنة ١٢٩٤م.

ثم أعقب ذلك انتشار الوباء، حيث أُخرجت سبعمائة جثة من أحد أبواب المدينة في يوم واحد، ولم يكد يصفو الجو حتى تلبد بالغيوم مرة ثانية، وظهرت مؤامرة جديدة اضطر كتبغا معها إلى الهرب، فانتخب النائب لاجين خلفًا له، وبذلك حلت الزينات في الشوارع محل المجازر البشرية وإراقة الدماء، وساد الفرح والارتياح بين أفراد الشعب، ذلك أن السلطان الجديد كان رجلًا كريمًا، وقد وعد بالتسامح في جمع الضرائب، ورخص ثمن الخبز، وهكذا أصبح لاجين محبوبًا من الشعب.

ومع أن فكرة الوراثة في الخلافة كانت غريبة عن النظام المملوكي، فقد كان فيها الخلاص من تلك المشاهد الدامية التي كانت تحدث من آن إلى آخر لاغتصاب العرش، وسرعان ما أخذ المماليك بها وراثة اللقب، وقد خلف خليل آباه قلاوون، ثم جاء بعده أخ أصغر يسمى الناصر محمد في سنة ١٢٩٣م، وعلى الرغم من أن هذا الأخير عزل فترة من الزمن وهو لا يزال طفلًا، عاد إلى العرش مرة أخرى في سنة ١٢٩٨م بعد قتل صهره لاجين، وحاول بيبرس الجاشنكير من جديد في سنة ١٣٠٨م، أن يغتصب العرش، ولكن الناصر استرد عرشه وبدأ حكمه للمرة الثالثة، واستمر يتمتع به إحدى وثلاثين سنة «١٣١٠-١٣٤١م»، وبعد وفاته

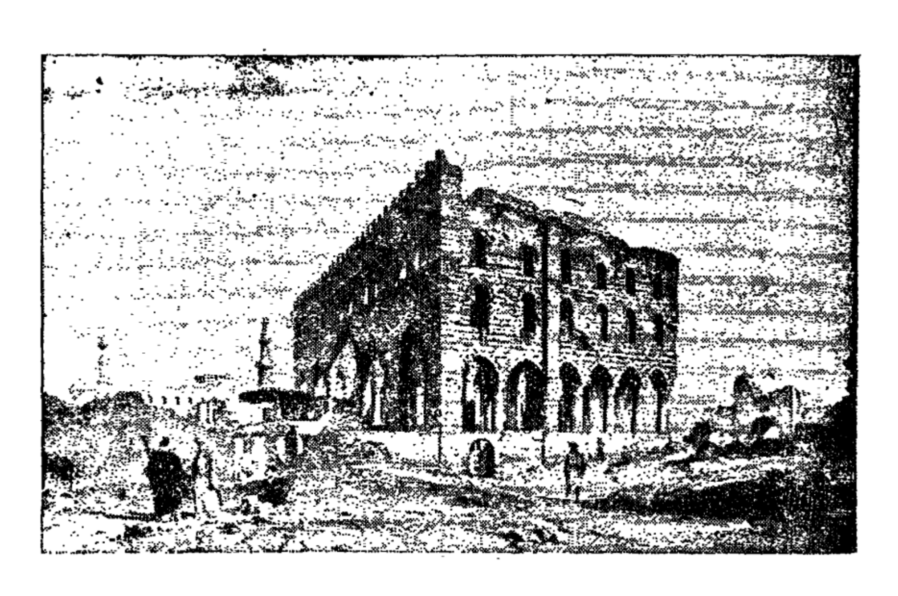
جلس خلفاؤه الضعفاء على العرش، ولم تكن لهم أى سلطة حقيقية، وقد ظلت الحال على ذلك حتى نهاية عهد هذه الأسرة.

وهكذا نجد أنه في الفترة التي تقع بين سنتي ١٢٧٩ - ١٣٨٢م، عدا ست أو سبع سنوات، كان يحكم مصر أفراد بيت واحد، هو بيت قلاوون، وكان مؤسس هذه الأسرة - الذي يدحض تاريخه النظرية القائلة بأن حكم هؤلاء الأجانب في مصر كان مجدبًا - شخصًا له مكانة رفيعة وكان قائداً شجاعًا، وسياسيًا حكيمًا، ومشجعًا للتجارة وتقدمها، فقد كان يحمي تجارة الذين يسافرون إلى الهند والصين، ويبذل أقصى ما في وسعه لتنمية تجارة البلاد، وكان مشغوفًا بالعمارة، شأنه في ذلك شأن أغلب سلاطين المماليك.

ومن عجب أن يقوم هؤلاء القوم بالعمارة خلال حياتهم المليئة بالحروب والمؤامرات: فقد بنت الملكة شجرة الدر - وهي أول من حكم مصر من المماليك - ضريحًا لزوجها الصالح أيوب في سنة ١٢٥٠م، وهو لا يزال قائمًا فوق جانب من موقع قصر الفاطميين القديم فيما بين القصرين، وبنى بيبرس مدرسة في سنة ١٢٦٢م في مكان آخر من القصر القديم عُرف باسم «قاعة الخيمة»، كما بنى مسجدًا كبيرًا خارج باب الفتوح في سنتي ١٢٦٧-١٢٦٩م، ومازالت المدرسة والمسجد قائمين إلى الآن، ولو أن المدرسة قد أصبحت خرابًا، وكان المسجد يستعمل مخبزًا للقوات الفرنسية منذ قرن، ثم تحول أخيرًا إلى سلخانة تُذبح فيها المواشى الخاصة بالجيش البريطاني، أما قلاوون فقد انتابه مرض خطير،

فأخذ على نفسه عهدًا بأن يبنى مستشفى، مازال قائمًا بجهة النحاسين، وعلى الرغم من أن مارستان قلاوون لا يستعمل للغرض الذي بني من أجله، فقد كان مأوى للمجانين إلى القرن الماضي، ويقع هذا البناء بجوار مسجد قلاوون وضريحه، ويتميز هذا الضريح بالنقوش التي على الجص، والأعمدة المقامة من الجرانيت الأحمر، والمأذنة المبنية من الحجارة ذات النقوش البديعة، والنحت الدقيق، وقد سار قلاوون في بناء مستشفاه كما سار سلفاه ابن طولون، وصلاح الدين اللذين بني كل منهما مستشفى من قبل.

وكانت حجرات النوم تحيط بفنائين، بينما تحيط بفناء آخر العنابر، وحجرات الدرس، والمكتبة، والحمامات، والصيدلة، وكل ما كانت تحتاج إليه المستشفيات في ذلك الوقت من آلات الجراحة، حتى الموسيقى كانت تستعمل لتخفف من آلام المرضى، كما استخدم المقرئون ليرتلوا كلام الله فتخشع قلوب النزلاء للذكر الحكيم، وكان الفقراء والأغنياء على السواء يعالجون دون أجر، وأنشئت بجوار المستشفى مدرسة تضم ستين يتيمًا يتلقون العلم بالمجان، ولا تزال المقبرة التي دُفن فيها السلطان الناصر العظيم وابنه مزارًا يقصدها الناس، فيتبركون بلمس ملابسهما اعتقادًا منهم بأنها وسيلة لشفائهم من عالمهم وأمراضهم على اختلاف أنواعها.



قاعة يوسف – قصر الناصر في القلعة

كان عهد الناصر الطويل عصرًا ذهبيًا لفن البناء والعمارة المملوكية، ومهما قيل من أن السلطان قد أفاد هو نفسه من الاستقرار الذي أوجده نظام الوراثة، فإن ثباته على العرش مدة طويلة، يرجع –إلى حد كبير– إلى صفاته الشخصية، إذ لاشك في أن الرجل الرزين، الصلب الإرادة الحاكم المفرد المستبد، القميء المنظر، القصير القامة، الأعرج الساق، الأرمد العين، ذو الملابس البسيطة، والأخلاق الصارمة، والذهن المتقد، والدهاء السياسي الذي تغالى فيه حتى صارع خداعًا لا غاية منه، والشكوك المتيقظة، والحقد الجائر، وهو في الوقت نفسه صاحب البلاط الذي تُضرب بفخامته الأمثال، وصاحب العمائر الرائعة – ذلك الرجل يعد من أبرز شخصيات العصر الوسيط، كما تعد أيام حكمه الذروة التي وصلت إليها المدنية المصرية وثقافتها، ولقد أكمل الناصر الأعمال التي

بدأها من قبله بيبرس وقلاوون، فحافظ على محالفة القبيلة الذهبية المغولية، وتزوج أميرة من بلاد نهر الفولجا اسمها طلبية، لا يزال قبرها إلى الآن في المقابر الشرقية حيث دفنت جثتها مع جثة زوجة أخرى، كما حافظ على حدود الإمبراطورية من بيراموس ونهر الفرات شمالًا حتى سواكن وأسوان جنوبًا، ودان لنفوذه بعض حكام الحبشة، ولو أن هذه المحالفات لم تكن محالفات سياسية بالمعنى المعروف، وقد زوج إحدى عشرة من بناته لأكبر النبلاء في بلاده، وقد كلفته كل زيجة نصف مليون من الجنيهات.

ولم يكن الناصر سياسًا فحسب، بل كان مزارعًا، ومدربًا للخيول، ورياضيًا، وكان يشتري الحصان بأربعة آلاف جنيه، وكان له سجل خاص بالخيول، فيعرف أصل خيوله، وأنسابها، وأثمانها، وأعمارها، وكان يروض ثلاثة آلاف مهر في كل سنة مستعينًا في ذلك بالبدو في خدمتها، وكان يشملها في السباق، ويعني بها هو وأمراء دولته العناية كلها، وكان في حوزته ثلاثين ألف رأس من الغنم يستورد خير أنواعها من البلاد الأجنبية، كما كان مغرمًا بالصيد بالباز، شأنه في ذلك شأن معظم السلاطين، وقد وفد إليه ابن بطوطة الرحالة المشهور سنة ١٣٢٦م فقال عنه إنه ذو خلق نبيل وفضائل جمة، كريم، سمح النفس، مثابر، لا يهمل ما أخذ نفسه به.

كان يجلس مرتين كل أسبوع ليستمع بنفسه إلى المظالم، وقد سعدت مصر في مدة حكمه، إذ ألغى الضرائب الفادحة وسن نظامًا

جديدًا لمسح الأراضي، وعاقب بالجلد الطحانين والخبازين الذين حاولوا رفع الأسعار في السنوات التي أصاب القحط البلاد فيها، ويروى عنه أنه بلغه أن الأمير العظيم «قوصون» زوج إحدى بناته اغتصب ما ليس له، فأحضره وصفعه بسيفه وجلد وكيل أعماله بالسياط، وكانت يقظته وسهره على أمور الرعية سببًا في خفض الأسعار، كما أدت القسوة التي تميزت بها عقوبته إلى منع شرب الخمور واختفاء البغاء، وعلى الرغم من أنه جمع الكثير لنفسه بمصادرة كثير من أملاك النبلاء عاد النظام الجديد الذي وضعه على البلاد بالسعادة والرخاء.

وكان الناصر متسامحًا حتى مع القبط، على الرغم من أن المسيحيين لم يجدوا في أيام المماليك من المعاملة الحسنة ما تعودوه في أيام الفاطميين وفي عهد الملك الكامل. فقد خربت الكنائس بعد أن دخل صلاح الدين مصر، ولو أن ذلك التخريب لم يكن نتيجة تعصب الغزاة بل كانت نتيجة إحراق مدينة مصر وأحداث الحرب، ولم يكن صلاح الدين صديقًا للمسيحيين، فقد كان متشددًا في دينه الإسلامي، حتى أنه كان لا يتسامح مع الخارجين عليه، وعلى الرغم من ذلك لم يكن يضطهدهم أو يلحق بهم الأذى، ويرجع خروج بطريرق الأرمن وأتباعه إلى علاقة الأرمن الوثيقة بحكومة الفاطميين أكثر مما يرجع إلى التعصب الديني.

وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية في فلسطين قامت في وجه العنصر اللاتيني من الكنيسة الكاثوليكية المسيحية، أساءت المرارة التي

تولدت من هذه الحروب إلى القبط المسيحيين، وكان العادل أخو صلاح الدين، يعامل رعاياه المسيحيين معاملة بالغة الصرامة والقسوة، وكثيرًا ما كان ابنه الكامل يشفع لهم عنده، ولما اعتلى العرش، أظهر روحًا نادرة من التسامح لم تكن معروفة في هذه الأيام، حتى أنه أحسن استقبال القديس فرنسيس الأسيسى، حين جاء إلى الكامل ليعلمه الدين الصحيح كما يراه هو. وقد أجمع المسيحيون على أنهم وجدوا في أيام الكامل من التسامح ما لم يروه في أى عهد من عهود الملوك الآخرين، ويبدو أن ابنه الصالح سار سيرة أبيه، خلال الفترة الوجيزة التي حكم فيها، كما يستدل مما كتبه إلى البابا «إنوسنت الرابع» من أنه يأسف لعدم تمكنه من مخاطبة الرهبان الدومينيكان بسبب جهله اللغة اللاتينية.

ومن الطبيعي أن تقلب الحرب الصليبية التي شنها لويس التاسع هذه العلاقات الودية رأسًا على عقب، وليس بعجيب أن يوجه المسلمون انتقامهم إلى أكثر الكنائس في مصر، فيأتوا عليها نهبًا وتخريبًا، ولم يكن من المنتظر أن يتمتع الرعايا المسيحيون بعطف السلاطين المتعاقبين، وقد أسكرتهم انتصاراتهم المتكررة على بقايا الفرنجة في سوريا، وقد أحدثت المدارس الجديدة التي أنشأها صلاح الدين تغييرًا في طباع أهل القاهرة، فقد كان أساتذة هذه المعاهد الدينية ينشرون روح التعصب ويشجعونها، وكان نفوذهم يقوى على مرور الأيام، ففي سنة ١٢٨٠م فصل جميع الكتبة من القبط الذين كانوا يعملون بديوان الجيش من مناصبهم وحل محلهم المسلمون، وفي سنة ١٣٠١ استهدف القبط لامتهان كرامتهم بإعادة الأحكام التي كانت تفرض عليهم زيًا خاصًا يلبسونه ليميزهم عن

غيرهم، وفي سنة ١٣٢١م تعرض المسيحيون للاضطهاد نتيجة سلسلة من الثورات والاضطرابات المحلية، وقد نشأت من تقدم أعمال الحفر في بركة الناصر، على مقربة من قناطر السباع غربي باب اللوق ومن مسجد طيبرس، أن وصلت إلى أسفل جدران كنيسة الزهرى التي كان الناصر قد أمر بألا تمس بسوء، غير أن الأهالي لم يكادوا ينتهون من صلاة الجمعة حتى توجهوا إلى كنيسة الزهرى فجأة – دون أن تعلم الحكومة بوجهتهم– فأعملوا فيها المعاول حتى هدموها عن آخرها، ثم انتقلوا منها إلى كنيسة الأنبا مينا في الحمراء فنهبوها، ثم اتجهوا إلى كنيسة العذارى بجوار الطواحين السبع، فأخرجوا الراهبات عنوة، وأتوا على الكنيسة سلبًا وحرقًا.

غير أن السلطان حينما رأى الدخان يتصاعد من الكنائس المحترقة، انتابته ثورة من الغضب، وأرسل من فوره بعض القوات لكبح جماح الشعب، وفي تلك الأثناء ترامت الأنباء بأن ثمة كنيستين قد أتلفتا في أحياء زويلة والروم، وأن الشعب يتعدى على الكنيسة المعلقة بحصن بابليون، ومن حسن الحظ أن قوات السلطان وصلت في الوقت المناسب لتحمي الكنيسة من عبث العابثين، ومن الواضح أنه كان هناك هياج عام، يغذيه المتعصبون والمشعوذون، إذ كان الواحد منهم يقف في المسجد ويهتف بسقوط كنائس الكفار ويصيح في المجتمعين: إلى الكنائس، إلى الكنائس.. وكان مثل هذا يحدث في جميع أنحاء البلاد، فأُحرقت كنائس في الإسكندرية، وفي دمشق، وفي قوص.

ولم يمض شهر على ذلك حتى أخذت ألسنة النيران تندلع في جهات مختلفة من القاهرة، وكانت الرياح العاتية تساعد على انتشارها، وأخذ الناس يصعدون المآذن ويضرعون إلى الله أن يكشف عنهم البلاء، وهم لا يشكون في أن المدينة بأسرها سوف تلتهمها النيران، وكان هناك صراخ وعويل، فجاء السقاءون يحملون القرب وتطوع أربعة وعشرون أميرًا من أكبر رجالات الدولة للعمل بمساعدة جموع من العمال، فصاروا يحولون المياه من الحمامات والأحواض، ويهدمون المنازل والفيللات لإفساح الطريق حول المباني التي شبت فيها النيران، وكان الشارع الذي يمتد من باب الديلم إلى باب زويلة تتدفق فيه المياه كأنها تجري في نهر، ولا يكاد الناس يخمدون النار في مكان حتى تشب غيرها في مكان آخر، وهكذا دواليك، ثم تبين للناس أن النيران تندلع بالقرب من المساجد، وأنها تهدف نحوها، وأن اندلاعها كان عمدًا بدليل ما كانوا يعثرون عليه من القماش المشبع بالزيت والقطران والنفط، وقد ضُبط أحد المسيحيين في داخل مسجد الظاهر وبيده جرة مبللة بالنفط والقطران وهو يوقد فيها النار، وقد اعترف في التحقيق بأن الحرائق كانت عملًا منظمات من صنع المسيحيين.

وكذلك اعترف راهبان، بعد تعذيبهما، بأنهما أشعلا الحرائق عمدًا، انتقامًا لما حل بكنائسهم من خراب ودمار، وقد استُدعي بطريرك القبط، فأعلن، والدمع ينحدر من عينيه، أن مشعلي النيران، هم أفراد من غلاة المتعصبين رأوا أن ينتقموا من الذين خربوا كنائسهم بنفس طريقتهم الحمقاء، فأعيد إلى بيته مكرمًا دون أن يمسه أذى، ولولا جنود السلطان

الذين كانوا يحرسونه لما نجا من سخط العامة الذين كانوا يريدون تمزيقه إربًا، وقد اكتفوا بإحراق أربعة رهبان من دير الملكانيين المعروف بدير القصير بجبل المقطم.

وحدث أن قُبض على رجلين من المسيحيين متلبسين بجريمة إحراق المنازل انتقامًا، فأمر السلطان بحرقهما أحياء على مشهد من الناس، وتصادف أن مر بالقوم وكيل أعمال مسيحي، فكاد القوم يلقونه في النيران لولا أنه ارتد عن دينه ليرضيهم، وكانت هذه الحوادث مما يزيد من خطر الدهماء يومًا بعد يوم.

وقد أزعج ذلك السلطان، فرأى أن يأخذ الشعب بالحزم لتهدئة النفوس، فأصدر أوامره إلى الجند بالتفرق في جميع أنحاء القاهرة لمنع التجمهر دون التعرض للوادعين، فطارت أبناء هذه القوة إلى الأسواق قبل أن تصل الجند، فلما وصلت وجدت الأسواق قد أغلقت وأن الناس قد هجروها، وأقفلت الشوارع التي تقع بين القلعة وباب النصر. غير أن الجنود قبضوا على نحو مائتي رجل بالقرب من النيل وأحضروهم أمام السلطان فأمر بقتل بعضهم وقطع أيدي البعض الآخر، وعبثًا حاول هؤلاء المنكودون إثبات براءتهم، وحاول بعض النبلاء أن يشفعوا لديه فيهم، غير أن الناصر رأى أن يجعل منهم عبرة حتى لا يعود الشعب إلى الاضطراب والثورة، فأمر بنصب المشانق من باب زويلة إلى الرميلة وعلق هؤلاء المسلمون البائسون من أيديهم.

وقد تمخضت هذه الاضطرابات عن إعادة الأحكام القديمة التي حاول الناصر إبقاءها منذ سنة ١٣٠١م، والتي تتعلق بتمييز المسيحيين بلباس خاص، فحرم المسيحي من ركوب الخيل، ومن لبس العمامة البيضاء، ومن ضُبط مخالفًا قُتل على الفور، وقد ألزموا بوضع العمائم الزرقاء، وتعليق الأجراس حول أعناقهم في الحمامات، وسُمح لهم بركوب الحمير دون سواها، على أن تكون وجوههم في مواجهة أذيالها، ومُنع الأمراء من اتخاذ خدمهم من المسيحيين، كما أوصدت أمامهم أبواب الوظائف الحكومية، ولم يكن أحدهم ليجرؤ على الظهور أمام الناس، حتى اضطر كثير منهم إلى اعتناق الإسلام.

وكان هذا الاضطهاد أسوأ ما تعرض له المسيحيون منذ أيام الخليفة الحاكم الفاطمي قبل ذلك بثلاثة قرون، غير أنه يجب أن لا يغرب عن بالنا أن هذا الاضطهاد كان نتيجة تحرش الفريقين بعضهما ببعض، وكان وليد غضب الشعب ولم يكن من تعصب الهيئة الحاكمة. وقد تعرض القبط طوال عهد المماليك للاضطهادات، ولو أنها لم تكن عنيفة كالاضطهاد السابق، ويظهر أن القبط الذين نعموا بالتسامح وحسن المعاملة في الشوط الأخير من حكم الفاطميين كانوا قد أبطرتهم النعمة، وبدأوا يتعالون كثيرا، فجاءت هذه الاضطهادات، فأصبحوا قلة لا حول لها ولا قوة، واستمروا على هذه الحالة إلى الآن حيث بدأوا يتنفسون الصعداء مرة أخرى.

وبينما كانت الكنائس تُهدم، كانت المساجد تُشيد بسرعة تدعو إلى الإعجاب حتى أن المهندسين ورجال العمارة لم يروا عهودًا كعهد الناصر، وقد كان القدوة لرجاله في حسن الذوق وسمو الثقافة، وكان مشجعًا للعلماء والمتعلمين، وصديق المؤرخ العالم أبي الفداء الذي أعاد إليه ولاية حماة التي كانت متوارثة في أسرته منذ أيام الملك العادل أخي صلاح الدين، وكان عهده عهد إنتاج فني رائع، وما أنفقه السلطان وأمراؤه في البناء والنقش والزخرفة ليدل على ما وصلت إليه الدولة من الثروة والغنى وعلى أنها عرفت كيف تنفق ثروتها في حكمة وتدبير.

ولقد أمكن الاحتفاظ ببعض أثاث قصر الناصر، فهناك منضدتان مطعمتان بالفضة، محفوظتان في دار الآثار العربية بالقاهرة، كما أن أشهر ما بنى من العمائر– وهما مدرسته التي تقع بين القصرين على مقربة من المارستان الذي يرجع إلى سنة ١٣٠٤م، والتي أحضر بابها ذا الطراز القوطى أخوه خليل من عكا، ومسجده القديم في القلعة الذي يرجع بناؤه إلى سنة ١٣١٨م– يشهدان بحسن الذوق، على الرغم من أنهما لا يحتفظان– لسوء الحظ– إلا بالقليل من سابق عظمتهما وجلالهما. فقد تهدمت القبة العظيمة التي كانت تعلو مسجد القلعة، واختفت أغلب الأحجار الرخامية الملونة التي كانت تزين القبلة وحديد النافذة التي تطل على مقصورة السطان، ومازال هناك صف من النوافذ العلوية في جميع جهات المسجد، زال زجاجها الملون ونقوشها الزخرفية، وإنك لتدرك من الأعمدة الجرانيتية العشرة، ومن الرخام المزخرف على الجدار الجنوبي، ومن البقايا الأخرى، ما كان عليه المسجد من الروعة.

ولعل أهم ما يميز هذا المسجد، مئذنته المشيدة بالطوب الأخضر اللون، مما قد يعزى إلى النفوذ التتري، الذي وصل إلى مصر مع زوجة الناصر التي كانت تنتمي إلى القبيلة الذهبية التترية، ويعود الفضل في عدم تهدم مسجد القلعة تهدمًا تامًا إلى عناية الكولونيل س. م. واتسون (حامل نيشان القديسين ميخائيل وجون)، حيث حال دون استعماله مخزنًا للجيش، ورفع الفواصل الخشبية التي كانت قد أقيمت حين كان المسجد يستخدم سجنًا للجنود.

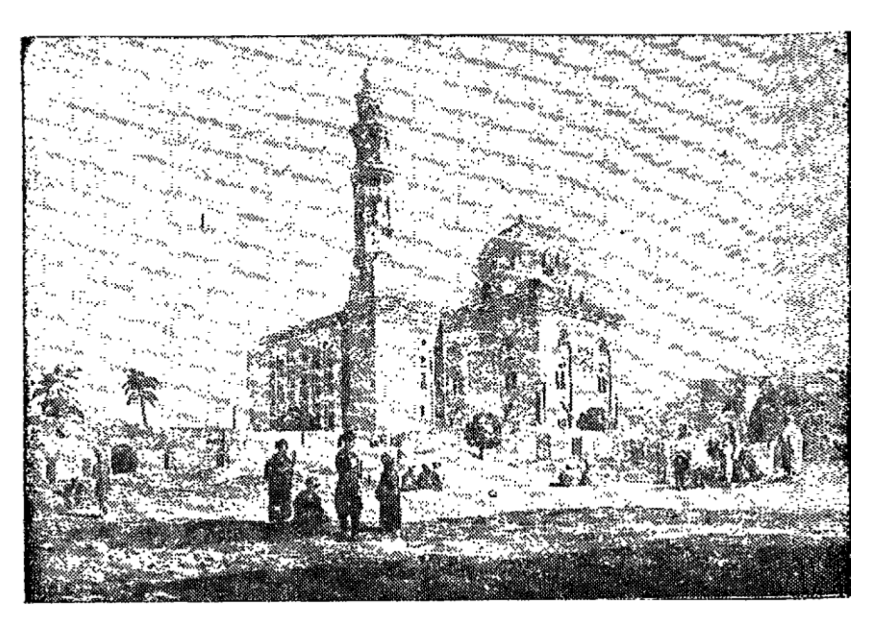


القنطرة المعلقة خلف طواحين المياه السبع

وكان بالقصر الأبلق الذي بناه الناصر في القلعة بهو تتخلله الأعمدة، مشيد من حجارة سوداء وأخرى بيضاء، ويقال إن تكاليف بنائه بلغت عشرين مليونًا من الجنيهات- ولو أن هذا المبلغ يبدو خياليًا- لا يزال قائما منذ خمس وسبعين سنة.

وقد أعاد الناصر تنظيم الحصن وزاد فيه، ويُنسب إليه بناء القنطرة التي كانت تمد القلعة بماء النيل في سنة ١٣١١م، ولو أن البعض يعزوها إلى صلاح الدين، ويعزوها البعض الآخر إلى عهد الأيوبيين، وينسبون إلى الناصر إعادة بنائها كما ينسبون إلى الغوري ترميمها، هذا إلى أنه بنى مسجدًا بجوار ضريح السيدة نفيسة، وقبة النصر بالقرب من الجبل الأحمر وغير ذلك من المساجد.

وكلما قام الناصر بعمل حذا حذوه رجال البلاط والحاشية، فلم يهدأ لأحد الأمراء في ذلك العهد بال، حتى يبني مسجدًا، أو مدرسة أو ضريحًا، ينهض دليلًا على تقواه، ويتقرب به إلى الله، الذي جعلته أعماله في شدة الحاجة إلى التقرب إليه، ولقد تأثر الرحالة المغربي ابن بطوطة – الذي بقي فى القاهرة في سنة ١٣٢٦م–بما رأى من غيرة الأمراء وتنافسهم في بناء المساجد والتكايا أو خلوات المتعبين، كخلوة الخانقاه وتكية بيبرس الجاشنكير التي لا تزال قائمة، كما يصف لنا نظام هذه الخلوات والتكايا (١)، ويقول إن المدارس أكثر من أن يحصيها العد، ثم يبدي إعجابه بمارستان قلاوون وما كان يحويه من أجهزة وعقاقير، ويتكلم عن نفقاته فيقول إنها تبلغ الألف دينار في كل يوم.



مسجد السلطان حسن

ولقد بُني أكثر من أربعين مسجدًا ومدرسة بين سنتي ١٣٢٠–1360م– أي أكثر من ربع العدد الذي دونه التاريخ منذ القرن الأول الهجري حتى أيام المقريزي، ولا يزال أكثر هذه المباني قائمًا إلى اليوم يشهد على سخاء هؤلاء النبلاء العظام، ومن تلك المساجد: جامع الأمير حسين «٧١٩هـ –١٣١٩م»، وجامع ألماس حاجب السلطان الذي بُني في سنة ٧٣٠هـ، وجامع قوصون الذي شُيد في سنة ٧٣٠هـ، وجامع بشناق «٧٣٦ هـ»، وجامع التنبغا المرادنى الساقي «٧٤٠هـ» وجامع إسلام حامل السلاح «٧٤٦هـ»، وجامع أقسنقر «٧٤٧هـ»، وجامع أرغون الإسماعيلي «٧٤٨هـ»، وجامع منجك الوالي «٧٥٠هـ»، وجامع شيخون «٧٥٠هـ»، ومن المدارس: مدرسة السلطان التي بناها حامل الصوالجة في سنة ٧١٩هـ، ومدرسة سنجر

الجاولي «٧٢٣هـ»، ومدرسة أحمد المهمندار «٧٢٥هـ»، ومدرسة السلطان أقبغا القهرمان أو ناظر المطابخ «٧٣٤هـ»، ومدرسة صرغتمش رئيس الحرس السلطاني «٧٥٧هـ»، ومن التكايا والخلوات البنية خانقاه الجاولى «٧٢٣هـ»، وخانقان قوصون سنة »٧٣٦هـ»، وخانقاه شيخو «٧٥٦هـ» هذا إلى جامع السيدة مسكة إحدى جواري الناصر وتدعى هدك «٧٤٠هـ»، ومدرسة السيدة تتر الحجازية بنت الناصر «٧٦١هـ»، والجامع الكبير المعروف بجامع السلطان حسن بن الناصر الذي يواجه القلعة «٧٥٧-٧٦٠هـ».

وإذا أردنا أن نصف كل المساجد التي بُنيت في عهد الناصر، لاحتجنا إلى مجلد كبير قائم بذاته، وقد تهدم بعض هذه المساجد، ولم يبق بها من البناء الأصلي إلا أجزاء قليلة، كما أن بعضها مثل مسجد أقسنقر والمسجد الإسماعيلي – في سبيل إتمام إصلاحهما– أحدهما قام بإصلاحه بذوق سليم، إبراهيم أغا في سنة «١٦٥٢»، والآخر قام بإصلاحه أحد أفراد الأسرة الخديوية منذ خمسين سنة، ولم يكن في ذلك شيء من الفن، وعلى كل حال فإن ما تبقى من البناء الأصلي في المساجد الأحد والعشرين، التي ذكرناها، يدلنا على مقدار التنوع والتحرر من المحاكاة في التفاصيل، وفي النقوش، حتى أن الوصف لا يمكن أن يغني عن المشاهدة، والواقع أن كل عمارة من هذه العمائر جدير بالبحث الدقيق والدرس.

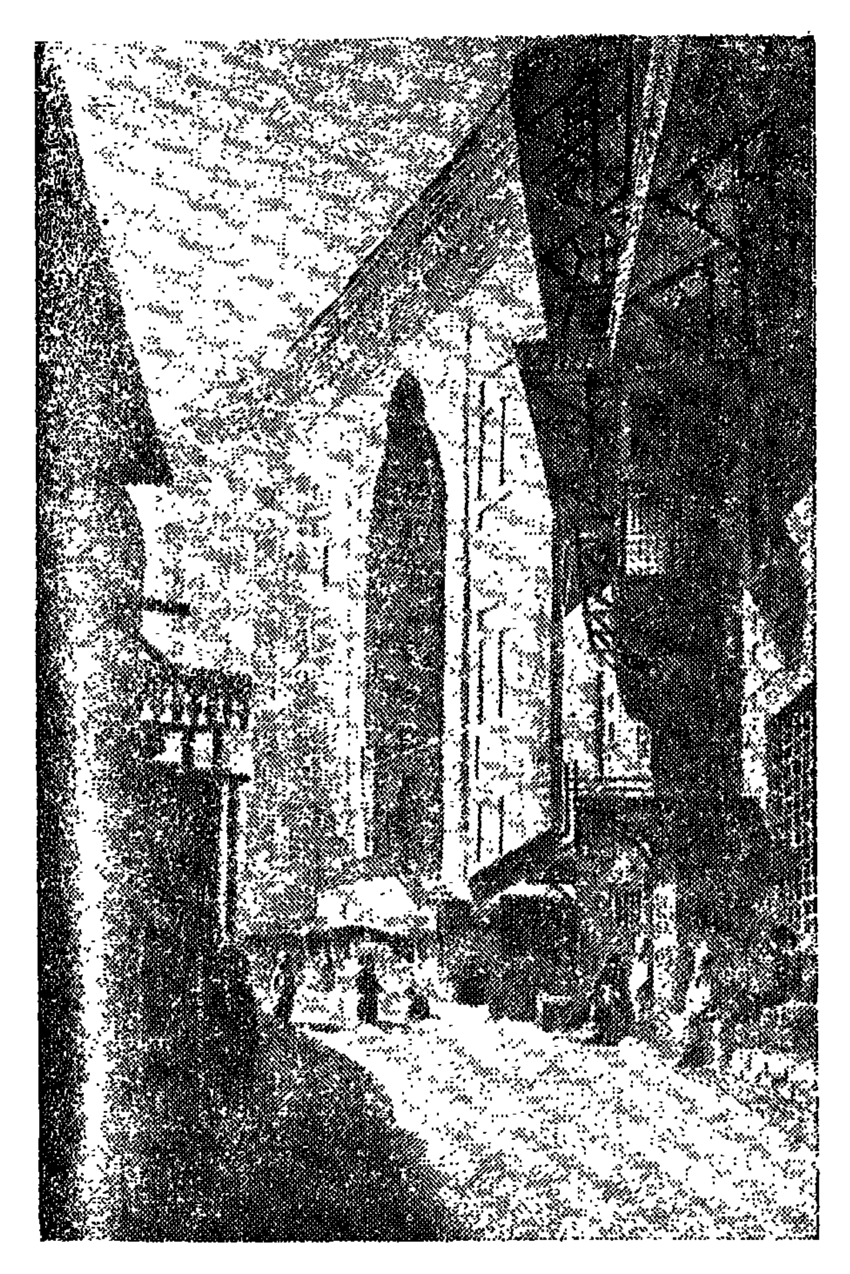
ومهما يكن من شيء، فإننا نستطيع أن نذكر هنا ثلاث ميزات انفردت بها هذه الأبنية فمن المعروف أن المساجد القديمة كانت خالية من

أي نقش من الخارج، فجدرانها كانت في غاية البساطة، وإذا استثنينا جامع الأقمر الذي شُيد في أواخر حكم الفاطميين، فإننا لا نجد لأحد المساجد واجهة مميزة.

أما مساجد المماليك – التي اقتُبس طرازها بلا شك من مباني الصليبيين في فلسطين – فإن لها واجهات فخمة، وقوارير غائرة، ومداخل غير نافذة، وأفاريز منقوشة.

والميزة الثانية في مساجد المماليك، هي التطور الذي أدخل على بناء المآذن فقد أصبحت أكثر رونقًا وجمالًا، واستُعملت فيها الحجارة الملساء، وأصبحت أدق في شكلها، فتدرجت من الشكل المربع، إلى المثمن، إلى الأسطواني، كما استُعملت فيها الزوايا المدلاة وقواعد الشرفات. أما الميزة الثالثة؛ فهي استعمال القباب الكبيرة فقد كان الشائع قبل ذلك هو بناء قبوة فوق المحراب أو فوق مدخل المسجد.

أما القباب فقد أدخل بناءها خلفاء صلاح الدين، ومن أمثلة ذلك القمة المقامة على ضريح الإمام الشافعي في القرافة، وربما في عمائر أخرى، غير أن ما تبقى من عهد الأيوبيين قليل جدًا لا يساعد على وصفها وصفًا دقيقًا صحيحًا.



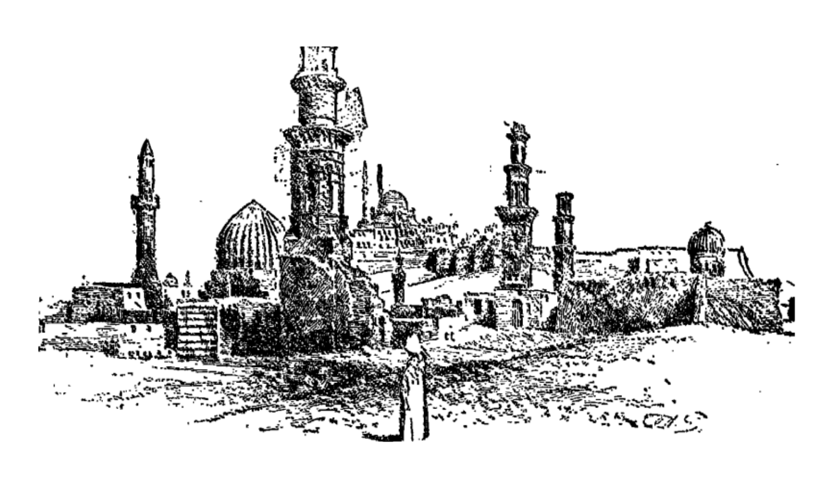
شارع مسجد السلطان حسن

على أن المماليك كانوا بحق سادة بناة القباب، وكان جانب غير قليل من مساجدهم ومدارسهم بمثابة أضرحة لمؤسسيها، فكان الضريح يلاصق البناء الرئيسي، وكانت القباب خاصة بالأضرحة، وهكذا بدأت المدينة منذ عهد المماليك تزدان بتلك القباب الجميلة التي مازالت حتى اليوم تضفي على مبانيها صبغة خاصة، ولقد تدرجت من قبة بسيطة تعلوها قبوة صغيرة، إلى قبة محفورة خطوطًا إلى قبة مزدانة بالنقوش والأشكال الهندسية والرسوم الدقيقة المحفورة على الأحجار، ومن أروع هذه الزخارف ما قام به السلاطين الشراكسة أو البرجية في القرن الخامس عشر، ولو أن القباب كانت قد احتلت مكانًا ملحوظًا في طراز العمارة العربية في القرن الرابع عشر.

ولعل أحسن مثال لأسلوب البناء في القرن الرابع عشر، هو جامع السلطان حسن الذي يحوي أغلب مميزات عصر الناصر ويعرضها لنا على نطاق واسع، ولم يكن السلطان حسن هذا شخصية محبوبة أو ذات منزلة تاريخية، فقد جلس على العرش من سنة ١٣٤٧ إلى سنة ١٣٥١م ثم عزله الأمراء، ثم عاد إلى العرش وحكم من سنة ١٣٥٤ إلى سنة ١٣٦١م، غير أن مسجده المشهور الذي بناه بين سنتي ١٣٥٦ و١٣٥٩م «٧٥٧-٧٦٠هـ» هو العمل الوحيد الذي رفع اسمه، ويقال إنه كان يكلفه ألف دينار في اليوم، إلا أننا لا نصدق هذه الأرقام التي تعود مؤرخو الشرق الغلو فيها.

ولقد بلغ من شدة إعجاب السلطان حسن بمسجده الرائع، أن أمر بقطع يد المهندس الذي أشرف على تشييده حتى يحد من تلك العبقرية فلا يشيد مسجدًا مشابهًا له.

ولقد بُني المسجد على طراز المدارس العالية في ذلك الوقت، وهي عبارة عن صفين من البناء متقاطعين على شكل صليب، يتوسطه فناء تخرج منه أربعة أروقة، وأما ضريح صاحب المسجد فيقع وراء الرواق في خلف المحراب، ولا يرى الناظر إلى المسجد من الخارج، الأضلاع على شكل الصليب، لأن الزوايا الواقعة بين الأروقة قد بُنيت فيها الحجرات والمكاتب (١)، ولعل أول ما يلاحظه الناظر إلى هذا المسجد من الخارج ارتفاعه إذا قورن بالمساجد الأخرى، فجداره يبلغ ١١٣ قدمًا، وهو مشيد من الحجارة الدقيقة التي أُخذت من الأهرام، ونوافذه – تعلو اثنتين منها عقوده على هيئة حدوة الفرس، وأما الباقي فهي مجرد فتحات غُطيت بالحديد المصبع، وهذه الفتحات هي كل ما يزدان به الجدار الشاهق العلو، ولكن أجمل ما في هذه الجدران، ذلك الإفريز البديع التكوين الذي يتوج الجدران ويتركب من ستة صفوف طباقية، وفي زوايا البناء أعمدة رشيقة متماسكة مع البناء، كما أن المدخل الرائع مقام في مشكاة مقوسة يبلغ ارتفاعها ٦٦ قدمًا، ومركز في قبة مكونة من اثني عشر صفًا من الحجارة المنقوشة المدلاة مزينة بالأفاريز الهندسية والأعمدة الركنية والرسوم العربية.



ضريح برقوق وفرج

أما في الداخل، فإن أول ما يسترعي النظر هو اتساع المسجد لا زخرفته، فالمسافة العظيمة بين الأروقة الأربعة التي يبلغ ارتفاعها في الجهة الشرقية ٩٠ قدمًا و٧٠ قدمًا لا نظير لها في مساجد القاهرة بأسرها، غير أن الطلاء الداخلي من الجص ينتقص من عظمة البناء، كما أن الرخام والنقوش الملونة، ولو أنها جميلة، إلا أنها لا تصل في تصميمها وتناسقها إلى نظائرها في محاريب المساجد الأخرى، هذا إلى أن الألوان السوداء والبيضاء والصفراء التي دُهنت بها الأفاريز أزهى مما يجب، وكذلك الحال في ألوان المنبر، إلا أن المحراب بديع النقش ودكة المبلغ مقامة على أعمدة من المرمر الملون على أعمدة من الخشب البسيط الصنع كما هو الحال في نظيراتها في المساجد الأخرى، وفي أعلى الجدران إفريز محلى بالكتابة الكوفية الجميلة، وأما الضريح الذي يصل إليه الزائر عن طريق المحراب من باب جميل الصنع، فهو مصفح بالبرونز على الطراز العربي ومحاط بساتر من المرمر ارتفاعه ٢٥ قدمًا علقت عليه آية من القرآن الكريم

منقوشة على الخشب، على حين تناهت زواياه إلى دائرة القبة الموشاة بالزخارف الخشبية المدلاة التي ظهرت عليها آثار القِدم، وفي وسط هذه الحجرة، القبر المصنوع من حجارة المرمر البسيطة الصنعة، ويظهر أن القبة حديثة الصنع، لا تتناسب صناعتها مع فخامة المسجد، أما القبة الأصلية التي أعجب بها «بتروديلا فالى» في سنة ١٦١٦م فقد انهارت في سنة ١٦٦٠م. وكانت المآذن في الأصل أربعًا، ولم تكد الثالثة تُشيد حتى هوت وسحقت تحتها نحو ثلاثمائة طفل من تلاميذ المدرسة المبنية تحت هذه القبة، وكان ذلك في سنة ١٣٦٠م، ولم يعش السلطان حسن بعد الفراغ من بناء هذه القبة إلا ثلاثة وثلاثين يومًا، حيث قُتل، أما المئذنتان اللتان بقيتا فقد تهدمت إحداهما وأعيد بناؤها في سنة ١٦٥٩م.

وقد احتفظت دار الآثار العربية بالمصابيح البرنزية العظيمة والمشاكي الزجاجية المحلاة بالمينا، أما الباب المصفح بالبرونز، فقد نقله السلطان المؤيد إلى مسجده في سنة ١٤١٠م.

وكان من أثر اختيار مسجد السلطان حسن في هذا الموقع أن أصابه التلف، ذلك أن سطحه الفسيح كان مكانًا رائعًا لإطلاق النار منه خلال الثورات المتعددة التي اشتهر بها حكم المماليك، وكثيرًا ما تبادل الجنود إطلاق النيران فوق هذا المسجد وبين القلعة إلى أيام محمد علي باشا الكبير، ويمكن مشاهدة أثر الرصاص على جدرانه إلى اليوم، ولما وجد برقوق أن هذا المسجد مصدر خطر بالغ للهجوم أمر بهدم درجاته الأنيقة وإغلاق بابه الضخم.

ولقد حدث مرة أن بقي المسجد مغلقًا نحو نصف قرن، وكان على

الطلاب والمصلين أن يدخلوه عن طريق إحدى النوافذ أو أحد الأبواب الجانبية، كما حدث أن شد حبل بين مئذنته الكبرى وبين القلعة ومشى فوق هذا الحبل أحد الرياضيين الأوروبيين أمام الجماهير المعجبين ببراعته، وكان ذلك في منتصف القرن الخامس عشر.

ومن الواضح أن هذا المسجد كان يمكن أن يسلم من كل ما أصابه لو أنه بُني في مكان أكثر هدوءًا، ولكن على الرغم من ذلك، ومن تشويه جدرانه بالرصاص، وزوال قبته ومآذنه الأصلية، لايزال أبهى وأجمل آثار الفن العربي في القرن الرابع عشر.

المماليك البرجية

بعد أن حكم سلاطين المماليك من خلفاء الناصر محمد أربعين عامًا، لاقوا فيها ما لاقوا من تحكم بعض الأمراء الأقوياء من أمثال قوصون وشيخو وصرغتمش وغيرهم، اغتصب الأمير برقوق السلطة في سنة ١٣٨٢م، ولم يُحدث هذا تغييرًا يذكر في حكومة مصر. لقد انتهى أمر الحكم الوراثي، ولم يعمل به بصفة جدية إلا في أواخر القرن التاسع عشر، وكانت الأسرة الحاكمة الجديدة طائفة من الأمراء لا يكاد يتولى أحدهم الحكم حتى يتغلب عليه من هو أقوى منه فيغتصبه، وكثيرًا ما كان أحدهم يوصي بالعرش لأحد أبنائه، فيظل الابن حتى يأتي من يغلبه عليه، ولم يستطع أحدهم أن يؤسس بيتًا ملكيًا كما فعل قلاوون، وقد أُطلق على الأسرة الحاكمة الجديدة اسم «المماليك البرجية» أو «مماليك الحصن» أو «المماليك الشراكسة» لأنها تنتمي إلى لواء من الجند كان

يقيم في القلعة منذ جنده قلاوون قبل ذلك بما يقرب من مائة سنة، ولما كانوا جميعا من الشراكسة وليس بينهم تركي ولو أنه كان بينهم اثنان من الروم– أطلق عليهم اسم «المماليك الشراكسة».

وعلى الرغم من تغيير الاسم، لم يكن ثمة فارق كبير بين الشراكسة وبين أسلافهم الأتراك، وإن كان هناك فارق بينهم، فهو فارق السيئ إلى أسوأ، ذلك أن سلاطين الأسرة المملوكية الجديدة قد أصبحوا تحت سيطرة قوات الجماعات العسكرية أكثر من ذي قبل، ثم إن حرس السلطان أخذ يكون لنفسه حزبًا مستقلاً فكان يتسمى باسم الجالس على العرش حينذاك، فهو أشرفي أو مؤيدي أو ناصري، ويبقى هذا الحزب متمتعًا بالنفوذ حتى يتغير الجالس على العرش بالموت أو بالعزل، فيبقى مماليكه عاملًا قائمًا بذاته في السياسة، يشترك فيما يحدث في عصره من مؤامرات واغتيالات وثورات.

ولم يكن السلاطين من القوة بحيث يستطيعون كبح جماح جنودهم إلا نادرًا. وإن كثرة تغيير الحكام ليدل على عدم استقرار العرش، فقد حكم ستة من السلاطين البرجية مدة مائة وثلاث سنوات من مجموع فترة حكم المماليك البرجية بأجمعها التي تبلغ مائة وأربع وثلاثين سنة، ومعنى ذلك أن الإحدى والثلاثين سنة الباقية من هذا الحكم قد جلس فيها سبعة عشر سلطانًا على العرش، أي أن كل سلطان منهم جلس على العرش أقل من سنتين.

ولم يكن خُلُق الحكام يختلف كثيرًا عن خُلُق من سبقوهم، وإن اختلف في شيء فإنما يختلف إلى ما هو أسوأ، وقلما كان بينهم ملك اشتهر

بالفروسية وحب الحرب، وهذا يفسر لنا إلى حد كبير عدم اتصافهم بالهيبة والقوة، ولم تُخرج الأيام من بين صفوفهم جنديًا من أمثال بيبرس أو قلاوون، لأن الشراكسة لا يعدون من المحاربين وإنما يعدون من المغامرين، وكان اعتمادهم في الاحتفاظ بالسلطة على المؤامرات والخداع وإفساد الذمم أكثر من اعتمادهم على النجاح في الحروب أو على الشجاعة الشخصية. فقد تفوق أحدهم وهو خوشقدم اليوناني الأصل على أقرانه في مصانعة الأحزاب المتعارضة وفي انتزاع الرشوات الفادحة ممن كانوا يتطلعون إلى شراء الوظائف العامة. فقد كلفت ولاية دمشق الطامع فيها خمسة وأربعين ألف دينار، على حين بيعت وظيفته الأولى لشخص آخر بعشرة آلاف، أما وزراء الدولة فكانوا يُعزلون كلما تمكن من يريدون عزلهم من إشباع مطامع الأمير، أما زيارات هذا السلطان الداهية لرعاياه، فكانت تُكلف من يتشرفون بها كثيرًا من المال.

وقد ساد الفساد جميع البلاد في خلال حكم الشراكسة، ولم يكن للعدل أو لنزاهة الحكم وزن في سير الأمور، حتى أن شيخ الإسلام، وهو الحاكم الديني، كان يختلس أموال الودائع، وكان الجند، وهم من الرقيق الأبيض، من اليونان والشراكسة والأتراك والمغول، يعيشون في الشوارع، حتى أن الحرائر من النساء لم يكن يجرؤن على مغادرة منازلهن خوفًا منهم.

وكان الفلاحون يخشون جلب حاصلاتهم إلى الأسواق مخافة أن ينهبها المماليك أو أن تقع غنيمة في يد الحكومة، ولقد تناقص سكان

الريف من وطأة ظلم الجنود وزال الأمن والنظام في الحاضرة، وكثيرًا ما تخاصمت الأحزاب فتراشقوا بالنيران من فوق أسوار القلعة ومن سقف مسجد السلطان حسن المواجه له وحصنوا الشوارع بالمتاريس وجعلوا من الأسواق ميادين للقتال، وكانوا يقرنون المتمردين بسروج الجمال ويبقون كذلك حتى يرحمهم الموت، وهكذا كانت تمر الأيام.

وعلى الرغم من كل هذا العنف والفساد، استطاع السلاطين البرجية أن يوسعوا رقعة أملاكهم وأن يزيدوا تجارتها نموًا ويقفوا في وجه تيمور لنك في سنة **١٣٩٩**م. ولو أنهم وجدوا آخر الأمر أنه من الأفضل قبول شروطه، فإن الفاتح العظيم رأى بدوره عدم غزو مصر.

ثم إنهم قاموا بحملات شديدة في آسيا الصغرى حيث أخضعوا كرمان وقيصرية وقونية وفتحوا جزيرة قبرص في سنة **١٤٢٦**، وكانت هذه البلاد وكرًا للقرصان الذين كثيرا ما هددوا الملاحة المصرية وقد استعملوا في ذلك أسطولًا بنوا سفنه في بولاق، ثم جاءوا بجيمس أمير لوزينيان «ملك قبرص» الذي أسروه في موقعة كيروشيته وجاءوا معه بتاج قبرص وأعلامها المخذولة ومشوا به إلى القلعة في القاهرة حيث قبَّل الأرض بين يدي السلطان بارسباى، وبعد أن افتداه قنصل البندقية وبعض التجار الأوروبيين وأصبح تابعًا لمصر، سُمح له أن يخترق شوارع القاهرة وأسواقها في موكب عظيم يليق بمقامه، وظلت قبرص تدفع الجزية لمصر في عهد المماليك الشراكسة، وقد حاول هؤلاء غزو رودس مرارًا بين سنتى **١٤٤٠** و**١٤٤٤**م، إلا أن الفرسان ردوهم على أعقابهم، ومع

ذلك استمرت الحدود المصرية الشمالية إلى آخر عهد الشراكسة تمتد من البراموس والفرات.

ولعل أغلب ما يروى في تاريخ الشرق هو اقتران ذلك الفساد والانحلال والوحشية بذلك السمو في الحضارة المادية والغيرة على الفن الذي تلمسه في سلاطين المماليك، والواقع أن المماليك الشراكسة لم يكونوا أقل من أسلافهم الأتراك حبًا للعمارة وهندسة البناء، وكان كثير من سلالة المماليك المتأخرين ذوي ثقافة عالية، إذ كان برقوق والمؤيد وقايتباي محبين للعلماء والأدباء وللمجتمع المثقف، وكان بارسباي، على جهله باللغة العربية، ميالًا إلى الجلوس إلى العيني والاستماع له وهو يتلو شيئًا من تاريخ الأتراك، كما كان تمربغا اليوناني الأصل لغويًا ومؤرخًا ومتبحرًا في العلوم الدينية.

وكان الشراكسة من الصادقين في إسلامهم، وكانوا يصومون بانتظام ويتطوعون ويمتنعون عن شرب الخمر، ويحجون بيت الله الحرام، ويرجون الآخرة ببناء المساجد ومعاهد العلم والمستشفيات والمدارس إلى غير ذلك. ومن أمثلة ذلك، أن السلطان المؤيد الذي كان أضعف من أن يقمع الاضطرابات ويخمد الثورات في عهده، كان رجلًا صالحًا فقيهًا في الدين، بارعًا في الموسيقى، متجرًا في نظم الشعر، مفوهًا في الخطابة، مدققًا في مراعاة شعائر دينه، بسيطا كل البساطة في ملابسه، مقتصدًا في معيشته، يخرج للناس لقضاء واجباته الدينية كواحد منهم، لا فرق بينه وبينهم، حتى أنه لبس رداءً من الصوف الأبيض البسيط الصنع مشاركة

للناس في أحزانهم على ما جره عليهم الوباء من ويلات.

ومازال الرواق الشرقي في مسجده الذي بناه بين سنتي ١٤١٥-١٤٢١م في شارع السكرية، باقيًا حيث يتلقى فيه عدد من الأطفال العلم إلى اليوم تحت محراب محلى بالذهب ومزين بالنقوش البديعة الصنع، وقد أعادها إلى رونقها الأصلي هرتز بك الذي يرجع إليه الفضل في الكشف عن الزخارف الأصلية، وكاد مرور الزمن أن يطمس معالمها. وقد بُنيت مآذن هذا المسجد على الأبراج الجانبية لباب زويلة. وله مستشفى تهدم الآن ويعرف باسم المارستان المؤيدي، وقد بُني في سنة ١٤١٨م ويقع بجوار القلعة مما يشهد لصاحبه بالتقوى وحبه للخير.

ولبارسباي مسجد كبير بُني في سنة ١٥٢٣م في أحد أركان الموسكي الموصلة إلى الغورية ويعرف بالأشرفية، ولايزال مفتوحًا تؤدى فيه الشعائر الدينية، وقد بنى برقوق في سنة ١٤٨٦م مدرسة جميلة في المكان المعروف باسم بين القصرين – وقد قام بإصلاحها هرتز بك أخيرًا– ويعد الضريح الذي بدأ برقوق تشييده وأتمه ابنه فرج في سنة ١٤١٠م من أجمل ما في القرافة الشرقية من الأضرحة ذات القباب الرائعة الشكل والمآذن الدقيقة الصنع، ولكن درة هذه المجموعة من الأضرحة، ذلك الضريح الذي بلغ الذروة في الفن والذي يمثل الطراز المملوكي المتأخر في العمارة وهو ضريح قايبتاي الذي بُني في سنة ١٤٧٢م، والواقع أن النقوش العربية الرائعة التي زينت قبته الجميلة والانتقال التدريجي الذي ينطوي على المهارة في تشييد مئذنته البديعة من المربع إلى المثمن ومن المثمن إلى الأسطواني، ثم الإبداع في ملء الزوايا المختلفة، أضف إلى ذلك رخام

الإيوان المنقوش، كل هذه الأشياء تعتبر تحفًا فنية رائعة على الرغم مما تعرضت إليه من الإهمال والتخريب على مر السنين.

أما قايتباي الذي تعتبر مدة حكمه، التي امتدت إلى ثماني وعشرين سنة «١٤٦٨- ١٤٩٦»، حادثًا تاريخيًا عجيبًا في تلك الدولة المشهورة بسرعة تعاقب ملوكها، قد شق طريقه بنفسه من نشأته المتواضعة، فقد اشتراه بارسباي بخمسة وعشرين جنيهًا، وصار ينتقل من سيد إلى سيد، ويرتقي من درجة إلى درجة، حتى أصبح القائد الأعلى للجيش في أيام تمربغا اليوناني الجنس، وكاد هذا الجيش يكلف السلطان ثلاثمائة ألف جنيه في السنة، وهو اعتماد ضخم في القرن الخامس عشر.

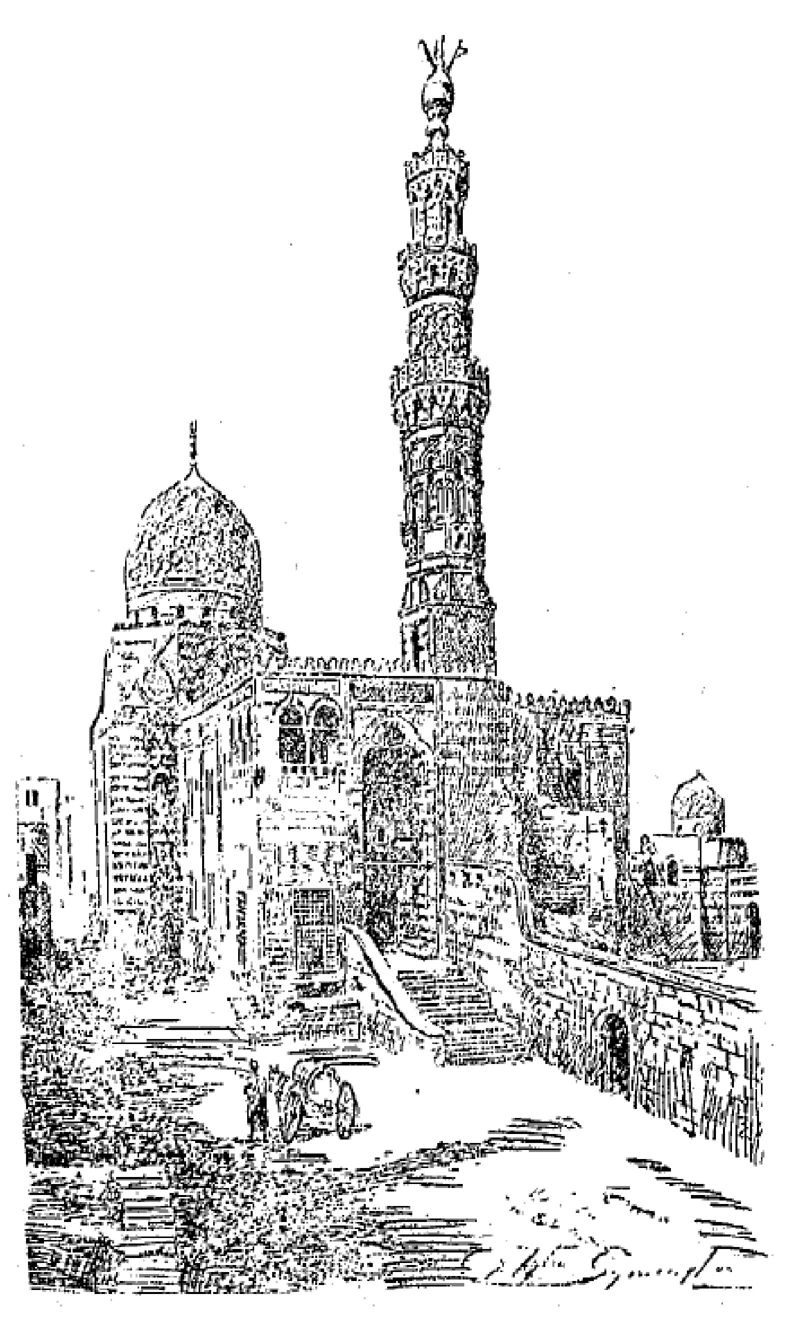


القرافة الشرقية مقابر الخلفاء

وكان قايتباي جنديًا محنكًا، بارعًا في رمي الرمح، وقد أكسبته حياته خبرة ودراية بالعالم، وكان يتصف بالشجاعة والعدل وبُعد النظر وبالنشاط والحزم، وقد طفت شخصيته على مماليكه، فأكسبته ولاءهم وأخرست منافسيه فهابوه، وكانت قوته الجسمانية تظهر حينما كان يستعمل السوط في تأديب رئيس مجلس الدولة أو غيره من كبار الموظفين إذا قصروا في جمع أموال الخزانة الدولة، وكانت هذه الأموال التي تُجمع اغتصابًا أو تجبى ضريبة، لمواجهة مصروفات الحروب التي كان يشنها، ولم يكن يكتفي بالضريبة المفروضة على الأراضي، وكانت تصل إلى خمس المحصول، بل أضاف إليها ضريبة العشر «وهي ما يوازي نصف درهم عن كل إردب من الحبوب».

أما أغنياء اليهود والمسيحيين فقد كان يبتز منهم الأموال بلا رحمة أو شفقة، وكثيرًا ما تعرض الأبرياء لصنوف من الوحشية والجلد بالسياط حتى الموت، حتى أن عليا بن المرشوش الكيميائي قد سُملت عيناه وقُطع لسانه لأنه عجز عن تحويل المعادن الخبيثة إلى ذهب نضار.

وقد عُرف عن هذا السلطان البخل إلى درجة الشح، ومع ذلك إن ثبتت الأعمال العامة التي قام بها– لا في مصر وحدها بل في سوريا وبلاد العرب– تدلنا في جلاء، على أنه أنفق دخل البلاد في أعمال رائعة، فمسجداه في القاهرة، وأحدهما خارجها قليلًا فيما يسمى مقابر الخلفاء «١٤٧٢» والآخر بجوار جامع ابن طولون «١٤٧٥م»، والوكالات التي بناها، تعتبر من أجمل نماذج الزخرفة العربية في فن البناء الإسلامي.



جامع قايتباي في القرافة الشرقية

ثم إنه لم يأل جهدًا في إصلاح آثار أسلافه التي ظهر فيها أثر التهدم، كما تشهد الكتابة المنقوشة على المساجد والمدارس وعلى القلعة وغيرها من مباني القاهرة العديدة. وكان كثير الأسفار، فقد رحل إلى سوريا وإلى نهر الفرات، وسار في مصر صعيدها وريفها، كما حج بيت الله الحرام في مكة، وإلى المسجد الأقصى في بيت القدس، وكان حيثما ذهب ترك آثارًا من تقدمه، بين طرق ممهدة وجسور ومساجد ومدارس وحصون واستحكامات، إلى غير ذلك من الأعمال الخيرية والمنافع العامة، والواقع أنه ليس هناك عهد في عهود المماليك، عدا حكم الناصر محمد بن قلاوون، خلال فترة حكم المماليك الطويلة، يفوق حكم قايتباي، في ميدان البناء والفنون المختلفة.

لقد دفع الشعب ثمن هذه الأعمال غاليًا، ولكن جمالها بقي لتشهد بعظمته الأجيال المتعاقبة (١).

وينتهي الإبداع في الفن العربي الصميم ونقوشه الهندسية، في المباني التي شيدها قايتباي ومعاصروه، ففي العهد الأول من ظهور الطراز العربي كانت الزخارف تُنقش على طبقة من الجص الرقيق بالآلات اليدوية، ولم يكن العمال يستعملون القوالب أبدًا، فاكتسب النقش بهذه الطريقة حرية في الأداء لمطاوعة المادة التي ينقشون عليها، ومن أمثلة ذلك ما نراه من النقوش في مسجد ابن طولون.

وقد استمر استعمال الجص في زخرفة الأفاريز وحافات الجدران طوال حكم الدولة الفاطمية كما ترى في الأروقة الأصلية القديمة في

الجامع الأزهر وفي المصلى الشرقي من جامع الحاكم، وأبدع هذه الزخارف ما نشاهده في ضريح قلاوون، حيث تتكون حافات الأقواس التي تحمل القبة الأصلية، وكذلك حافات أقواس النوافذ العليا من سلسلة من النقوش المتداخلة الدقيقة كالدانتيلا على طبقة من الجص حتى لا يمكن معرفة مبدأ النقش ونهايته.

وقد استمر استعمال الجص حتى أيام الناصر محمد، حيث أُخذ في استعمال الملاط، أما بعد ذلك فقد استُعمل الحجر، ولو أن الجص استُعمل بعد ذلك قليلًا كما تدلنا قبة جامع أقسنقر وقبة مسجد الفداوية، أما نقوش مسجد السلطان حسن، ما عدا الأفاريز المكتوبة بالخط الكوفي، فكلها على الحجارة، ولما كانت المادة المنقوش عليها صلبة، ظهر في النقش شيء من الصلابة وميل إلى استعمال الرسوم الهندسية مكان النقوش العربية القديمة، وإنا لنرى المنبر الذي أقامه قايتباي في سنة ١٤٨٣م في ضريح برقوق، أدق الأمثلة للرسوم الهندسية المنقوشة على الحجارة في القاهرة، فشكله الجانبي مثلث كما في المنابر المصنوعة من الخشب وفي المساجد الأخري، ولكن بدلًا من الألواح الخشبية المنقوشة والمطعمة التي يتركب منها جانبا المنبر، نرى هذا المنبر من أوله إلى آخره مصنوعًا بمهارة من قطع من الحجارة المتلاصقة، وقد غطت سطحها الرسوم الهندسية كشبكة من الخطوط المحبوكة على هيئة نجمة بارزة حولها رسوم عربية على شكل أوراق الشجر، كما يحلي جدران المنبر الفريد في نوعه من الداخل وسلمه وقبته رسوم ونقوش مشابهة.

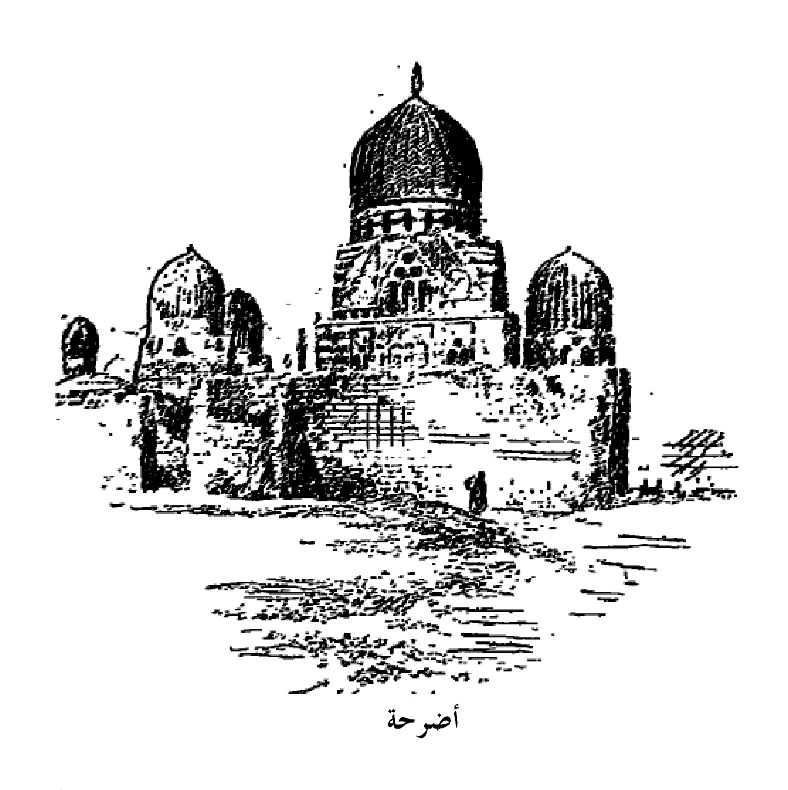
وكان قايتباي أكثر معماريي القاهرة تدقيقًا، إذ لم يتسامح في أى إهمال في مبانيه مهما كان بسيطًا، وكان خير ما أودعها من نقوش وزخارف محفورًا على الحجر الجيرى «الكاسى» والرخام (١) وإنك إذ ترى مسجده داخل المدينة بالقرب من مسجد ابن طولون تدرك مقدار فخامة هذه الزخارف حيث يتكون العقد الأصلي من ثلاثة وعشرين حجرًا على كل جانب، يتناوب فيها الحجر الأبيض والحجر الأحمر بانتظام ويزين الحجر منها رسوم عربية وأشكال هندسية بحيث لا يتكرر الرسم في حجرين منها إطلاقًا، أما الرسوم العربية فتتكون من زهرة البرسيم العادية محاطة بزخرف جميل من أوراق الشجر المناسبة للشكل.

أما الأشكال الهندسية، ولو أنها تبدو لأول نظرة مكونة من أشكال خماسية أو سداسية غير منتظمة، فإنها متناسبة التركيب محكمة الصناعة، وفي أركان العقد العليا يرى الزائر إطارات (وهي كثيرة في القاهرة) نُقش عليها اسم السلطان وبعض عبارات الدعاء له، كما يشاهد الزائر إطارًا نُقشت عليه آثات القرآن الكريم فصلتها عن بعضها رسوم عربية مما يجعل المنظر كله منسجمًا انسجامًا عجيبًا، وبالاختصار لا يكاد يوجد مكان لم تمتد إليه أيدي النقاشين وقد أودعوا فيه غاية ما وصل إليه فنهم.

ولم يكن قايتباي أقل دقة في زخرفة وكالاته وفنادقه، وليس في القاهرة كلها بناء تعددت فيه الرسوم والزخرفة كما تعددت في وكالة قايتباي في الشارع الواقع جنوبي الأزهر، أما داخل هذه الوكالة فقد ظهر فيها أثر الإهمال والهجر، ومما لاشك فيه أنها نالت حظها من الزينة والزخرف يومًا ما، أما واجهتها فما زالت في حالة جيدة وهي تستحق

دراسة دقيقة ممن يرغبون في تفهم النقوش العربية والزخرفة الهندسية في أحسن صورها وأجلاها (١). وقد يعترض على هذا الوصف من يقول إن بعض النقوش قد تكرر معكوسًا، وهذا لا يتفق مع الأمانة الفنية التي كان يتمسك بها رجال الفن القدامى الذين كانوا يحتقرون تكرار الزخارف في أي رسم من رسومهم.

غير أنه يجب أن نعلم أن الناس في عهد قايتباي قد أدركوا أن لوحدة الشكل جمالًا معينًا، كما وجدوا أن تناسق الرسوم وتكرارها يحدث تأثيرًا رائعًا، وأن هذا التغيير ما هو إلا جزء من الاتجاه العام إزاء الهندسة الموحدة والزخارف الرتيبة التي تميز أسلوب الشطر الأخير من عهد المماليك، ومهما يكن من شيء، فمازال هناك تنوع كثير في النقوش العربية والزخارف الهندسية في المداخل التي تعلو الحوانيت الثلاثة عشر في واجهة الوكالة، كما نرى ذلك في قبة المدخل العمومي في الوسط وفي الأعمدة الجانبية المتصلة وفي أعمدة قبة السبيل، وليس ثمة ريب في أن هذه الوكالة أو الفندق كانت في حالتها القديمة من أروع الأبنية وأبهاها، بل إنها الآن تعد مثلًا أعلى يُرجع إليه في الزخارف العربية. والواقع أن عصر قايتباي في البناء كان ترديدًا لعصر الناصر محمد الزاهر في العمارة.



أضرحة

وكانت مساجد المماليك الشراكسة هي المباني التي تستهوي أفئدة المهندسين كما تستهوي أفئدة الزائرين من العامة لما فيها من الإعجاز في الذوق والنظام في تناسق تكوينها، ودقة صنع منارتها، وجمال نحت قبابها، وإحكام صناعة سقوف مداخلها المدلاة، وأفاريزها، واستدارة زواياها، ونقش رخامها وزينة قبلاتها، وإلى جانب مسجدي قايتباي الفاخرين، نجد مساجد الأمراء أزبك اليوسفي «١٤٩٥» وخير بك «١٥٠٢» وأمير آخور قاني بك «١٥٠٣» كلها حافلة بالنقوش الدقيقة البديعة، إلا أن درة الفن المعماري الشركسي توجد في مدرسة القاضي أبي بكر بن مظهر «١٤٨٠» التي قامت لجنة إحياء الآثار العربية بتجديدها بعناية فائقة، ولم يترك مهندسها العلامة هرتز بك جهدًا إلا وبذله في تتبع أصل الرسوم

والبحث عن ألوانها الطبعيية الأصلية، ثم حاكاه حتى برزت كما كانت في أول العهد بها، وهناك تجديد دقيق آخر في مسجد الأمير كجماس الإسحاقى «١٤٨٣»، وفي كلا العملين يظهر التحسين في أعمال الإصلاح والتجديد بعد التجارب الأولى في مدرسة البرقوقية.

ومما يجب ملاحظته أن أغلب مدارس القرن الخامس عشر قد عدلت في شكل مبانيها المتقاطعة على شكل الصليب، وعلى الرغم من أنها لاتزال معاهد للعلم بدأت تجتذب الناس لصلاة الجمعة، واكتفي بها عن بناء مساجد جديدة، فلم يشيد بعد ذلك إلا القليل منها مثل جامع المؤيد وجامع بارسباي وجامع أزبك، كما أن الفناء الأوسط والرواق الشرقي قد زاد اتساعه على حين قل اتساع الأروقة الأخرى حتى صارت لا قيمة لها، وربما يعزى ذلك إلى أن غالبية السكان كانت إما شافعية أو حنفية، على حين لم يكن للمذهبين الآخرين أنصار عديدون، فلم يعد هناك داع لوجود قاعات الدرس في الجناحين المخصصين لهما، وهكذا تقارب شكل الجامع وشكل المدرسة في البناء الشركسي حتى صار الرواق الشرقي فيها جميعًا متسعًا والأروقة الجانبية صغيرة، ويتجلى ذلك بوضوح في مدرسة كجماس (١).

وقد احتفظ المماليك الشراكسة بنشاطهم وحبهم للفن حتى هددهم الغزو العثماني، ولم يبق بعد قايتباي من سلاطين الشراكسة من يستحق الذكر، إلا السلطان الغوري الذي اعتلى العرش في سنة ١٥٠١م، وهو طاعن في السن بعد أن اعتلاه أربعة من السلاطين الضعفاء في أربع سنوات متتالية، وكان حازمًا نشيطًا، أعاد الأمن والنظام إلى القاهرة بعد

الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها فيها، وقد جمع ضريبة عشرة أشهر دفعة واحدة بجرة قلم، فملأ بذلك خزينة الدولة، وفرض ضريبة على السواقي والمراكب والجمال، وعلى اليهود والمسيحيين والخدم وعلى كل مورد يمكن استغلاله، وزاد الرسوم الجمركية، واغتصب الضياع الواسعة وفرض ضريبة ثقيلة على الموتى، وبعد أن أنعش دخل الدولة واقترن اسمه بأعمال السلب والاغتصاب، بدأ ينفق في سخاء على الأعمال العامة العظيمة، كتمهيد الطرق وحفر الترع وتحصين السواحل وتقوية قلعة القاهرة وتمهيد طريق الحج إلى مكة، ومازالت مدرسته «١٥٠٣» وضريحه– الذي لم يدفن فيه– يواجه أحدهما الآخر في الشارع الذي يحمل اسمه، الغورية، ومما يذكر أن الإصلاح الذي أدخل عليه منذ ثلاثين سنة شوه هذين البنائين كثيرًا وأساء إلى شهرتهما.

ولم يكتف الغوري بذلك بل بنى مئذنة للجامع الأزهر ومسجدًا عند مقياس النيل بجزيرة الروضة وسبيل المؤمنين في الرميلة وطواحين الماء في مصر القديمة، كما أصلح قنطرة الماء التي تتصل بالقلعة، وكان الغوري أنيقًا في بلاطه، يجزل العطاء للشعراء والموسيقيين، على حين كان يبتز المال من ورثة نبلائه ويسلب اليتامى أموالهم.

ولما كان السلطان الغوري يعلم أهمية التجارة مع الهند، التي بدأ البرتغاليون يهددونها، سارع إلى إنشاء أسطول بحري في البحر الأحمر وسيره إلى الهند، حيث اتحد مع حاكم «ديو» وهزما معًا الأسطول البرتغالي الدخيل تحت إمرة الميدا الصغير في موقعة قريبة من شاول ١٥٠٨، وأخيرا قاد جيشه، بعد أن سبق السيف العزل، لمحاربة العثمانيين الذين تقدموا إلى سوريا، وعلى الرغم

من أنه كان قد بلغ السادسة والسبعين من عمره، قاد جيشه والتحم مع العثمانيين في مرج دابق بالقرب من حلب في اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٥١٦، وكان يحث جنوده على القتال عندما انسحب جناحاه تحت قيادة خير بك والغزالي خيانة وغدرًا، وتركا سلطانهم يقابل العدو بحرسه فقط، ومات الشيخ الشجاع وهو يحارب ووطأته سنابك الخيل، ولم ينجح المماليك بعد ذلك فقد أنزل بهم العدو هزيمة كبيرة شمال القاهرة عند هليوبوليس، ولقد أراد طومان باي أن يدافع عن القاهرة ووقف للعدو عند باب النصر، ولكنه لم يستطع أن يصمد للسلطان سليم العثماني الذي تعقبه في الشوارع، ودارت الحرب حتى دخل الأتراك القلعة عنوة ومثلوا بطومان باي وصلبوه على باب زويلة، وصارت مصر ولاية عثمانية.

الباب الثامن

مدينة ألف ليلة وليلة

اتساع القاهرة – ظهور بولاق – المساجد– مدخل بولاق – ألف ليلة وليلة في القاهرة – تجارة الترانست في مصر– حوانيت التجار– خان الخليلي – خان مسرور– وكالة قوصون وسوق الأزهار– الشوارع والأحياء – فن النقش على الفضة–

صناعة المعادن في القاهرة – البندقية – نحت الخشب– عمل المشربية – خصائص الفن العربي – رجال الأدب في عهد المماليك انتهينا في الباب السابق من الكلام عن تاريخ القاهرة باعتبارها حاضرة لدولة مستقلة، ووصفنا بعض المباني الجميلة التي كان السلاطين المماليك والنبلاء يزينون بها المدينة.

إلا أن حياة المدينة لا تقتصر على ما يدور في بلاط الملك، ونحن إذ نقتصر على التحدث عن السلاطين وما يشيدون من مساجد ومدارس ومقابر لا نكون قد كونا فكرة صحيحة عن القارة في العصر الوسيط، فعلى الرغم من أن هذه المدينة قد وقعت فريسة تحت سنابك خيول الفاتحين، استمرت حياتها الخاصة قوية تتمثل في تجارتها النامية وسعادتها الاجتماعية وثقافتها الأدبية، ولم يعد المجتمع المصري مقصورًا على رجال

البلاط بين جدران القصور الفاطمية الشامخة، ولكنه امتد في كل الجهات ما عدا الجهة الشرقية، إذ جاوز الأبواب الشمالية، واختط ضاحية جديدة سماها الحسينية، وعمرها بالمساجد والأضرحة، وامتد إلى الغرب فملأ الفضاء الذي كان يلي السور الفاطمى القديم إلى النيل، وقد حدث أن تراجع النهر فمهد لتكوين ميناء بولاق الجديدة، ومكَّن الناس من بناء مجموعة من المساكن فوق الأرض التي انحسر عنها النهر، وقد حدث أن جنحت سفينة تسمى «الفيل» نشأ عن تحطيمها وغرقها أن تكون شاطئ رملي أطلقوا عليه اسم جزيرة الفيل، فتغير مجرى النيل وترك فضاءً صالحًا للبناء عليه، أما جهة الجنوب فإن الساحة التي كان يحدها جامع ابن طولون والقلعة والسور الفاطمي، والتي كانت تزينها الحدائق والمساكن الصيفية والبرك التي تملأها مياه النيل في فيضانه في عهد صلاح الدين، قد صارت إذ ذاك عامرة بالسكان والمساجد المملوكية الشهيرة بقبابها ومآذنها.

ومن الممكن تتبع اتساع القاهرة وامتداد العمران بها عند قراءة ذلك السجل القيم الذي وضعه المقريزي عن بناء المساجد وما يستلزم ذلك من انتشار السكان.

ويدل مسجد يونس «٧١٩» ومسجد ابن الطباخ «ابن طاهي الناصر» في حي اللوق «٧٤٦» على أن النهر ارتد عن المكان الذي كان يجري بالقرب منه، كذلك يدل على بناء مسجد الغازي ش٧٤١» ومسجد الطواشي «٧٤٥» خارج باب البحر القديم، وبناء زاوية أبي

السعود «٧٢٤» خارج باب القنطرة على امتداد المدينة من جهة الغرب، ولو أن الأرض في هذه الجهة لم يكن يغمرها ماء النيل قبل ذلك.

أما الامتداد إلى ناحية الشمال، وهو الذي حدث نتيجة ارتفاع أرض جزيرة النيل قبيل سنة ١٢٠٠م، وظهور بولاق بعد ذلك بمائة عام، فقد ورد ذكره في تاريخ المساجد الذي وضعه المقريزي، حيث يقول إن جزيرة الفيل لم يكن يغرقها النيل إلا في أيام الفيضان، أما في سائر السنة فكان يترك سليسلة من الكثبان الرملية والحشائش الخشنة، وكان المماليك يلعبون عليها ويمارسون الرماية إذا كانوا يجهلون لعبة الجولف، ولكن بعد أن انحسر النيل عنها نهائيًا استصلحها الناصر وحفر فيها قناته التي عرفها الناس باسم الخليج الناصري ويعرفونها الآن باسم الإسماعيلية، فصارت مصرفًا للمياه جفف بها الأرض ودعا الناس في القاهرة ومصر بأن يسارعوا إلى البناء، فبدأ السكان من سنة ١٣١٣م يبنون منازلهم عليها، وتبارى الأمراء والجند والتجار وعامة الشعب في تعميرها، وهكذا نشأت بولاق (١)، ويضيف المقريزي إلى ما تقدم أن المياه كانت تؤخذ من النيل بواسطة السواقي التي بُني مكانها بعد ذلك مسجد الخضيرِي، مما يدل على أن النهر لم يتراجع كثيرًا منذ ذلك الوقت، لأنه لا يزال يجري حتى الآن بالقرب من هذا المسجد الذي بناه أيدمر في سنة ٧٣هـ على قطعة من الأرض كانت تغمرها المياه قبل ذلك التاريخ بثلاثين سنة، وكان بين المساجد الأخرى التي بنيت في بولاق مسجد ابن صارم والباسطي «٨١٧».

أما شرق بولاق، فقد كان في الأرض التي يطلق عليها الآن اسم العباسية جزء مجاور لجزيرة الفيل يسمى أرض الطبالة، وقد سمى كذلك لأن الخليفة المستنصر كان قد أقطعها إحدى الفتيات المغنيات التي أشادت مرة بمجد الفاطميين وهي تدق طبلها، هناك أيضًا بدأت تعمر الجهة، إذ تسابق الناس في بناء المنازل، كما شيد الكيماختى مسجده على القناة الجديدة في سنة ٧٩٠هـ، وكان الأسيوطي قد شيد قبل ذلك مسجده في سنة ٧٤٠هـ في جزيرة الفيل، كما شيد مسجد صاروجا على ضفاف الخليج في بركة الرطل، هذا وقد شُيد كثير من المساجد في الأحياء الجديدة في شرق أرض الطبالة وخارج أسوار المدينة الفاطمية القديمة، منها جامع الملك «٧٣٢» وجامع ابن الفلك في حى الحسينية، وجامع عكوشي وابن المغربى على الخليج، وخلوة يونس الجيغا «٧٥٠» وابن غراب «٧٩٨« وزاوية الجعبري «٦٨٧» ونصر «٧١٩» والقلندرية «٧٢٢» والخلعتي «٣٣٧» وكلها خارج باب النصر، مما يدل على امتداد المدينة في الناحية الشمالية.

والواقع أن القاهرة قد بلغت في اتساعها مساحة لم تتعدها في الخمسين سنة الماضية، أي قبل أن تمتد الضواحي الأوروبية الحديثة على نهر النيل، كما أنها لم تتغير في مظهرها الخارجي ولا في طريقة الحياة التي تحياها الطبقتان الوسطى والدنيا عما كانت عليه في القرن الخامس عشر وما كانت عليه حين زارها وكتب عنها وصورها من الأوروبيين رجال من أمثال ولكسنون وبرخارت ولين وجون فيليب وهاى، وذلك في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد وضعنا في هذا الكتاب بعض

ما صوره هاى واو، ب. كارتر في سنة ١٨٣٠، وهي تمثل حقيقة مدينة تحمل طابع العصر الوسيط، وكم كانت القاهرة تبدو غريبة للزائر الذي يفد عليها من الإسكندرية عن طريق قناة المحمودية، ثم عن طريق النيل حتى ترسو به السفينة في بولاق. وكان على الزائر أن يقطع نحوًا من ميل وهو راكب من بولاق إلى باب الحديد حيث يدخل المدينة من الجهة الشمالية الغربية، وكان لا يرى في طريقه أي مسكن في حين أنه يخترق اليوم حيًا مزدحمًا بالسكان والمنازل. قال لين (١) إنه كان هناك طريقان رئيسيان متماثلان تقريبًا في الطول يصلان بولاق بالقاهرة، أما الطريق الشمالي – الذي يتعرج في بعض الأحيان– فإنه يعتبر الطريق الرئيسى للتجارة «إذا لم تكن هناك سكك حديدية في ذلك الوقت» ويصل القاهرة من جهة باب الحديد، وأما الطريق الجنوبي فكان يعبر فنائين ثم يدخل القاهرة من الجانب الغربي للأزبكية.

ونحن إذ نسلك الطريق الجنوبي نمر بمسجد أبي العلاء على الجانب الأيمن، وقد عمل الفرنسيون في أثناء احتلالهم مصر على تعلية هذا الطريق بضعة أقدام فوق مستوى السهل حتى يكون بعيدًا عن تأثير الفيضان، وكان في نيتهم مده حتى يخترق المدينة ويصل إلى القلعة، وهذا الطريق مستقيم ومتسع، إلا أنه غير ممهد، وينقصه صف من الأشجار على جانبيه القبلي يستظل بها الناس، أما الأراضي المجاورة فإنها تتحول في فترة الفيضان إلى مستنقعات وحقول مفرقة، وإذا ارتدت عنها المياه بذر فيها القمح والفول والبرسيم وغير ذلك، وهنا وهناك بعض النخيل والجميز وشجر السنط، وكان يحد السهل فيما مضى من جهة الشرق

تلال من الردم «هي بلا شك بقايا المقس»، وكانت تحجب المدينة عن النظر، ولم يكن بد من عبور قناتين فوق كل منهما جسر مبني من الحجر، وعلى طول الجانب الغربي من القناة الثانية، وإلى يمين الطريق مرتفع من الأرض مكون من الردم والأنقاض، ومن فوق هذا المرتفع وعلى بعد نحو من ربع ميل من باب الأزبكية.

ذلك هو طريق الوصول إلى القاهرة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وإذا كان الوصف مملًا فإنه يرينا كيف كان المكان موحشًا خشنًا قبل أن يدخل المهندس الأوروبي، فحينما كان السائح يسير مكدودًا في طريق غير معبد بين حقول الفول في سنة ١٨٣٥، كان يخترق نفس الطريق التي سكلها فرسان المماليك، وكان يقترب من مدينة لم يتغير فيها شيء عن المدينة التي جاء وصفها في كتاب ألف ليلة وليلة، فلم يعد هناك أدنى شك من الأدلة الداخلية، أن هذه القصص التي طبقت شهرتها الآفاق قد أخذت صيغتها النهائية في القاهرة، وقد يمكن تتبع أصولها إلى بلاد فارس أو إلى بلاد الهند، ولكنها مهما طافت في أفكارها أو مقتبساتها، فخاتمة المطاف في وضعها الذي ظهرت به أمام الناس كان في مصر، وإذا قيل إن كثيرًا من مناظرها كان يستند إلى بغداد حيث استعارت شخصية هارون الرشيد ليكون بطلها، فإنه لا يسع أى عالم في الجغرافيا إلا أن يرى أن كتاب هذه القصص لم يكونوا يعرفون الكثير عن حاضرة الرشيد، وأن المدن التي كانوا يصفونها لم تكن سوى القاهرة مهما أسموها في قصصهم.

وهناك بعض الأوصاف العارضة تجعلنا نعتقد أنه من الجائز جدًا أن تكون هذه القصص قد تبلورت وأخذت شكلها النهائي قبل القرن الرابع عشر، ولما كان آخر أبطالها هو صلاح الدين، فإن كثيرًا من الأدلة يكاد يُجمع على أن هذه القصص قد جُمعت وكتبت بشكلها الأخير في فترة إحياء العلوم التي ازدهرت في العصر الذهبي للحضارة الملوكية في مصر، فالمجتمع الذي تصفه ألف ليلة وليلة هو المجتمع الذي يعرف في زمن المماليك، مجتمع إسلامي سني على ما تعهد القاهرة.

ولعله من الغريب أن يكون أمر ذلك الكتاب الشهير محل شك، إلا أن تفسير ذلك من السهولة بمكان، فقد كان المثقفون ورجال العلم في الشرق في كل الأزمنة ينظرون إلى أمثال هذه القصص نظرة احتقار واستعلاء، لأنها كانت خلوًا من القيمة الأدبية التي كانت في المكان الأسمى عند العلماء والمفكرين، ومن ثم لم يكلف أحد منهم نفسه أن يذكر كتاب ألف ليلة وليلة بين المراجع إلا في حالتين أو في ثلاث حالات غامضة، لا تلقي ضوءًا على تاريخها، فقد كُتبت ألف ليلة للشعب حيث يجتمع الجمهور في المقاهي ليستمع إلى ما يسرده القصاصون المحترفون للطبقة الوسطى وهي كثيرة العدد متواضعة الثقافة، تزدحم بها القاهرة، وهذا هو ما يجعل لهذه القصص قيمتها في نظر الباحثين في تاريخ الشرق في العصور الوسطى، فأعمال الملوك والأمراء وحياتهم يعرفها الباحث في كتابات العلماء والمؤرخين أمثال المقريزي وغيره، وأما حياة الشعب، وهي تختلف اختلافًا بيّنًا عن حياة الملوك، وبينهما هوة قلما يسعى الكاتب المصرى إلى اجتيازها، فهي مسطورة في كتاب ألف ليلة، إذ نقرأ

فيها عن التجار وأصحاب الحوانيت، وقد نقرأ فيها عن الخلفاء والسلاطين والوزراء، كما نقرأ عن الجن والعفاريت والمردة، غير أن أبطال القصص دائمًا من طبقة التجار وأصحاب الحوانيت، ومنهم من يعبر البحار ويزور الأمصار.

وقد يكون السندباد قد سمع في بادئ الأمر شيئًا عن مغامراته من أفواه الجماهير التي كانت تحتشد على أرصفة ميناء مصر من كل حدب وصوب، فقد سمع ابن سعيد وهو واقف في الميناء يشاهد بنفسه شحن السفن في سنة ١٢٤٦م كثيرًا مما يقول البحارة الذين وصلت سفنهم بعد أن طافت كثيرًا من الأقطار، وقد قال إن تجارة البحر الأبيض وتجارة البحر الأحمر التي تصل إلى مصر لا تقع تحت حصر وهي تفرغ في مصر لا في القاهرة، ومنها توزع إلى كل جهات القطر المصري، وما كان يحدث في ميناءي مصر والمقس قبلًا صار يحدث بعد ذلك في ميناء بولاق التي خلفتهما، ومنها خرج علي المصري إلى دمياط بعد أن بدد ثروته في اللهو والنعيم مع زوجته في جزيرة الروضة ليبحث عن ثروة جديدة عن طريق التجارة. وإن ترديد الإشارة إلى الرحلات التجارية والمكاسب الطائلة، ليدلنا على ما يحدث لشعب لم تقتصر ثروته على أرباحه من التربة الخصبة، وإنما تحولت إلى التجارة الأجنبية النافقة.

ومما يدل على مقدار تجارة الترانسيت في مصر في أيام المماليك، يكفي أن يعلم الإنسان أن السفينة الواحدة التي كانت تفرغ حمولتها في الإسكندرية كانت تدفع رسومًا جمركية مقدارها واحد وعشرون ألف

جنيه، وقد رأت الجمهوريات الإيطالية ضرورة وجود قناصل يمثلونها في مصر، وهل هناك أدل على ثراء التجار الأوروبيين من قدرتهم على أن يضمنوا فيما بينهم بزعامة قنصل البندقية افتداء ملك قبرص بمبلغ مائة ألف من الجنيهات؟ ولقد كان تجار البندقية يتمتعون في مصر بمزايا خاصة بهم من أيام الملك العادل سنة ١٢٠٨، حيث سُمح لهم أن يبنوا فندقًا «سوقًا» خاصا بهم بالإسكندرية، وقد تجدد هذا الامتياز، فقد كانت هناك ميناء السويس وميناء الطور وميناء القصير وعيذاب ودهلك وسواكن، وهناك كان المماليك يفرضون رسومًا جمركية تبلغ عُشر قيمة البضاعة. ولقد نمت تجارة الهند وازدهرت في أيام سلاطين المماليك البرجية، وكان هناك تنافس شديد وتطاحن بين الموانئ المصرية والموانئ العربية في جمع الرسوم الجمركية التي كثيرًا ما تعدت العشر المفروض.

ومما يروى أنه في سنة ١٤٢٦ دفعت أربعون سفينة محملة بالبضائع من الهند وفارس ستة وثلاثين ألف جنيه رسومًا في ميناء جدة التي كانت تابعة لمصر، كما كانت ميناء ينبع أيضًا تابعة لها. ولم تكن الرسوم مقصورة على تجارة الواردات بل كانت الحكومة تحتكر بعض السلع كالسكر والفلفل والخشب والمصنوعات المعدنية، فلم تكن تباع إلا في مخازن الحكومة ومستودعاتها بالأسعار التي تفرضها الحكومة، كما كانت خاضعة للرسوم الجمركية العادية كغيرها من السلع، وكانت رسالة الفلفل التي تباع بخمسين دينارًا في القاهرة تباع للتاجر الأوروبي في الإسكندرية بمائة وثلاثين دينارًا حسب تسعيرة الحكومة، وبعد أن أخفق أهل البندقية في مساعيهم التي بذلوها عن طرق القناصل أرسلوا أسطولًا

إلى الإسكندرية لسحب جميع تجارهم من مصر، فكان ذلك داعيًا لإرغام بارسباي على التساهل معهم في الشروط التي كان قد غالى فيها كثيرًا.

ومما يدلنا على عظيم اهتمام السلاطين الشراكسة بتجارة الترانسيت بين الهند وأوروبا، ذلك المجهود الضخم الذي بذله الغوري لسحق قوة البرتغاليين في بحر العرب حين أدرك التنافس الخطير الذي أوجده كشف طريق رأس الرجاء الصالح، وما من شك في أن تجارة الترانسيت كانت من أهم مصادر الثروة في البلاد كما أوضح ذلك مستر كاميرون، قنصل إنجلترا في بورسعيد، حيث قال إن سلاطين المماليك، بوصفهم سادة مصر وسوريا، يتحكمون في الموانئ وفي طرق القوافل التي تربط أوروبا بتجارة الهند، ويفرضون رسومًا جمركية على كل بضاعة شرقية تصل من الخليج الفارسي والبحر الأحمر إلى الموانئ الواقعة بين الإسكندرية والإسكندرونة لتنقل من هناك بحرًا مرة أخرى إلى البندقية.

وكان المماليك يتمتعون باحتكار جميع تجار الهند مع موانئ شرق البحر الأبيض المتوسط، وكانت البندقية بامتيازاتها التجارية معهم تعد الوكيل الوحيد لهم في القارة الأوروبية، إلى أن كُشف طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨م ونشأ عن ذلك تطور التجارة، ولنحاول تقدير هذا الاحتكار بأن نضرب لذلك مثلًا، تاجرًا عربيًا مثل السندباد البحري، اشترى تجارة من الحرير الخام وجوز الطيب والفلفل والنيلة والقرنفل والعصى، وبما تبلغ قيمته عشرة آلاف جنيه من بلاد فارس أو

كلكتا، ورسا بها في البصرة أو السويس– ولو أن الطريق البحري إلى الخليج الفارسي أقصر مسافة من الطريق في البحر الأحمر، إلا أن طريق القوافل من البصرة إلى حلب أشد خطورة من الرحلة القصيرة عبر مصر – فإن الرسوم الجمركية تبلغ أربعة آلاف جنيه «ولو أن هذا التقدير مغالى فيه كثيرًا»، وتصير قيمة البضاعة حينذاك نحو عشرين ألف جنيه، فإذا وصل إلى إحدى موانئ البحر الأبيض أو إلى ميناء بولاق، باعها تاجر عربي آخر إلى تاجر من البندقية بثلاثين ألف جنيه، وعلى هذا الأخير أن يدفع خمسة آلاف أخرى قبل أن يستخلص تجارته من الجمارك. وهكذا نرى أن ربع الخمسة والثلاثين ألف جنيه التي يدفعها التاجر البندقي تتسرب إلى السلطان المملوكي ورجال حكومته سواء أكانت رسومًا جمركية أم مكوسًا أم هدايا لكبار الحكام – كل ذلك لمجرد السماح بنقل التجارة عبر البلاد (١). ولم تكن الحكومة وحدها هي التي تستفيد من هذه التجارة، فقد كان تجار القاهرة الذين يستوردون التجارة من الهند وجزائر البهار، أو على الأقل يشترونها من تجار الهنود في موانئ البحر الأحمر يصيبهم كثير من أرباحها.

ومن تصفح كتاب ألف ليلة وليلة يجد فيه كثيرًا من هذه المغامرات الرابحة، ألم يقل ثاني الشيخين وهو يقود الكلبين الأسود في وصف رحلته: لقد أعدنا بعد ذلك تجارتنا واستأجرنا سفينة حملناها بضاعتنا، ثم سرنا في البحار رحلة استغرقت شهرًا كاملًا وصلنا في نهايته إلى مدينة بعنا فيها بضاعتنا وربحنا عشرة دنانير في كل ما كان قيمته دينار واحد.

وليس من شك في أن مثل هذه الصفقات كانت كثيرة الحدوث، ولم تكن كلها تخرج من الحاضرة بل إن الكثير منها كان يصل إلى الأسواق حيث كان يباع بالتجزئة لسكان القاهرة والمحترفين من أتباع السلطان ورجال الحاشية المملوكية، وإذا قارنا الأسواق الحالية بفنادق العصور الوسطى، نكون قد قصرنا في فهم حقيقة تلك الفنادق، فهذه الفنادق التي تسمى الخانات أوالوكالات– وبينها كلها فرق بسيط – كانت مجموعة من المستودعات والحوانيت تحيط بفناء في الغالب وتكون أحيانًا على هيئة رواق مسقوف حيث يختزن فيها التجار بضائعهم وفيها يجدون سكنًا وحظائر تأوى إليها دوابهم لتستريح من عناء الأسفار.

ولدينا مثل عظيم من أمثلة فنادق العصر الوسيط: ذلك هو خان الخليلي، وهو السوق التركي الذي بناه جركس الخليلي أمير آخور السلطان برقوق في سنة ١٤٠٠م فوق البقعة التي كان عليها – في وقت من الأوقات– قبور الخلفاء الفاطميين، بعد أن جُمعت عظام الموتى وحُملت على ظهور الحمير وألقيت فوق أكوام القاذورات في خارج الباب الشرقي. ومن الأسواق المعروفة كذلك، الحمزاوي أو سوق القماش، كما لا تزال بجوار الأزهر وفي السروجية اثنتان من وكالات قايتباي تتميزان بما يزين واجهتهما من النقوش العربية والرسوم الهندسية المعقدة والقوالب الخشبية المحفور عليها اسم السلطان. ولما وصف لين مدينة القاهرة في سنة ١٨٣٥ كان لا يزال فيها مائتان وألف وكالة وحتى في الوقت الحاضر لا نكاد نمر بشارع إلا ونرى فناءً من هذه

الفناءات تحيط به حجرات متعددة ويدخل إليها من بوابة مرتفعة، تلك هي فنادق الشرق.

وكان الخان في القاهرة في القرن الخامس عشر هو سوق التجار الذي يزدحم بهم، وكان أمراء المماليك يتنافسون في بناء الوكالات لحسن تقديرهم لأرباح الأملاك العقارية، فكانت كل غرفة من غرف هذه الوكالات تدر الأموال على أصحابها من إيجارها للتجار، ومن أشهر هذه الوكالات خان مسرور الذي نزل فيه ذلك الشاب الذي جاء ذكره في قصة الأحدب وأودع فيه بضاعته، وبعد أن استراح ليلة من متاعب السفر قام إلى قيصرية جركس، وهي سوق شهيرة أخرى من أسواق هذه العصور التي بنيت في أيام الفاطميين، وأخذ معه بعض متاعه ليعرضه على تجار هذه السوق، وقد نصحه شيخ السماسرة بأن يتعامل كما يتعامل إخوانه التجار، بأن يبيع ما عنده وأن يتسلم أمواله علي نجوم في يومى الخميس والاثنين، وأن يدعو كاتبًا للعقود وشاهدًا وصيرفيًا لينظموا له أعماله، وقد قال له شيخ السماسرة إنه إن فعل ذلك ضاعف أمواله وتبقى له من الوقت ما يسمح له بالاستمتاع بمباهج مصر ونيلها، وقد استمع الشاب لنصيحة شيخ السماسرة وأعطى البضاعة لمن يبيعها عنه، وأخذ يعيش هانئًا في خان مسرور يتناول طعام الإفطار المكون من الخمر والدجاج ولحم الضأن والحلوى ويتعطر كما يفعل المتأنقون، وظل في ذلك حتى تقابل مع فتاته الموعودة عند حانوت بدر الدين البستاني، ثم حدث له ما كان يخفيه القدر إذ جعل منه عبرة لمن يعتبر، ولإن قطعت يد

الشاب وعلقها الجلاد على باب زويلة، فذلك ما كان يحدث كثيرًا في أيام المماليك.



سوق الرقيق

وخان مسرور هذا «والحقيقة أنهما خانان أحدهما أكبر من الآخر» قد بُني على الأرض التي شُيد عليها من قبل القصر الفاطمي الكبير حيث كان يباع الرقيق، وكان مسرور أحد عبيد صلاح الدين المقربين إليه يقوم بهذا البيع، وقد ترك هذه الدار وقفًا خيرية للفقراء، وكان البناء الكبير من هذين الخانين يحوى نحوًا من مائة حجرة وكان يفضله تجار سوريا وهو أشهر الخانات على الإطلاق في رأى المقريزي، ولكن دولته قد دالت وهجره رواده وتهدمت حجراته على أثر ما أصاب تجار سوريا من الإفلاس بعد أن غزا تيمور لنك بلادهم.

ومن الخانات الشهيرة كذلك خان بلال، وكان عبدًا للملك الصالح حفيد العادل أخي صلاح الدين، وكان بلال هذا ذا حظوة عند سيده، حتى أن السلطان قلاوون قال فيما بعد: رحم الله مولانا الصالح فقد اعتدت في أيامه أن أحمل نعل ذلك العبد كلما دخل بلال عند مولانا.

وكان هذا العبد ذا ثروة طائلة، وكان كثير الصدقات وكثيرًا ما امتدحه الشعراء الذين أجزل لهم العطاء، ومن جليل أعماله بناؤه الخان المشهور باسمه، حيث كان التجار يودعون نفائسهم، وقد ذكر المقريزي أنه اعتاد أن يدخل ذلك الخان، وكان يرى الصناديق منها الكبيرة والصغيرة، وكانت لكثرتها تملأ المكان حتى أنه لم يكن هناك مكان لقدم إلا مسافة صغيرة في الوسط، وكانت هذه الصناديق تحوي من الذهب والفضة ما يذهل العقل، كذلك كان هناك خان السبيل في خارج باب الفتوح وقد شيده قراقوش وزير صلاح الدين، ووقفه لأبناء السبيل ينزل فيه منهم من يشاء بدون أجر، كما كان هناك وكالة قوصون التي بناها الأمير قوصون زوج ابنة السلطان الناصر على مقربة من جامع الحاكم، وكان بحارو سوريا يخزنون فيها الزيت والسمسم والصابون والفواكه المجففة والفستق واللوز وأنواع الأشربة وما شاكلها، وكانت أوامر الأمير تقضي بأن لا تؤجر الغرفة من هذه المخازن بأكثر من خمسة دراهم، وبأن لا يلحف الموكل بالتحصيل في طلب الأجر، وأن لا يرد كائن من كان عن النزول في الوكالة، وكان هذا الخان لقلة ما يُطلب فيه من أجر، كثير الزحام في أيام المقريزي، يعج بالمسافرين والحمالين، ويضيق بالأحمال،

وكان به ثلاثمائة وستون حجرة للنوم فوق المخازن، وقد استؤجرت كلها بحيث اتسعت لنحو أربعة آلاف شخص، ثم صار هذا الخان خرابًا على أثر غزو التتار سوريا، وكان قبالة باب زويلة سوق الفاكهة حيث كانت تباع منتجات البساتين المجاورة للقاهرة، وكان هذا السوق مسقوفًا، شأنه في ذلك شأن أغلب الأسواق في سالف الزمن، ليمنع أشعة الشمس من أن تنفذ إلى داخله، وكانت الفاكهة ذات الرائحة التي تشبه رائحة أشجار الجنة، ترتب بصورة تنم عن ذوق سليم، كما كانت تزين بالورود والحشائش الجميلة (١).

وكانت هناك أبنية كثيرة مماثلة، يروي لنا المقريزي تاريخها في كتاباته المطولة حتى يجعلنا نكاد نكوِّن في الذاكرة صورة كاملة تمثل ما كانت عليه الحضارة في القرن الخامس عشر، وعلى كل حالة فإن القاهرة كانت مكانًا جميلًا أنيقًا في تلك الأيام، وكانت قصور المماليك التي لم تبق الأيام منها إلا على بقايا من جدران شامخة عارية من الزينة في مثل قصر بشتاك وباب دار يشبك الضخمة المجاورة لمسجد السلطان حسن، وفي مثل قصور قايتباي ومسجد الأمير ماماى «المعروف ببيت القاضي» الذي عنى بترميمها وحفظها، وكانت كل هذه القصور في أوج عظمتها، وكانت الأحياء المختلفة لا تزال يفصل بعضها عن البعض الآخر أبواب ضخمة تقفل ليلًا، وكانت الأسواق مسقوفة بالحصير أو بالخشب تظللها من وهج الشمس، كما كانت النوافذ مغطاة بمشربية من الخشب الدقيق الصنع.

وقد وصف لنا المقريزي سبعًا وثلاثين حارة أو حيًا وثلاثين خطًا وخمسة وستين شارعًا أو دربًا، وواحدًا وعشرين زقاقًا أو خوخة وتسعًا وأربعين رحبة، وخمسين سوقًا، وثلاثًا وعشرين قيسرية، وأحد عشر فندقًا أو خانًا أو وكالة، وخمسة وخمسين قصرًا ودارًا وأربعة وأربعين حمامًا، وثمانية وعشرين بستانًا، وأحد عشر ميدانًا لسباق الخيل، وكثيرًا من المناظر.

ولا يزال كثير من الشوارع يحتل مكانه القيم كما لا يزال بعضها يطلق عليه الاسم القديم، ومن أمثال ذلك: الصليبية، وبين القصرين، وبين السورين، وحارة برجوان، وسوق السلاح، وخان الخليلي، والدرب الأصفر، والحبانية، والخرنفش.

ومما هو جدير بالملاحظة أن التغيير الذي حدث للأحياء القديمة في القاهرة أقل مما طرأ على أحياء لندن القديمة ولكن مما يوجب الأسى، فلقد تغيرت لندن لأنها نمت وتقدمت، أما القاهرة فقد ظلت على حالها نسبيًا لأنها تتهدم وتنحط شيئًا فشيئًا.

ولاشك في أن ضياع تجارة الهند واعتماد البلاد على تركيا وسوء حكم الباشوات الأتراك وبكوات المماليك، كل هذه كانت من العوامل التي قللت من رخاء المدينة التي ازدهرت في أيام سلاطين الأتراك والشراكسة.

وقد اقترن الاضمحلال التجارى باضمحلال آخر في الفن، وعلى الرغم من وجود بعض المصنوعات النحاسية والمنسوجات الحريرية وصياغة المجوهرات في القاهرة من بقايا المهارة الفنية القديمة، إلا أنها لا تعتبر شيئًا يذكر بالنسبة لما كانت عليه الصناعة قبل ذلك، وليس على المرء إلا أن يزور دار الآثار العربية ليقف على الروائع التي أخرجها فنانو القاهرة في عهد المماليك. ولما كان تقدم الفن يتماشى مع تشييد المساجد التي بلغت ذروة الكمال من حيث زخرفها في ذلك العهد، فإن القطع الفنية التي تحويها دار الآثار العربية كانت في زمن ما نقوشًا أو أثاثًا من تلك المساجد: فمن خوان من النحاس مطعم بالفضة وموشى بالرسوم الدقيقة، إلى غلاف لمصحف القرآن الكريم، إلى سراج أو ثريا، إلى كأس، إلى مبخرة، إلى مشكاة، إلى قنديل من الزجاج المنقوش بالميناء تزينه كتابة باللون الأزرق المتداخل بالقرمزي والمذهب، وكلها تدل على أن مصادرها هي مساجد القرن الرابع عشر، كما أن ألواح الأفاريز المطعمة بالعاج والأبنوس، كلها تدل على أنها صُنعت في ذلك العهد نفسه، ويحوي متحف كنسنجتون الجنوبي والمتحف البريطاني مجموعات رائعة من الصناعة المعدنية العربية التي لا مثيل لها.

ومما يؤسف له أن القاهرة قد خلت من سوق لنقاشي المعادن كما كان في عهد المقريزي، فإن نقش الفضة والذهب والكتابة على النحاس كانت من أبدع دقائق الفن العربي، ولم يكن ذلك في أصله مصريًا، وإنما جاء عن طريق الفنانين الساسانيين من بلاد الموصل وبلاد بين النهرين، وكانت أقدم النماذج التي تعرفها من الموصل على نهر دجلة وهي مهد

صناع المعادن المبهرة الذين عاشوا على مقربة من مناجم جبال طوروس، وليس من شك في أن هؤلاء الصناع قد اجتذبتهم القاهرة في أيام ازدهارها في عهد سلاطين المماليك، وأنها ربما اجتذبتهم قبل ذلك، وعلى كل فإن خير ما صنعت أيديهم كان مرده إلى السوق المصرية حتى أنه نقشت عليه أسماء بعض حكام مصر المشهورين وأمرائهم، فهناك صندوق المجوهرات الذي نُقش عليه اسم العادل الثاني وألقابه «وهو حفيد أخي صلاح الدين» الذي جلس على عرش مصر من سنة ١٢٣٨م إلى سنة ١٢٤٠م، ثم خلفه الصالح أيوب زوج شجرة الدر، وهذا الصندوق من صناعة الموصل منذ أقدم العهود، وجوانبه يزينها ثمانية ألواح من المعدن الرقيق «على شكل النقش الموجود على النقود الفضية التي كانت متداولة في عهد أسرة صلاح الدين»، وتحتوي هذه الألواح الدقيقة الصنع على مناظر للصيد وقتال مع أسد وفارس يحمل بازًا على معصمه «ويلاحَظ أن يد الفارس يغطيها قفاز يلبسه دائمًا مربو الصقور» وما إلى ذلك من المناظر، أما المسافة بين كل لوح وآخر فكانت مزينة بالرسوم العربية، فقد أظهرت شخصيتها وكونت طرازًا خاصًا بها، يحوى مزايا لا يمكن أن تكون قد اقتُبست من فن الموصل.

فأسلوب القاهرة هو الذي نراه على الصواني والأواني والكؤوس والمباخر وغير ذلك من أوعية المماليك في مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، التي نحتفظ بها في متاحفنا ومجموعاتنا الخاصة، وقد تلاحظ بعض أوجه الشبه بينها وبين صناعة الموصل، إلا أن العناصر الجديدة واضحة فيها وضوحًا تامًا، فصور الفرسان والأمراء الجالسين قد

اختفت في معظمها، وهو ما كان منتظرًا عندما تعود الأمراء الأتراك التمسك بالدين فيما يتعلق بتصوير الحيوانات، ولو أنهم أبقوا على حيوان الصيد على حافات الصور وأبقوا على طيور الماء وأشباهها في مختلف أماكن لوحاتهم الفنية.

وترجع كثرة وجود طير البط في الصور إلى سببين: فهي أولًا كثيرة في مستنقعات الموصل، وثانيا لأن مؤسس دولة المماليك الذين حكموا مصر مائة سنة تقريبًا وهو قلاوون، كان من الأتراك الذين نزحوا من بلاد القفجاق، واسم قلاوون بلغة المغول «البط»، وفي هذه التسمية من التورية ما يضارع ما كان يسجله أسقف أسلب على جدران مصلاه في كنيسة وستمنستر.



في الدرب الأحمر

وتختلف زخرفة الصناعات المعدنية في أيام المماليك عن زخرفة الموصل اختلافًا بينًا، فالكتابة في المصنوعات المملوكية مرتبة في براويز عريضة مطعمة في مساحة كبيرة بالفضة، ويفصلها عن بعضها ميناء نُقش عليه اسم السلطان أو تفصلها دروع يحملها أصحابها، وتظهر فيها الكأس أو عصا البولو التي تنم عن مركز صاحبها في البلاط، إن كان ساقيًا أو مدربًا للبولو، أو تفصلها أشكال هندسية كالمعين، ونقوش تحاكي الكتابة الهيروغليفية المنقوشة على الآثار المصرية القديمة التي كان يجهلها النقاشون كل الجهل، وكثيرًا ما صورت حول الميناء أزهار وأوراق شجر تذكرنا برسوم دمشق وأزهار وأوراق متشابكة متعانقة عليها طيور.

ولم تكن الدقة في الصنعة أقل إعجازًا من الدقة في التصميم، إذ لم يكن بين فناني العرب من لا يشعر بمسئوليته للفن، فكانوا ينحتون الرسم بأكمله على النحاس ثم يفرغون الحافات لتحمل صحائف الذهب والفضة، فتطرق وتصقل في موضعها، ثم يتتبعون كل لوح من الفضة فيهذبونه بالمنقاش حتى لا يتركوا جزءًا عاريًا من النقش إلا غطوه برسم أوراق الشجر أو عيون أو أجنحة طيور حتى لا يبقى مكان ولو كان صغيرًا كرأس الدبوس دون أن يولوه عناية ودقة، ثم يدهنون الشقوق التي يظهر فيها النحاس بطلاء خمري يضفي على الصورة رونقًا خاصًا، ومما يؤسف له أن كثيرًا من الفضة ومن الطلاء قد أضاعه مرور الزمن حتى أنه ليصعب إدراك ما كانت عليه نقوش هذه الأواني والصواني التي بقيت للآن، إلا أن الفحص الدقيق يبين لنا مقدار المهارة والدقة في الصناعة التي لا يستطيع الزمان محوها.

وفن زخرفة الفضة كفن العمارة والحفر على الخشب والعاج وسائر وسائل التعبير عن الجمال وصل إلى ذروة النبوغ الفني والثقافي في عصر الناصر محمد بن قلاوون، وذلك في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، وكلما وقع بصرنا في متحف من المتاحف على أنموذج بديع الصنعة من المعدن توقعنا أن نرى اسم أحد الأمراء الناصريين إذا لم يكن اسم السلطان نفسه منقوشًا عليه.

ويروى لنا المقريزي أن هذا الفن الجميل قد فقد قيمته في أيامه، أى في أوائل القرن الخامس عشر، كان هذا الفن يرضي كل ذوق، وقد رأينا من صناعة المعادن المنقوشة عددًا يفوق الحصر، حتى أنه لم يكن في القاهرة كلها منزل يخلو من الأواني النحاسية المزخرفة، إذ كان من مستلزمات جهاز العروس أن يكون به خوان عليه أوانٍ وصحاف من النحاس فوق رفوف من الخشب المطعم بالعاج يقدر بنحو مائتي دينار. بينما نرى ذلك كله إذ بهذا الفن قد اندثر من مصر كلها، ولقد قل طلب الناس لهذه الصناعة في أيام المقريزي، ومنذ مدة امتنع الناس عن شراء ما كان يُعرض منها للبيع حتى هجر السوق الصناع الذين حذقوا هذا الفن ولم يبق في الأسواق أثر لهذه الصناعة (١).

مما سبق قد يُفهم أن الفن قد مات ولكن الحقيقة أنه قد انتقل إلى مكان آخر، فإن التراث الذي ورثته القاهرة من الموصل قد أورثته البندقية بدورها، فقد رأينا أن أهل البندقية كانوا العملاء الأوروبيين للتجار المصريين، وليس من المبالغة في شيء أن نقول إن البندقية كانت مدينة نصف شرقية، وإن النفوذ الشرقي كان يطغى على إيطاليا بأجمعها، وإن

أحد شعراء القرن الثاني عشر حزن على بيزا التي زعم أنها صارت تحت سلطان المغاربة والهنود والأتراك، وإن كان في مدينتي فرارا ولوتشيرا إذ ذاك حي شرقى تسود فيه العوائد الإسلامية منذ استخدم فردريك الثاني حملة الرماح من العرب، غير أن البندقية كانت أكثر تأثرًا بهذا النفوذ، فإن تجارها ومستعمراتها قد أوصلت إلى تجارها المصنوعات الفنية الشرقية، وأحضر سفراؤها هدايا سلاطين المماليك الفاخرة، وسرعان ما اجتذبوا الصناع إليهم كما استحضروا التحف التي أطلقوا عليها اسم «صناعة اليهود»، وقد سمع ذلك الشاعر الإنجليزى الشهير تشوسر وذكره في شعره حيث وصف ملابس أحد الجنود فقال: وفوق ذلك كان يلبس درعًا من الزرد أبدعت صنعه يد «الصانع اليهودي».

ولقد برعت البندقية في نقش الصواني على الطراز العربي ولو أنه طرأ عليه اختلاف كثير في الرسم وفي الأداء الفني، ولقد استعملوا الفضة خيوطًا بدلا من الألواح والصفائح العريضة، واتخذوا الرسوم العربية إمامًا لهم وهذبوا أشكال الأواني فأصبحت تختلف عما كانت عليه في يد الصائغ المصري في القاهرة، ثم بدأ الصناع الإيطاليون ينقلون الفن عن محمود الكردي وزملائه من فناني العرب، وأسموا أنفسهم الأزميون أو العجم، لأنه كان من الشائع أن يطلقوا على كل صناعة شرقية اسم أعجمية، فنسمع عن الفنان الإيطالي جوجيو تشيني الصانع العجمي في مدينة مانتوا وبولس العجمي الذي نبغ في الفن الذي نُقل من مصر.

وإذا كنا قد تكلمنا عن صناعة الفضة دون سائر فنون القاهرة في العصر الوسيط، فما ذلك إلا لأنها الفرع الذي أمكن تتبع تطوراته في سلسلة من النماذج التي لا يتطرق الشك إلى تواريخ صياغتها، غير أن أهم فنون الزخارف التي استخدمها بناة المساجد كانت النقش على الخشب والحفر على الرخام، وأهمها جميعا أفاريز المنابر والأبواب حيث يتطلب الجو الحار ضرورة جعل المسطحات المنقوشة صغيرة الحجم حتى لا تكون عرضة للالتواء، واستخدام الرخام المعرق في زينة المحراب يكسب البناء رونقًا وبهاءً، حتى ولو تنافر الانسجام بعض الشيء، ولقد قلد كثير من الأشراف هذه الصناعة في تزيين أسفل جدران منازلهم، ولكنه آل للأسف إلى الزوال.

ومما يسترعي النظرة كثرة استخدام الخشب في مصر للزينة مع أنها بلاد لا تصلح لنمو الأصناف الجيدة من الأخشاب، ومع ذلك فإن جفاف الجو يحفظ الخشب أجيالًا طويلة ولو أنه يعرضه للالتواء، فقد عاشت أربطة الأعمدة في مسجد ابن طولون أكثر من ألف سنة لم يتطرق إليها الانحلال، حتى أن سقف الأورقة مازال حافظًا لكيانه إلى الآن، ويدلنا هذا السقف الخشبي على أن الصانع في القرن التاسع كان يستعمل الطريقة التي لا تزال تستعمل في جميع أدوار الصناعة العربية حتى دخلت طريقة البناء الأوروبية، وهذه الطريقة عبارة عن استعمال قطع من جذوع النخيل بعد أن تشرح نصفين وتبطن السطوح الثلاثة المعرضة بألواح حتى تصير على شكل مربع، أما التجاويف التي تحدث بعد تربيع القطع، فتقسم بواسطة فواصل متقاطعة يتكون منها جيوب أو خزائن،

وكثيرًا لا تبقى الجذوع غير مبطنة بألواح الخشب في المنازل الخاصة، وسواء أكانت مبطنة بالألواح أو تُركت على أصلها مستديرة، فإن هذه العروق والجيوب التي تتكون منها كانت تُغطى بطبقة من الجص مدهونة على قطعة من القماش ومزينة برسوم عربية ذات ألوان زرقاء وحمراء وذهبية.

ولا تزال هذه السقوف ذات الجيوب أو الصناديق في منازل عديدة تسر النظر بحسن رونقها وانسجام ألوانها الحمراء والزرقاء وحافاتها المذهبة وبراعة تغطية الانتقال من السقف إلى الجدران بالزخارف المدلاة والمنقوشة بما يتماشى ورسم السقف.

وهناك سقوف أخرى تقل أهمية من الناحية الفنية عن السقوف ذات الجيوب التي ذكرناها، وهي هذه السقوف التي استُعملت فيها ألواح الخشب ملتصقة بعضها إلى بعض، وقد كسيت بطبقة رقيقة من الجص ونُقشت فوقها رسوم عربية ونماذج نباتية، وجرت عليها فرشة الألوان وذهبت بعد ذلك، أو استعملت فيها الرسوم الهندسية على قطع من الخشب المطلي باللونين الذهبي والأحمر، ثم ألصقت بالسقف، وقد مُلئ ما بينها بالرسوم العربية على الجص.

ولقد تجلت صناعة النقش على الخشب في مناسبات عديدة في المنابر، وفي مساند المصاحف، وفي الأبواب الداخلية، وفي الخزانات، وفي المساجد، ومن أقدم الأمثلة ما أخذ من مسجد ابن طولون ومسجد الحاكم واحتفظ به في دارالآثار العربية بالقاهرة إلى اليوم، وتدل النقوش

العميقة التي تشبه الملفات الحلزونية على مصادرها البيزنطية، كما تشبه النقوش، التي هي أعرق منها في القدم، والتي وُجدت في ناحية عين الصيرة جنوبي القاهرة.

وقد حدث في القرن الثالث عشر تغيير في أسلوب النقش والزخرفة، فقد بطلت الرسوم التي ترتكز على وحدات من أوراق الشجر، واتخذ الفنانون زخارف أدق صنعًا وأكثر تشابكًا ووزعوها على ألواح هندسية الشكل صغيرة الحجم، ولعل خير مثال لهذا الطراز هو ما صُنع منه غطاء قبر الشيخ في سنة **١٢١٦م**، وقد احتفظ متحف جنوب كنسنجتون بلندن بأحد جوانبها، واحتوى متحف دار الآثار العربية بالقاهرة على الجوانب الثلاثة الأخرى. ثم غطاء قبر الصالح أيوب المزخرف «**١٢٤٩**»؛ فقد رتبت الزخارف على شكل نجوم سداسية، منحوتة نحتًا بالغ الدقة، وقد ظهرت فيه سيقان أشجار الفاكهة وهي من المظاهر الشائعة في رسوم القرن الثالث عشر المنقوشة على الخشب. ومما يستحق الملاحظة بوجه خاص، محراب مصلى «السيدة رقية» الذي صنع في الغالب في هذا القرن، ويمتاز بإبراز رسم شجيراته وكأنها متفرعة من آنية (**١**).

غير أن فن النحت على الخشب لم يصل إلى الذروة من الإتقان إلا في عصر سلاطين المماليك وخاصة في عصر الناصر، فقد استُعملت الأخشاب الملونة لإظهار فكرة البروز والتجسم، واستُعمل التطعيم بدل النقش على الخشب الأصلي، فكثيرًا ما وجدنا ألواحًا صغيرة مغروسة في

أرضية الأبنوس، وهذه الأرضية نفسها منقوشة وموضوعة في إطارات متعددة متداخلة الواحدة منها في داخل الأخرى، وقد لا تجد في مئات اللوحات رسمين متماثلين في الشكل، ومما لاشك فيه أن الجهد الذي بذله الفنانون في نحت هذه الرسوم وفي تركيبها على مسطحات واسعة بهذا الحجم كان جهدًا جبارًا.

وقد ترى أمثلة جميلة من ذلك في المساجد، وقد ترى أيضًا أمثلة أدق صناعة من حيث النحت على الخشب والعاج في أبواب الكنائس القبطية في بابليون التي أخذ المسلمون الفن عنها، غير أنك لا تحتاج إلى الخروج من لندن لترى خير ما أتى به المماليك من النحت، ذلك أن عددًا كبيرًا من روائع النماذج نقل إلى متحف جنوب كنسنجتون في أيام حكم الخديوي إسماعيل وقبل حكمه بقليل، وهناك يتمكن المرء من دراسة بعض النقوش العربية دراسة متئدة، وهذه النقوش الثمينة القيمة، ولو أنها ليست رائعة التكوين، فبعضها مقتبس من منبر جامع طولون الذي عمله لاجين سنة ١٢٩٦م، وبعضها من منبر المرداني سنة ١٣٣٩م، وليس من الذوق السليم وضعها على منضدة فرنسية الصنع، والبعض الآخر مأخوذ من منبر مسجد قوصون، وهي وإن كانت موضوعة في إطار حديث الصنع، فقد احتفظت بنقوشها العربية سليمة، كما أن هناك منبرًا بأكمله يحمل اسم قايتباي، ولكن لا يُعرف اسم المسجد الذي أخذ منه، وكل هذه التحف المذكورة تكون معرضًا جميلًا للفن العربي في أزهى عصوره في النحت على الخشب (٢).

وليست هذه المجموعة متماثلة في صناعتها، فإن بعضها يقصر عن البعض

الآخر من الوجهة الفنية، ومن يدقق في تصميمها ير أن الفن قد وصل إلى ذروته في نقوش المرداني، أي بعد حكم الناصر مباشرة: فمنبر شيخو «١٣٥٨» لا يرتفع من ناحية الفن عن منبر السلطان حسن الذي صنع من الحجارة، ومنبر المؤيد «١٤٢٠» أقل درجة منه، حتى إذا وصلنا إلى منبر جامع قايتباي الذي يُعد مثلًا أعلى لما شُيد في مصر، رأيناه أقل جودة في صنعه مما أخرجته أيدي الصناع في أواسط القرن الرابع عشر، ذلك لأن الرسوم قد فقدت شيئًا من الابتكار، وأصبحت الخطوط جافة ميكانيكية، كما ظهر فيها التكرار خصوصًا في النقش على الحجارة، وهو أمر غريب في صناعة المتقدمين من الفنانين، وقد يكون هذا التكرار راجعًا إلى كثرة استعمال العاج في التطعيم، لأنه أصعب في رسم الخطوط المنحنية، وإن كان أسهل في النقوش الدقيقة، وقد يكون ذلك– وهو السبب الرئيسي – راجعًا إلى تفضيل النقش على الحجارة وزيادة الاهتمام به، فسرعان ما صارت الحجارة هي المادة الرئيسية في البناء والنقش حتى أهملت صناعة القش على الخشب، كما أهملت من قبل صناعة النقش على قوالب الجص، وكان منتصف القرن الرابع عشر الحد الفاصل بين الصناعتين، حيث أصبحت الحجارة المادة المفضلة، وانقسم رجال الفن القدامى إلى فريقين تحول بعضهم من النقش على الخشب إلى النحت على الحجارة واستمر البعض الآخر يزاولون صناعتهم الأولى، ولكنهم اكتفوا بمحاكاة النماذج القديمة دون ابتكار، فكان ذلك إيذانًا بالتدهور والانحلال.

على أنه لو صح أن النقش على الخشب قد تدهور بعد منتصف القرن الرابع عشر، فقد ازدهر نوع آخر من النقش على الخشب، وهو الذي زين واجهات منازل القاهرة بما يشبه النسيج الموشى الدقيق الصنع، ويعرف باسم المشربية، ومما لا شك فيه أن صناعة المشربية كانت قديمة، ولكن ربما كانت كثرة الحرائق في القاهرة أو سهولة عطب هذه المصنوعات، السبب في عدم بقاء نماذج قديمة منها إلى الآن.

أما الشبابيك الخشبية القليلة التي لا تزال في بعض المساجد القديمة، وهي طراز مختلف عن طراز المشربيات، فإنها مربعات خشنة الصنع مقسمة إلى خانات بواسطة قضبان من الخشب مربعة أو مستديرة من الخشب كالتي تشاهد في ضريح قلاوون، أو هي شبكات تغطي فتحات واسعة مربعة ليس للفن فيها نصيب، وقد ترى نوعًا منها أرقى صناعة وأعمدها أكثر تقاربًا وشبكتها أضيق عيونًا، ونقط تقاطعها مطعمة ومنقوشة مثل منبر لاجين في مسجد ابن طولون «١٢٩٦»، ومن الغريب أن المشربية الحقيقية توجد في جامع المرداني، حيث نرى أعلى مثل للنقش على الخشب.

وهكذا كلما تدهور فن النقش ارتفعت صناعة المشربية، وقد تجد نماذج جميلة للمشربية في أوائل القرن الخامس عشر، كما نشاهده في منبر جامع المؤيد مثلًا.

ولكن هذه الصناعة بلغت الذروة في الجودة في عصر قايتباي، حيث نرى نموذجًا جميلًا في منبر أبي بكر بن مظهر، أما صناعة المشربية

فهي صناعة حديثة، غير أننا لا نستطيع تحديد عهد خاص لها، ومن المؤلم أنها قد اختفت كلها، بحيث لا نجد لها أثرًا، ولكن يجب أن لا يغيب عن الذهن أنها كانت مصدر خطر كبير، لسهولة توصيل الحرائق من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع.

ومما هو جدير بالذكر في كل عمل فني قام في القاهرة في ذلك العصر، سواء أكان في العمارة والبناء، أم في النقش على الخشب وتطعيمه، أم في النحت على الحجارة، أم في النقش على المعادن، أو في صناعة الأواني الزجاجية، أنها كانت أعمالًا مبتكرة لا أثر للتقليد أو النقل عن الغير فيها، إذ لم يأت العرب بفن أو صناعة معهم حينما وفدوا إلى مصر وربما كانوا يفتقرون إلى الحاسة الفنية، ولكنهم أخذوا الفن عن رعاياهم الأجانب، وكانوا دائمًا يستحدثون عنصرًا مختلفًا عن الأصل، وهذا العنصر خاص بهم يميزهم في الجو الفني، كما أنهم أدخلوا فنًا عربيًا، فقد أخذوا صناعة المعادن عن الفرس، ولكنهم سرعان ما جعلوها صناعة عربية، كما قلدوا الروم والقبط في النقش على الخشب، ثم أضافوا إليه من روحهم وملكاتهم ما جعله فنًا جديدًا، وقد وجدوا صناعة الزجاج في مصر وتعلموا فنون القسطنطينية في التذهيب وتركيب الميناء، ثم أخرجوا طرازًا من القناديل والمشكاوات لا يحاكيه أى نوع آخر في الدنيا.

ولم يكن التغيير الذي أحدثه العرب في الصناعة تغييرًا في الرسم والتصميم أو في الشكل، ولكنه كان تغييرًا شاملًا في طابعها، حتى جعلوها في كل فرع من فروعها فنًا عربيًا قلبا وقالبًا، ولم يكونوا ناقلين عن نماذج

ثم احتفظوا بأصولها، بل كانوا قادرين على تهذيب الأصول التي نقلوا عنها وخلق أصول جديدة مبتكرة، ولعل أغرب ما في هذا الأمر أن أرقى ما وصلت إليه الصناعة، قد تم أشد في الأوقات اضطرابًا، وفي عهد أقل السادة الأجانب ثقافة وعلمًا.

وفي الحق أن عصر السلاطين المماليك، كان أزهر عصور مصر الإسلامية، وأزهاها في الفن والأدب.

الباب التاسع

البكوات والباشوات

سلطة الأمراء المماليك «البكاوات» لاتزال قائمة – ضعف الباشا – القتال في الشوارع – البك العثماني – رضوان الجلفي من أسرة الشرابي – المكتبات –

حالة التعليم – التعصب – الخرافات – مساجد العصر العثماني – علي بك – عبد الرحمن كتخدا – محمد بك أبو الدهب – محمد علي – استصفاء أموال الوقف – لجنة حفظ الآثار العربية – رسالة إلى اللورد كرومر – حفظ الآثار – إحياؤها – لورد كرومر – المنح التي تقدمت بها لجنة الدين العام والحكومات المصرية

لم يجرؤ أحد على كتابة تاريخ لمصر في خلال القرون الثلاثة التي خضعت فيها السلاطين الأتراك منذ أن فتحها سليم الأول في سنة ١٥١٧، إلى أن أسس فيه محمد علي أسرة شبه مستقلة في سنة ١٨٠٥، وكانت هذه الفترة متشابهة الأحداث، ينقصها مثل تلك الشخصيات البارزة التي ظهرت في الفترة الأولى من عهد المماليك، وكأنها مسرحية يعاد تمثيلها على مسرح صغير ويقوم بأدوارها ممثلون أقل شأنًا وأضعف فنًا، وقد تجردت الحكومة المحلية من الروح التي كانت تخلقها الحروب في البلاد الأجنبية، كما اختفت حياة الترف والبذخ التي كانت تنعم بها

القصور الملكية وأهل البلاط، مما كان سببًا في تشجيع الفنون والصناعات ومنافسة الأمراء، كما أن الشعور بالتبعية وسياسة الإمبراطورية العثمانية التي كانت تنطوي على الجشع في جباية المال هدمت كثيرًا من مجد المماليك الأول.

ومع ذلك لم يكن ثمة فارق كبير بين القاهرة تحت حكم الباشوات وبين مدينة القاهرة التي وصفها المقريزي، ذلك أن التغييرات في الشرق تحدث ببطء لا يكاد يدركه الإنسان، وإن أحداث الزمن تسير على مهل كما تسير عجلات السواقي المنتشرة في البلاد، وهكذا جاء الاضمحلال والتدهور، فقد استمر أمراء المماليك ذوي قوة وبأس، غير أنهم، بدلًا من أن ينتخبوا واحدًا منهم سلطانا عليهم، اختار لهم الباب العالي، باشا من قبله، وكان يحد من سلطة هذا الباشا مجلس من الأمراء المماليك عرفوا من ذلك الوقت بالبكوات، وكثيرًا ما كان عزله يأتي على أيديهم أو نتيجة لمؤامرات الجنود المتمردين. وعلى الرغم من أن الباشا كان يصل بصحبة حاشية مكونة من ألف ومائتي رجل وكان ينثر أكياسًا مملوءة بالنقود الذهبية في أيام الأعياد، لم يكن في مقدوره أن يتغلب على هيئة رئاسة الجند، وكان لشيخ البلد، وهو رئيس المماليك، سلطان يعلو سلطان الباشا.

والمماليك لم يتغيروا عما كانوا عليه في أيام سلاطين الشراكسة، ولو لم يكونوا هم أنفسهم، إذ قتل السلطان سليم كل من وصلت إليه يده منهم، ولكنهم بقوا في تكوينهم كما كانوا من الأتراك ومن بلاد

جورجيا «الأرمن» ومن الشراكسة، كل منهم كان عبدًا جلب من سوق الرقيق ثم ارتقى إلى الوظيفة فالإمارة، وعاشوا محتفظين بعظمة مراكزهم في قصورهم بجوار بركة الأزبكية أو على بركة الفيل أو في حى الصليبية أو في شارع سوق السلاح، تحيط بهم حاشية كبيرة.

وهم بعد ذلك، يحتفظون بأحقادهم القديمة ويتلهون بحروبهم الداخلية ومناوشاتهم في الشوارع، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من المماليك طوال حياتهم، وقد انضم إليهم عنصر جديد من عناصر الفوضى، حين وفدت على البلاد الفرق التركية من العزب والانكشارية واحتلوا ثكنات القلعة، وقد أصبح قواد هذه الفرق أقوى الأمراء في مصر وأعظمهم خطرًا.

ولم يختلف أمراء المماليك في هذا العصر عن أمراء الفترة الأولى، إلا في ضعف وضياع تلك اليد القوية التي كانت تظهر من وقت إلى آخر في شبح أمير أو سلطان تسمو شخصيته على شخصياتهم فيكبح جماحهم إلى حين، إذ أن الباشا التركى لم يكن في وقت من الأوقات ذا نفوذ أو شخصية، تقارَن بشخصية بعض سلاطين المماليك الأقوياء، ولذا لم تتغير الحال في مصر أيام الحكم العثماني الجديد، عما كانت عليه في أيام أغلب السلاطين الشراكسة.

والواقع أن البلاد كانت لا تزال خاضعة للمماليك، لأن الباشوات كانوا يتغيرون على الدوام، وكانوا يعيشون في خوف وفزع من الجند، أما الأمراء فكانت في أيديهم السلطة الحقيقية التي يستخدمونها– كما

كانوا دائمًا – لمصالحهم الشخصية وللقضاء على منافسيهم نفيا من البلاد أو قتلا، ولذا كانوا يتكتلون جماعات وأحزابا، ففيهم القاسمية وفيهم الفقارية، وكان أتباعهم يتقاتلون في الشوارع، وكثيرا ما حاصروا فرق العزب الحكومية في القلعة شهورًا عديدة، وكانوا قد اكتشفوا أن المدفعية تتحكم في القلعة إذا وُضعت على التلال الواقعة خلفها.

وقد جاء في تاريخ الجبرتي ذكر شراذم من الجنود تحصنت في مساجد ابن طولون وألماس والمحمودية وغيرها، وأخذت تطلق النيران من مدافعها من بين المآذن المجاورة، وقد أتى وقت وصلت فيه الفوضى حدًا يعجز عنه الوصف، إذ أُقفرت الشوارع ونُهبت المنازل، وامتنع الوصول إلى بولاق أو مصر القديمة، ثم هدأت الحالة، إذ تمكن أمير عظيم من القبض على ناصية الحال.

وليس من السهل أن نجد فرقًا كبيرًا بين أمراء ذلك العهد وأمراء العصر الذهبي للحضارة المملوكية، إلا أن فرصتهم للظهور كانت أقل، لعدم تمكنهم من شن الغارات وإدارة الحروب في سوريا وآسيا الصغرى لمصلحتهم الخاصة، ذلك أن الفِرق التي كانت تجند من مصر للخدمة في البلدان الأجنبية كانت تعتبر جزءًا صغيرًا من جحافل الإمبراطورية العثمانية.

ولكن ميولهم وأعمالهم وأخلاقهم كانت كميول وأخلاق المماليك الذين سبقوهم منذ قرنين، وإن كان هناك فرق، فقد كان في العزيمة لا في

الرغبة، إذ كانت الفرص التي أمامهم أقل بكثير من الفرص التي سنحت للآخرين، ولكنهم كانوا يشبهونهم في الجنس والخلق والأفعال.

وقد يكون بعض الأمراء المماليك ذوي شخصية قوية كشخصية الأمراء الأقدمين، فمثلًا عثمان بك ذو الفقار، الذي عاش في النصف الأول من القرن الثامن عشر، فإنه بعد أن قام بدور بارز في الخلافات الحزبية التي كانت قائمة بين أميره ذي الفقار بك ومنافسه جركس بك، وبعد أن شاهد بعينه مصرع أحد عشر أميرًا من ذوي النفوذ في داخل قصر الدفتردار ولم ينج بنفسه إلا بأعجوبة بعد أن أصيب بضربة سيف في عمامته، صار بعد ذلك أعلى الأمراء مقامًا في القاهرة، وأصبح في قدرته أن يرفع مماليكه الخاصة إلى مرتبة الإمارة، وصار أميرًا للحج في سنة ١٧٣٩، وهو منصب يتطلع إليه أعظم الأمراء في مصر.

ولما قُتل النائب (١) على الجلفي، عزل عثمان بك ذو الفقار، الباشا عن منصبه، وعين رضوان نائبًا ورئيسا لفرق العزب. وكان عثمان بك أول أمير جرؤ على دعوة الباشا إلى وليمة في منزله، وكان الأمراء جميعًا يخضعون له خضوعًا تامًا، وكان يعقد مجلسًا في قصره لينظر في المظالم، ولما كان عفيفًا نزيهًا كان شديد الوطأة على المغتصبين والطاغين، وكان يراقب مفتش الأسواق بنفسه عن كثب، ويحدد أسعار الخبز وغيره من ضروريات الحياة، ويتأكد من أن أموال البر تُنفق في وجوهها الصحيحة.

ولقد كان على خلق كريم، ذا أفكار وآراء نبيلة، عادلًا قويًا نزيهًا، نظيفًا، أبيًا، كريمًا، ولما تآمر عليه منافسوه ونفوه من مصر، ترك وراءه سمعة طيبة وذكرًا عاطرًا، حتى كان الناس يؤرخون الحوادث بعهده، فيقولون حدث كذا وكذا بعد رحيل عثمان بك بكذا سنة، أو كان عمري كذا سنة يوم رحيل عثمان بك.

وكان رضوان الجلفي الذي جاء ذكره آنفًا، علمًا آخر من أعلام النبل والشرف في القرن الثامن عشر، وكان عهد توليته النيابة بالاشتراك مع زميله إبراهيم عهد هدوء وسلام، وانخفضت أسعار المأكولات إلى حد لم تبلغه قبل عهدهما، وعم اليسر والرخاء جميع الطرقات، وكان كل من الأعيان في تلك الأيام يفتح داره مرتين في كل يوم ظهرًا ومساءً لكل قاصٍ ودانٍ من أبناء السبيل، فيقيم الموائد في بهو عظيم ويتصدرها بنفسه وحوله مدعووه وزائروه ومماليكه وأتباعه، وكان من العار أن يُمنع أحد من الدخول، وكانت تُوزع أطباق الأرز والعسل واللبن على الفقراء في أيام الأعياد، كما كانت تُوزع الحلوى في أيام الجمع والمواسم.

وكان أحد منازل رضوان يقع على ضفة بحيرة الأزبكية (وكانت بحيرة على الأقل في أيام الفيضان)، وكانت تعلو ردهاته قباب غشيت بالنقوش العربية المذهبة على أرضية زرقاء تتناسب مع الزجاج المتعدد الألوان، كما بنى أكشاكًا في حديقة بجوار القناة حيث حفر بركة جعل فيها مسقطًا للماء، وفي هذه الحديقة كان يختلي هو وأصحابه بعد أن أشبع أطماعه من الشهرة والجاه، فيترك لنفسه العنان في اللهو والملذات،

ولم يكن رضوان يهتم بالأخلاق مثلما كان يهتم بها عثمان بك، ولذا أطلق الحرية لسيدات القاهرة وغانياتها الفاتنات، وأنهى إلى رجال الشرطة بألا يزعجوهن أو يضيقون على المعجبين بهن، فصارت القاهرة مرتعًا للغزلان أو جنة للحور والمحبين وشرب أهلها كؤوس اللذة حتى الثمالة، كما لو كان قد غاب عنهم أنهم يحاسبون يومًا ما على ما كانوا يفعلون، وليس بغريب أن يتغنى الشعراء بمدحه فيذكرونه بالصهباء وروائح الجنة.

ولقد زاد الآن قصر رضوان الذي كان على بحيرة الأزبكية وبقي باب العز الذي بناه ليوصل إلى القلعة من الرميلة لتخليد ذكراه، ولقد لقى رضوان حتفه بطريقة مفجعة، فقد أحاط المتآمرون بداره التي كانت بشارع قوصون وأمطروه بقذائفه النارية، حين كان يقصر شعر رأسه، فقاتل بكل ما احتفظ به من قوة، ولما كسرت ساقه امتطى جواده ودافع عن نفسه حتى تخلص من مهاجميه، وفر إلى صعيد مصر ليموت هناك، وكان آخر قواد العزب البواسل (١).

ولم يكن الأمراء وحدهم الذين يملكون مثل منزل رضوان، فقد كان هناك على بحيرة الأزبكية منزل آخر لتاجر مشهور اسمه أحمد الشرايبي «الصيدلي»، وقد أنجبت أسرته أمراء واقتنت المماليك، وكانت واسعة الثراء، فأنفقت أموالها كما ينفقها السادة المثقفون ذوو النفوس العالية، وتردد على دارهم العلماء، وكانت هذه الدار تحوي المخطوطات النادرة والمصادر العلمية العديدة، فكان إذا ظهر كتاب ولم يكن في منزلهم نسخة منه، عملوا على شرائه مهما بلغ ثمنه ووضعوه في متناول كل

زائر، فكان طلاب العلم على ثقة من إيجاد ما يطلبون في مكتبة الشرايبي. وكان يسمح لمن أراد منهم أن يستعير كتابًا إلى أجل أن يفعل ذلك، وكثيرًا ما احتفظ به لنفسه لأن التاجر العظيم لم يكن يسمح له كرمه بمطالبة مستعير كتاب برده بل كان يسعى إلى اقتناء نسخة أخرى بدل النسخة التي احتفظ بها طالب العلم، وكانت هذه الطريقة ترضي العلماء رضاءً تامًا.

ولم يكن أفراد هذه الأسرة من هواة جمع الكتب وإعارتها المستنيرين فحسب، بل كانوا من غلاة أنصار المذهب المالكي، متمسكين بالأخلاق الكريمة، مترفعين في أنسابهم لا يتصاهرون إلا مع الأسر التي من درجتهم ومركزهم الاجتماعي، لا تخرج بناتهم من منازلهم إلا إلى بيت الزوج أو إلى القبر، وكان هذا احتياطًا محبوبًا في زمن أباح فيه رضوان المترف مغامرات العشاق، وفي زمن كان يعترض فيه أهل السوء طريق سرب من سيدات الطبقة الراقية خرجن يستروحن النسيم بالقرب من الأزبكية كما تفعل السيدات الآن، فيجردونهن من حليهن وملابسهن جميعًا.

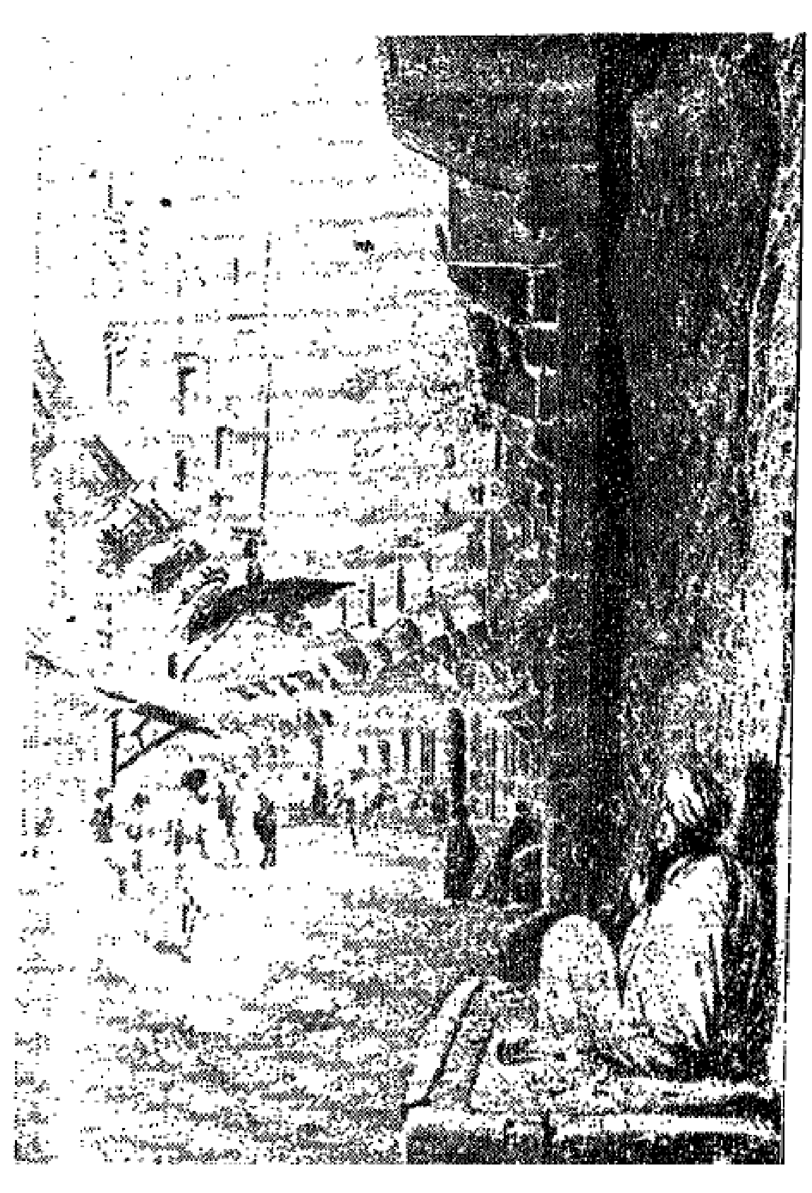
إلا أن أسرة الشرايبي على الرغم من محافظتها كانت تتساهل في بعض الأحيان، فكانوا إذا أقاموا حفلات الزواج أوجدوا فيها الكثير من أسباب اللهو والطرب، ولكنهم كانوا لحرصهم على بناتهم ينتظرون حتى يذهب جميع المدعوون إلى مسجد أزبك (١) المقابل لدارهم، فيرسلون العروس إلى منزل عريسها في سرعة فائقة تحت حراسة قوية من السيدات

المتقدمات في السن، فإذا أمنوا عليها هناك أكثروا من إطلاق الرصاص واللعب بالمشاعل ويمضون الوقت في فرح وسرور.

وكان من تقاليد الأسرة أن يعين أحد أفرادها قيمًا على كل ممتلكاتها ومديرًا لأعمالها، فكان له أن يجمع الإيرادات ويجبي محاصيلها، ويتسلم أرباح التجارة، ويدفع مصروفاتها بما في ذلك ثمن ملابس العائلة ومرتبات أفرادها الخاصة، وكان عليه أن يقدم في آخر العام قائمة الحساب ويدفع لكل فرد ما يستحقه. ولم يكن منتظرًا أن تدوم هذه الطريقة المثالية أبد الدهر، فلا عجب إذا سمعنا أخيرًا أن أحد أفراد الأسرة الصغار لم يوافق على الحساب المقدم إليه، وعندئذ لابد من تصفية الشركة. ولم تكن هذه الأسرة في طريقة حياتها أسرة مثالية لا نظير لها، والحق أنه مازالت هناك أسر من أكرم البيوت تعيش على النظام القديم وتحتفظ بالأخلاق الفاضلة.

وإن شغف الأسرة الشرايبي باقتناء الكتب، ليلقي علينا ضوءًا هامًا لمعرفة العلم والتعليم في ذلك العصر، ففي مستهل عصر المماليك أوجدت في القاهرة مكاتب عديدة مهمة كان بعضها من الغنائم التي أخذت من مساجد سوريا، وإذا قبلنا ما أورده الجبرتي بإسهاب عن تاريخ حياة هؤلاء السادة المشايخ والعلماء والمؤرخين ورجال الدين والشعراء، لجاز لنا أن نقول إنه كان في مصر نشاط علمي عظيم في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولو أنهم لم يكونوا من صفوة العلماء الأئمة.

وقد ذكر الجبرتي محادثة غريبة دارت في سنة ١٧٥٠ بين أحمد باشا الوالي وهو عالم رياضي، وبين الشيخ عبد الله الشبراوي، شيخ الجامع الأزهر، فقد لاحظ الباشا أنه طالما سمع ما لمصر من مركز رفيع في العلوم، ولكنه كان يود أن يرى نتيجة ذلك بنفسه، فقال له الشيخ: «حقيقة يا سيدى إن مصر كما سمعت منبع العلم والمعرفة»، فسأله الباشا: «ولكن أين هي؟ إنكم- كما أرى -لا تعرفون إلا الشريعة والعلوم الإلهية وغير ذلك من الدراسات القليلة الأهمية ولا تقدرون العلوم العملية»، فاعترف الشيخ بأن الأزهر لا يدرس من الرياضيات إلا الحساب لأنه ينفع في قانون المواريث، فعاد الباشا يقول: «وماذا عن علم الفلك؟ إنه يلزم لمواقيت الصلاة والصوم وغيرها من أمور الدين»، فصرح الشيخ بأن الإقبال على علم الفلك قليل لأنه يتطلب كفاية خاصة وأجهزة وشروطًا فسيولوجية واستعدادًا خلقيًا خاصًا للمضى في الأبحاث، وكان الشيخ يعرف رجلًا تجتمع فيه كل هذه الخصال، ولكنه ليس من رجال الأزهر، فلما حضر الرجل أمام الباشا أعجب باستعداده الرياضي فأهداه عباءة من الفرو الثمين، ولكن الرجل باعها بعد ذلك بثمانمائة دينار. وقد حفر الرجل مزاول «ساعات شمسية» على الرخام تبين أوقات الصلاة، ونقش عليها عبارات مناسبة، وقد وضعت اثنتان منها في الأزهر وفوق سقف مسجد الإمام الشافعي (١) وتدلنا هذه القصة – كما تدلنا قائمة بأسماء المؤلفات في هذا العصر وقد وصفها المؤرخ الشهير – على أن الدراسة في مصر كانت عملًا حماسيًا وليست دراسة عميقة وأن العلم كان قد اضمحل.



شارع بجوار باب الخرق

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت العلوم الدينية أقوى من ذي قبل، وتاريخ الباشوات حافل بكثير من الإشارات إلى نفوذ أساتذة الأزهر

وعلمائه، فقد كاد أحد الوعاظ الأتراك يحدث ثورة إذ قام ليخطب في جامع المؤيد ويسفه فكرة التوسل بالأولياء، وهي بدعة شائعة بين الناس لا تتصل بالدين بأي سبب، وقد حث الواعظ الناس على هدم القباب التي شُيدت فوق أضرحة الأولياء، والصالحين، ولقي علماء الدين السنيين مشقة في إسكات الرجل وتهدئة الشعب الغاضب عليه.

وكثيرًا ما صدرت الأوامر المشددة لتهذيب الشعب ودعوته إلى اتباع الفضائل الدينية، من ذلك أنه مُنع ذات مرة التدخين في الأسواق، وكان رجال الشرطة يجولون في الشوارع ثلاث مرات في كل يوم، فإذا ضُبط رجل وهو يدخن أمروه بأكل غيونه، من ذلك أيضًا ما رواه ناصر خسرو أن الرجل إذا زيف وثيقة حُمل على ظهر جمل وطيف به في الشوارع وصاح المنادي أمامه: «انظروا عاقبة المزيفين»، وهذه كانت عادة قديمة.

ولما كان أهل القاهرة ممن يؤمنون بالخرافات فقد حدث في سنة ١٧٣٥م أن انتشرت شائعة بأن يوم القيامة سوف يكون في الجمعة التالي، أي بعد يومين، فما كان من الناس إلا أن قاموا يودع بعضهم بعضًا وقد يمموا الحقول والطرقات ليتزودوا بنظرة أخيرة من الأرض التي أحبوها، بينما استولت على أهل الجيزة خرافة قديمة علقت في عقولهم منذ الأيام الأولى قبل ظهور الإسلام، فهرعوا إلى النيل يستحمون فيه ذكورًا وإناثا، واستمر القوم في حالة فزع وتوبة وندم وصلاة ودعاء إلى أن أهل عليهم يوم السبت وأدركوا أن لم يحدث لهم شيء.

وإن عهدًا يولي الدين كل هذه العناية، لا يمكن أن تُهمل فيه بيوت الله، ومن الخطأ أن يُنسب تهدم كثير من مساجد القاهرة إلى عهد الباشوات الأتراك، ولكن الخطر يرجع إلى المبالغة في إعادة بنائها إلى حد أن تغيب معالمها الأصلية، ثم إن القاهرة تحوي الكثير من المساجد التركية التي بُنيت على الطراز العثماني، وهي – وإن تواضعت إذا قورنت بمباني المماليك السابقين – تستحق الإعجاب في حد ذاتها، كما أنها أفخم من أي عمارة أنشئت في إنجلترا في القرن الماضي، ومن ينظر إلى مسجد أيا صوفيا «١٦٠٤» ومسجد محمد أبي الدهب «١٧٧٤» يحكم بفخامة عمارتها، ناهيك بمسجد البرديني، فهو درة صغيرة يتجلى فيها الفن التركي في النقش.

لقد هجر المعماري التركي طراز المدرسة الذي أدخله صلاح الدين، والذي كان قد تغير تصميمه الأصلي المتقاطع على شكل صليب حينما تحولت مساجد المدارس إلى جوامع يؤمها العامة لصلاة الجمعة في أيام السلاطين الشراكسة، ولما رجع المهندسون الأتراك إلى الطراز البسيط أدخلوا فيه تعديلات، فبنوا القباب البيزنطية بل السقوف المسطحة التي كانت تغطي المصلى.

والواقع أن المسجد العثماني في طراز بنائه لم يكن إلا كنيسة كبيرة، ومما يميز مساجد العصر العثماني وإصلاحاته، إدخال القرميد في البناء، فقد أعاد إبراهيم أغا بناء مدرسة أقنقر في سنة ١٦٥٢م، فجعل جداره الشرقي بأكمله مغطى بالقرميد الأزرق، وأغلبه على الطراز الدمشقي،

وقليل منه على الطراز الرودي أو الروديس المنسوب إلى جزيرة رودس، وربما كان طراز القسطنطينية.

ولم يكن إصلاح المباني من الأعمال الناجحة دائمًا، فكثيرًا ما كانت التعديلات التي أدخلها الأتراك تشوبها حجب روائع الفن القديمة، ولقد جدد أحمد باشا في سنة ١٦٩٠م مسجد المؤيد وكان مهدمًا، كما بنى أحد الباشوات مسجد الأربعين بجوار باب «قرة ميدان» في سنة ١٧٠٤م، كما جدد أحمد النائب مسجد الظافر الفاطمي المعروف باسم جامع الفكهاني في سنة ١٧٣٥م.
ولكن أمير المجددين للعمارات كان عبد الرحمن كتخدا أو الكخيا، وكان يتمع بنفوذ عظيم قبل أيام علي بك الذي عزل الباشا الوالي في ذلك الوقت وجلس هو على عرش مصر من سنة ١٧٦٨ إلى سنة ١٧٧٢م، وقد جدد علي بك بنفسه قبة ضريح الإمام الشافعي وبنى سوقًا في بولاق.

وكان لعبد الرحمن كتخدا هذا والد يدعى عثمان كتخدا الذي ولع بالهندسة وكان له ذوق في العمارة، وقد أنفق من أمواله التي ربحها بوسائل غير شرعية مسجده المعروف باسمه، كما بنى مدرسة وسبيلًا بالقرب من بحيرة الأزبكية، وفي يوم افتتاحه ملأ حوضه الأوسط الكبير كما ملأ كل ما وقعت عليه يده من الأباريق بالشراب وقدمه لمن أم المسجد من المصلين، وهو الذي بنى مدرسة العميان بالأزهر وعمل أعمالًا خيرية أخرى، وعلى الرغم من هذا كله فقد فاقه في العمارة ابنه عبد

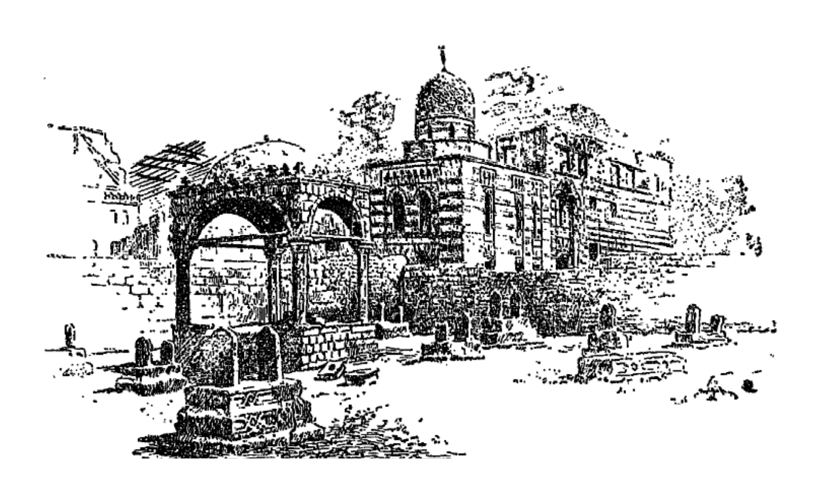
الرحمن، وأي سائح لا يعرف سبيله الصغير في آخر شارع بين القصرين وقراميده الدقيقة الصنع ومدرسته ذات الأقواس المكشوفة، وكلها تحاكي في أناقتها أناقة بانيها في شخصه وملبسه وجمال طلعته، ومع ذلك فقد كانت أقل أعماله أهمية، فقد بنى مسجدًا في خارج باب الفتوح، وآخر بجوار باب الغريب، أقام فيه حوضًا وسبيلًا، كما بنى خزانًا كبيرًا للماء، ومدرسة بجوار قرافة الأزبكية للسقائين، وأعاد بناء أضرحة السيدة زينب والسيدة سكينة، وأقام أضرحة غيرها بجوار باب القرافة في حى الموسكي وفي حي الحسينية وفي شارع عابدين وغيرها، ولعل أهم تجديد قام به مما نسب إليه إصلاح الأزهر الذي يدين لعبد الرحمن بما هو عليه الآن.

وقد أقام خمسين عمودًا من الرخام تحمي دعامة من الأحجار التي تغطيها الأخشاب الثمينة، وأقام محرابًا ومنبرًا، وبنى بابين مقوسين يعلو أحدهما مدرسة للأيتام ويعلو الآخر مئذنة، كما بنى في صحن المسجد ضريحًا وزوده بالمكتبات وقاعات المطالعة والمطابخ وحجرات لمبيت الطلاب الذين يفدون من صعيد مصر، كما زاد في عمارة مدارس الطيبرسية والأقبوغية الملحقة بالأزهر، وبنى الباب الضخم الذي يقع بينهما في مواجهة وكالة قايتباي، وأثث أروقة الطلبة الحجازيين والطلبة السودانيين، وأوقف أموالًا للإنفاق منها على هذه الأعمال الخيرية، هذا إلى جانب تقديم كميات وفيرة من الأرز والسمن والزيت والدقيق إلى مطابخ الأزهر لإعداد وجبات إفطار الطلبة في كل من أيام شهر رمضان.

ولقد جدد عبد الرحمن بعض أجزاء مسجد الإمام الشافعي ورصف ممشاه بالرخام المعرق، وأصلح ضريح السيدة نفيسة ومارستان قلاوون «لعلاج المرضى بالأمراض العقلية»، ولكنه نسي أن يعيد بناء قبته، بعد أن هدمها، واكتفى بتغطيتها بالأخشاب حيث بقيت إلى الآن، واهتم اهتمامًا بالغًا بالوصول إلى الأموال التي تركها مؤسس المستشفى وخلفاؤه، ونجح في اكتشاف حجة الوقف وإعادة أموال المستشفى.

ومهما قيل عن مصدر ثروته التي تناقل الناس عنها أقوالًا كثيرة مريبة، فإن أعماله الخيرية لا تقف عند حد، ففي الشتاء كان يوزع الأردية الصوفية على العميان الذين كانوا يكثرون في القاهرة وعلى المؤذنين لوقايتهم من البرد القارس وهم يؤذنون للصلاة في الليل، وكان الفقراء يتدافعون على بابه في مساء كل ليلة من ليالي رمضان ينتظرون أطباق الطعام التي لم يكن يضن بها عليهم، فإذا انتهوا من طعامهم انصرفوا في بشر وحبور، يحمل كل منهم رغيفين وقطعتين من النقود لشراء ما يلزم لطعام السحور.

ولعل عبد الرحمن كتخدا بنى أو جدد ثمانية عشر مسجدًا بخلاف الأضرحة والأسبلة والمدارس والجسور وغيرها من العمارات، وكان مولعًا بالعمارة، وكان – لحسن الحظ– ذا ذوق سليم. ولقد أحسن الشعب إذ أطلق عليه اسم المحسن العظيم.



فناء مقبرة المسلمين

وقد توفي عبد الرحمن في القاهرة في سنة ١٧٧٦م وهو في سن متقدمة بعد أن قضى اثنتى عشرة سنة أسيرًا في بلاد العرب، ذلك لأن أعماله الخيرية لم تكن لتبعد عنه شكوك علي بك، وقد سار في جنازته جموع العلماء والأساتذة والطلبة والفقراء الذين امتدت صلاته إليهم، إلى أن جاءوا به إلى الجامع الأزهر حيث واروه التراب في الضريح الذي بناه لنفسه بالقرب من الباب القبلي.

وكان آخر المساجد الكبيرة التي بنيت في عهد الباشوات، مسجد محمد بك الشهير بأبي الذهب، وقد سُمي كذلك لعادة كان يسير عليها، وهي أنه كان ينثر الذهب على جموع الشعب.

وكان أبو الدهب أحب مماليك علي بك الكبير وأقربهم إليه، ولقد جازاه بأن دبر له من المؤامرات ما كان سببًا في تحطيم شوكته ونفيه من البلاد، وفي النهاية قضى على حياته. ومع ذلك فقد كان جنديًا عظيمًا،

أبلى بلاءً حسنًا في الحروب التي قام بها في سوريا وبلاد العرب، وهو لا يزال في خدمة سيده علي بك الكبير.

وقد أكسبته دماثة أخلاقه وكرمه حب الناس له، فساد الأمن والسلام ربوع مصر في المدة التي تقلد فيها زمام الحكم، وكان الباب العالي حكيمًا، إذ ترك السلطة الحقيقية في يد هذا الأمير القوي المحبوب، واكتفي بتعيين الولاة الباشوات كما كان يفعل من قبل، وفي عام ١٧٧٤م أسس محمد بك مدرسته الشهيرة الجميلة في مواجهة الأزهر وبنى فيها قبره الذي دفن فيه.

وقد دفن مدرسته على مثال مسجد قديم في بولاق «مسجد السنانية» فكانت أعجوبة في فن البناء في بهائها، وكانت ذات سقوف مذهبة وأروقة رخامية وقبة رائعة ونوافذ مزينة بالبرونز البديع الصنع، وكان بهذه المدرسة أيضًا أروقة للحنفية وأخرى للمالكية وثالثة للشافعية، وكان يفد العلماء الأجلاء ليدرسوا فيها العلوم الشرعية، وكانوا – على خلاف المألوف في ذلك الوقت – يتقاضون المرتبات التي قد يصل بعضها إلى نحو مائة وخمسين بارة (١)، ولا تقل عن عشر بارات في اليوم، كما كانوا ينالون نحو خمسين مدًا (٢) من الحبوب كل سنة، وفي يوم افتتاح هذه المدرسة خلع محمد بك على العلماء كسى من الفراء الأبيض أو السمور بحسب مراتبهم، وهي خلع خاصة بالجامعات.

وكان مسجد محمد بك آخر المساجد الكبيرة في القاهرة إذا استثنينا مسجد محمد علي باشا الكبير في القلعة الذي يملأ العين بهجة

وبهاءً من أى جهة نظرت إليه، ولو أنه – من غير شك – بناء تظهر فيه الروح الأجنبية «مأخوذ من فن الآستانة أو استامبول» ولا يتفق مع الطراز القاهري، وربما كان هذا الحكم فيه شيء من التعنت، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نوفق بين العمارة العثمانية في وسط المدينة المملوكية القديمة.

لقد قلنا ما فيه الكفاية للتدليل على أن مساجد القاهرة لم يلحقها هدم أو تخريب في أيام حكم البكوات والباشوات، بل على العكس من ذلك رأينا أن العناية بها كانت بالغة، وإنما بدأ عهد التهدم بمجيء محمد علي باشا، وهو يشبه علي بك، إلا أنه كان أكثر منه توفيقًا، إذ جعل نفسه سيد البلاد، وبدأ عهدًا جديدًا، إذا قورن بأشد عهود المماليك بطشًا من حيث حزمه وقوته، لكان لينًا متراخيًا، لقد وضع محمد علي يده على أموال الأوقاف «١٨٠٨–١٨١٠»، وهي أموال رصدها الكثيرون من محبي الخير منذ قرون عديدة للإنفاق من ريعها على المساجد والكليات في مصر، ولقد حرم العلماء من حق الإشراف على الأماكن المقدسة التي كانت في عهدهم، وتركهم يبكون ويسخطون، ومنذ صادر هذه الأوقاف وضاعت ملفات الوقفيات واكتنف الغموض حسابات هذه الثروة الطائلة، بدأت آثار القاهرة تسير في طريق التهدم والبلى.

كما أن حركة مسايرة أوروبا في القرن التاسع عشر التي لم يكن منها بد والتي كان الاتجاه العام يسير نحوها، من شأنها أن تعمل على هدم كثير من المساجد وغيرها من الأبنية التاريخية التي كانت تعوق سير

العربات أو تقف حجر عثرة في تنظيم الشوارع والميادين الجديدة التي كان الولاة يختطونها دون أي اعتبار لما يقع في طريقها من آثار تاريخية لها قيمتها، وكان شارع محمد علي، أسطع مثال للشوارع التي كانت تمتد في هذه الطرق غير عابئة بما قد تهدمه من آثار تاريخية، وقد حدث مثل هذا في أغلب أحياء القاهرة تقريبًا.

ولعل الإدارة التي تقوم بتخطيط هذه الشوارع كانت تقوم بما تقوم به مجالس المديريات في أضيق حدودها، وربما يرجع الفضل في عدم استمرار ذلك الهدم إلى حزم لجنة حفظ الآثار العربية، وهي هيئة رسمية أبلت بلاءً حسنًا، ونحن ندين لها بفضل المحافظة على آثار عربية من جميع العصور ومن جميع الأنواع، إذ لولا تدخلها في الوقت المناسب لضاعت معظم هذه الآثار، بل إنه يستحيل علينا أن نسجل تقديرًا لأعمال هذه اللجنة التي تتميز بالدقة والأناقة، فإن التقارير السبعة عشر التي تحفل بالكثير من الصور والإيضاحات والرسوم، تكوِّن مكتبة غنية بالمعلومات، وتشهد في كل صفحة من صفحاتها بالعناية الكبيرة والمسئولية الجسيمة التي كان يحس بها أعضاؤها.

ويحسن بي في هذا المقام أن أقتبس تقريرًا عن الطرق التي سلكتها اللجنة والنتائج التي تمخضت عنها أبحاثها، وهذا التقرير قد طلبه مني اللورد كرومر في سنة ١٨٩٥، ثم نشره في تقريره السنوي عن نهضة مصر، وتقدم به إلى البرلمان في سنة ١٨٩٦.

الإثنيوم بلندن
١٨٩٥/١٢/١٢

"سيدي اللورد

استجابة لدعوة سعادتكم لي، أتشرف بأن أتقدم ببعض الملاحظات على أعمال لجنة حفظ الآثار العربية التي أتاح لي الحظ فرصة فحص أعمالها فحصًا دقيقًا في صيف هذا العام.

وقد تشكلت هذه اللجنة بمقتضى مرسوم أصدره الخديو الراحل في الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٨١، وكانت مهمتها تقضي بأن تتقدم بما يأتي:

أولًا: أن تقوم باستعراض الآثار العربية في مصر وتسهيل ما يكون منها ذا قيمة تاريخية أو فنية.

ثانيًا: أن تشرف على حفظ هذه الآثار وتبلغ وزير الأوقاف ما تراه ضروريًا لإصلاحها والمحافظة عليها.

ثالثًا: أن تعد تصميمات لهذه الإصلاحات وتشرف بدقة على تنفيذها.

رابعًا: أن تتأكد من أن تصميمات الأعمال التي تم إنجازها محفوظة في وزارة الأوقاف، وأن تشير إلى القطع المستقلة أو التحف التي يحسن أن تنقل إلى متحف الفن العربي.

ولقد حالت الاضطرابات السياسية دون تنفيذ الكثير من هذا العمل قبل سنة ١٨٨٢ ولكني عندما قمت بزيارتي هذا العام لفحص الآثار العربية

في مصر من يناير سنة ١٨٨٣ إلى مارس من نفس السنة، وجدت اللجنة قائمة بعملها، فأتيحت لي الفرصة لمشاهدة باكورة أعمالها، وبذلك أستطيع مقارنة الحالة التي كانت عليها هذه الآثار عندما بدأت تتسلمها يد اللجنة بطريق جدية وبين ما هي عليه الآن بعد أن قامت اللجنة بعملها في الإصلاح والترميم مدة اثنتي عشرة سنة.

وأستطيع أن أقرر في ثقة تامة بأن حالة المساجد إذا قورنت بما كانت عليه في سنتي ١٨٨٣ و١٨٨٤، أصبحت بحيث لا يُخشى عليها من الانهيار والتهدم، وقد أمكن تقوية الآثار التي كان يُظَن أن لا أمل في حفظها، كما رُممت جميع المباني التي كانت آيلة للسقوط، وقد أشرفت اللجنة على حماية هذه الآثار مما كان يُخشى منه من التخريب أو السرقة.

ويرجع الفضل في الوصول إلى هذه النتائج الباهرة إلى الدراية العلمية والجهود الموفقة، التي بذلها المرحوم روجرز بك، وإلى فرانز باشا، وسعادة يعقوب أرتين باشا – أولئك الذين ستظل أسماؤهم مقرونة دائما بالنهضة الفكرية في مصر، ولقد كان لبعض زملائهم الفرنسيين خدمات جليلة كانت تظهر من وقت لآخر، كما كان لاشتراك كثير من وكلاء وزارة الأشغال المتعاقبين – خصوصًا مستر «السير» وليم جارستن – في أعمال اللجنة أهمية وقوة، وبطبيعة الحال، كان أهم مركز في هذه اللجنة هو مركز المهندس المعماري الذي يشرف بحكم وظيفته على الآثار ويقوم بفحصها بدقة ويوجه أعمال الإصلاح، سواء أكانت ضرورية أو مستحسنة فقط، ويباشر هذه الإصلاحات بنفسه.

ومنذ أنشئت إدارة خاصة باللجنة وانفصلت عن القلم الفني بوزارة الأوقاف من أوائل سنة ١٨٩٠ قام جناب مستر ماكس هرتز – الزميل في الجمعية الأثرية – بهذه الوظيفة، وأصبح المهندس المسئول في اللجنة، ومن العدل أن نقر له بأن درايته وخبرته الواسعتين في الفن والآثار كان لهما أثر فعال في الحالة الطيبة التي أصبحت عليها هذه الآثار في الوقت الحاضر، وإلى جانب خبرة المسيو هرتز العملية كمهندس، فإن له إلمامًا بالفن العربي وشغفًا كبيرًا بعمله، فإن الدليل الذي وضعه في هذه السنة باللغة الفرنسية عن دار الآثار العربية، والذي سيعاد نشره باللغة الإنجليزية قريبًا «١٨٩٦» يشف عن دراسة واسعة لتطور الفن العربي والكتب العربية والأوروبية التي لها علاقة بهذا الفن، كما أن الإصلاحات الوافية التي أجراها في بعض المساجد الصغيرة لأصدق دليل على علو كعبه في دراسة الفن وزخرفته، وعلى مهارته في عمله، كما يدل على حرصه وأمانته في إرجاع كل شيء إلى ما كان عليه أصلًا، وعلى الرغم من أن لي رأيًا خاصًا في هذا التجديد، لا أستطيع إنكار هذه الحقيقة وهي أن تعيين هرتز بك في اللجنة كان عملًا موفقًا.

حفظ الآثار– يجب أن لا يغرب عن البال أن واجب اللجنة الأول هو حفظ الآثار وليس تجديدها، فقد قامت اللجنة الفرعية الأولى بكتابة قائمة كاملة حصرت فيها جميع الآثار التي يجب المحافظة عليها، سواء أكان ذلك لقيمتها التاريخية أم لقيمتها الفنية.

وقد ألقي على عاتق اللجنة مهمة الإشراف على حفظ كل ما جاء ذكره في هذه القائمة، وقد لاحظت بنفسي أن أعضاء هذه اللجنة كانوا

يقدرون المسئولية الملقاة على عاتقهم، وأنهم يقومون بعملهم خير قيام في حدود مواردهم القليلة، ولا أستطيع أن أعدد أو أن أورد كشفًا بالإصلاحات المطلوبة، من بناء جدار بأكمله في أحد المساجد، إلى مجرد إزالة القاذورات التي علقت بالنقوش، لأن ذلك يطول شرحه، ومن المستطاع الرجوع إلى تقارير اللجنة السنوية عن هذه الإصلاحات، وهذه التقارير لا تترك زيادة لمستزيد، لدقتها وتمام معاونتها ولولا أنها لا تنشر بالسرعة التي يجب أن تنشر بها.

غير أنه مازال هناك مجال كبير للعمل، فإن بعض الإصلاحات التي أنجزت لا تعدو أن تكون وقتية تنتظر الوقت الذي تسمح فيه الظروف المالية ليكون الإصلاح أبقى على الدهر، إذ لا يخفى أن حفظ هذه الآثار في صورة دقيقة يحتاج أول ما يحتاج إلى مال كثير، أما اللجنة فإنها تدرك ما يجب عليها لحفظ هذه الآثار، إلا أن هذه المعرفة لا تجديها فتيلًا، إذا لم يتوافر المال اللازم والموظفون الأكفاء.

هناك في الوقت نفسه، نقطتان أو ثلاث أرى ضرورة لفت نظر اللجنة إليها بوجه خاص، حيث يمكن القيام بها حتى ولو بقيت الحالة المالية كما هي الآن غير كافية للقيام بالأعباء الملقاة على عاتق هذه اللجنة:

١- فإذا ما كان هذا الإصلاح الشامل يحتاج إلى أموال لا تسمح بها الميزانية الحالية، فإن هناك طريقة للمحافظة على الآثار تتماشى مع الذوق السليم ومع المنطق أيضًا، ويجب الأخذ بها إذا خُشي على الأثر من زيادة في التهدم أو الانهيار التام.

وإن مسجد السلطان حسن خير مثل لهذه الحالة، فإن المحافظة عليه محافظة

تامة تحتاج إلى آلاف من الجنيهات، ولا تستطيع اللجنة الآن أن تقوم بالأعمال التي رسمتها لذلك، ولكنها تستطيع أن تدون سجلًا صادقًا عن حالة المسجد الحالية، وأن ترسم تصميمًا هندسيًا له بأبعاده، وأن تصور جميع جزئياته وزخارفه ونقوشه، وأن تصنع نماذج من الفسيفساء والزخارف الملونة بالألوان الأصلية، وبالاختصار تعمل ما من شأنه أن يمكن من بناء المسجد في المستقبل بأبعاده الأصلية وزخرفته التي كان عليها (١).

إن مثل هذا العمل يعتبر سجلًا لا يقدر بمال لدى الباحثين في تاريخ الفن العربي، بينما يجعل أمر الحفظ ممكنًا، حتى لو أعاقت قلة الأموال اللجنة عن القيام بواجبها قبل أن تعمل يد البلى في زيادة التخريب، ولا يغرب عن البال أن تحضير مثل هذا السجل يستدعى زيادة الموظفين في اللجنة، ولكن عرض هذا السجل للبيع بعد أن يضاف إليه المقدمة التاريخية والتفسيرات الضرورية اللازمة، سيأتي لا شك بمال يسد الجزء الأكبر مما صرف على هذا العمل، على أنه لا يجوز لنا أن نتخذ إعداد هذا السجل بدلًا من عملية الحفظ الحقيقية ولا أن نعتبرها حجة لتأخير العمل الحقيقي متى أمكن ذلك، ولكننا نقوم بذلك حرصًا على ضياع أثر عظيم نتيجة أحداث فجائية «كما قد يحدث لإحدى مآذن مسجد السلطان حسن».

٢- وهناك احتياط آخر لأكثر بساطة من سابقه، ولكنه خاص بالمساجد الصغيرة الحجم الكثيرة العدد ذات السقوف، إذ تحوي هذه المساجد عادة نوافذ تغطيها النقوش أو الشباك المصبعة، وفي أكثر الحالات توجد فتحة صغيرة في الوسط تطل على الصحن، فإذا غُطيت هذه الفتحة

بالزجاج حُفظت المسجد من فعل الرياح وإذا غُطيت النوافذ الأخرى بشباك من السلك منعت عبث الطيور بداخل المسجد.

ويجب أن تكون جميع المساجد المسقوفة عرضة لزيارات تفتيشية متكررة غايتها التحقق من سد جميع النوافذ والفتحات التي يتسرب منها المطر أو الطير للعبث بالداخل.

٣- أما النقطة الثالثة فهي كثيرة النفقات، ولكنها ضرورية جدًا، وهي نزع ملكية الحوانيت والمظلات والأكشاك التي تلتصق بواجهات بعض المساجد كما تلتصق الطفيليات، ذلك لأن أصحاب هذه الحوانيت والأكشاك يستعملون المساجد القائمة خلف حوانيتهم لإلقاء فضلاتهم وقاذوراتهم فيها من النوافذ، فهم يسيئون إلى هذه المساجد من الداخل بما يرمونه من الفضلات، ومن الخارج بتضييق الشارع «انظر شارع النحاسين»، وتعويق حركة المرور، ويحجب واجهات المساجد حتى أنها لا تُرى على صورتها الحقيقية ولا تظهر للعين روعتها.

ويجمل أن تقسم اللجنة مدينة القاهرة إلى أحياء منتظمة حتى لا يتعرض أحد هذه المساجد الأثرية إلى النسيان أو الإهمال، وأن يكتب كشف بالآثار الموجودة في كل حي على حدة، وأن تقوم اللجان التفتيشية بدوراتها المنتظمة، وأن يزورها المهندس المعماري مرة في كل سنة على الأقل. ولما كان عدد الآثار المدون في الكشف كبيرًا جدًا قد لا تسمح بزيارته أكثر من مرة أو مرتين في كل موسم، وجب أن تُدوَن في سجل خاص الحالة التي وجد المفتش عليها كل أثر. وهنا عرض لنا مسألة الآثار الخاصة، سواء كانت مساجد أو منازل أم أسبلة أم وكالات أم غير ذلك،

ويظهر أن الحكومة لا تملك من أمرها شيئًا، فهي لا تستطيع أن تأمر أصحابها بأن يحافظوا على هذه العمارات التاريخية التي يسكنونها أو أن يؤجروها أو أن ترغمهم على بيعها.

والواقع أن منازل السكنى القليلة التي بقيت في القاهرة من العصر الوسيط، هي أهم من الناحية الفنية من المساجد التي يصرف عليها من الأوقاف الأهلية الفردية، لأنها هي الأمثلة الوحيدة الباقية التي تشاهد على ما كانت عليه الحياة العائلية في الفن العربي.

لهذا كان من المرغوب فيه كثيرًا أن يكون للجنة إشراف فعلي على حفظها، فإذا أمكن دفع تعويض لأصحابها لما خسروا شيئًا إذا ما نزلوا عنها أو عارضوا في إشراف اللجنة عليها.

الإصلاح أو التجديد – لم تقصر اللجنة عملها على حفظ الآثار، بل أخذت على عاتقها إصلاح بعض الآثار إصلاحًا شاملًا بل تجديدها، غير أن الدوائر الفنية والدوائر المهتمة بالعمارة الأثرية تتوجس خيفة – ولها بعض الحق– من هذه النزعة نزعة الإصلاح والتجديد، وفي رأيي أن فحص أعمال الإصلاح التي قام بها هرتز بك ستذهب بالمخاوف التي تشعر بها هذه الدوائر، ولو أنها مخاوف في محلها على وجه العموم، فقد شرح لي هذا المهندس رأيه، ويخيل إليَّ أن هذا الرأي معقول وهو يتلخص فيما يلي:

إنه لا يجوز إعادة بناء أى أثر من الآثار فريدًا في نوعه كمسجد ابن طولون، كما لا يجوز إعادة بناء أي أثر من آثار عصر من العصور لم يبق من عمائره إلا شواهد قليلة كمساجد الأسرة الفاطمية، بل إنه يكتفي في

مثل هذه الآثار بمجرد الحفظ حتى لا تتهدم جدارها أو تعفى آثارها كلية، ولكن إذا وجدت مساجد متعددة من عصر واحد ومتشابهة في الطراز – وكثيرًا ما تكون متشابهة في جزئيات الزخرف مثل عصر قايتباي– فلا مانع من اختيار بعضها لعمل الإصلاحات الشاملة فيها وإعادتها على قدر الإمكان إلى أقرب ما كانت عليه يوم أن بنيت أولًا وأعدت للعبادة أول الأمر.

وقد ذكر هرتز بك بضع أمثلة لمساجد تمثل عصرًا معينًا، ولكن إصلاحها لم يكن النجاح فيه مرضيًا خصوصًا ما كان فيه خاصًا بالألوان مع ما مر به من التجار واكتسب من الخبرة، غير أنني أعتقد أن المتعنتين ضد الإصلاح سوف لا يجدون مجالًا كبيرًا لنقد الإصلاح الدقيق الذي أدخل على مسجد القاضي أبي بكر بن مظهر في حي برجوان، والذي أعاد المسجد إلى ما كان عليه من الرواء في أيام بنائه.

وإذا اعترض الناقدون على ما حدث من العبث في إصلاح مسجد المؤيد– وقد تم ذلك قبل وجود هذه الهيئة – فإن نقوش الإفريز وطلاء السقف قد تم بدقة حتى أعادها دون أدنى شك إلى حالتها الأولى، وإني أشهد بعدما عاينته بنفسي أن مهندس اللجنة اتخذ كل ما يمكن من الحيطة ليتأكد من أنه كشف عن حقيقة الرسم الأصلي وألوان الطلاء التي استعملها المهندسون الأصليون بعد أن غطتها الأوساخ وأنواع الدهان قرونًا عدة، كما أشهد للمساعدين والعمال الذين قاموا بأعمال المعادن والخشب بمهارة وحذق، وأنهم أحسنوا تقليد الرسوم الأصلية حتى أنه ليستحيل التمييز بين الأصلي والمستحدث «ولو أنهم لم يبلغوا بعد هذه

الدرجة من الكمال في صنع الزجاج». غير أنى لا أكتم ما أشعر به من أن هذا الحذق – لو لم تصحبه الدقة والأمانة في كل جزئياته «مثال ذلك المسامير والأزرار البارزة المصنوعة من البرنز والصفائح النحاسية على الأبواب والخشب المطعم بالسن على الأبواب والمنابر» لتعرض لاحتمال إدخال التزييف فيه.

في أعمال الإصلاح الحديثة للنقوش والكتابة العربية دوّن تاريخ الإصلاح عليها، ولكن بعض الزخارف لا يظهر فيها بين الأصل وبين الإصلاح، وخشية أن تضيع الحقيقة فلا يبقى من يذكرها، يجب أن يبادر القائمون بالإصلاح فيذكروا ذلك قبل أن ينسوه هم أنفسهم، ويجب أن تحمل كل صفيحة من المعدن أو لوح من الخشب أو قطعة من الفسيفساء علامة مميزة كتاريخ الإصلاح، كما يجب أن تحتفظ اللجنة في محفوظاها برسوم للآثار تميز فيه الإصلاحات بألوان مختلفة لا بألوان النقوش الأصلية، فإذا اتبعت هذه القاعدة بكل دقة فإني لا أرى بأسًا – بل بالعكس أرى فائدة كبيرة – من تجديد عدد محدود من المساجد، وإذا سار العمل كما سار في تجديد مسجد القاضي أبى بكر بن مظهر، فلا خوف من التزييف، بل إنه تجديد على أحسن ما يكون بالتجديد ويظهر أن جمال هذه المساجد المستجدة تستهوي أفئدة المصلين، ولاشك أن مسجد المؤيد قد ساعد على إقبال المصلين عليه بعد أن جُدد إيوانه وعاد إليه شيء من جمال زخرفه ونقوشه المذهبة، وهذا أمر لابد أن يكون قد استرعى نظر وزارة الأوقاف وأنها قد أصبحت تحسب له حساب، ولا يغرب عن البال أنه قد يُخشى من إهمال مجرد المحافظة على الآثار انتظارًا لتجديدها، لأن التجديد

يستهوي لب المهندس والجمهور أكثر مما يستهويه مجرد المحافظة على أثر، ذهب جماله.

وتقوم اللجنة في الوقت الحاضر بتجديد خمسة مساجد (١) هي: مسجد زين العابدين يحيى بالقرب من الموسكي، وجامع البنات، وجامع استبغا بدرب سعادة وجامع قجمش الإسحقى، وبخلاف جامعي المؤيد وأبى بكر بن مظهر اللذين يعدان في حكم المنتهين، ومن هذه المساجد مسجدان ممتلكان للأهالي، ويتحمل أصحابهما نفقات الإصلاح من أوقافهم الخاصة.

ومع ذلك فإني أرى أن ما تم من التجديد كان في الوقت الحاضر، وأن واجب اللجنة أن تتفرغ في السنتين أو الثلاث المقبلة إلى فحص شامل للآثار المدونة في كشوفها، وهي ترمي إلى المحافظة عليها محافظة تامة، وعلى كل حال فإن اختيار مساجد عدة لتجديدها تجديدًا شاملًا مسألة لها أهمية لا تُنكر، ولكن يجب أن لا ننسى أن عملية التجديد تحتاج إلى مال كثير، وليس من الحكمة الاندفاع، مادامت ميزانية اللجنة لا تكاد تكفي أعمال المحافظة فقط.

هذه هي يا سيدى اللورد، نتائج الملاحظات التي عنت لى بعد أن فحصت نتائج أعمال اللجنة، وأرى أنني قد قصرت ملاحظاتي على القاهرة لأن الوقت لم يتسع للوقوف على الأعمال التي تمت في جهات أخرى من مصر، وقد بينت أن أعمال اللجنة في القاهرة كانت أعمالًا باهرة وأنها أتمت جزءًا كبيرًا من مهمتها، على الرغم من قلة مواردها المادية وما قام في وجهها من اعتراض بل مقاومة في بعض الأحيان، وإن الملاحظات

القليلة التي أبديتها هنا لا تقلل من عظمة أعمال الحفظ والتجديد التي قامت بها اللجنة سواء في كميتها أم في دقة أعمالها وخطورتها.

وفي رأيي أن وزارتي الأوقاف والأشغال يجب أن تتعاونا على زيادة ميزانية اللجنة إلى عشرة آلاف من الجنيهات ثم يتركاها حرة في تصريف شئونها، وقد أظهرت كفاية في هذا السبيل، على أنه إذا أمكن إنشاء وزارة للفنون الجميلة تشمل إدارة الآثار ولجنة حفظ الآثار ومتحف الجيزة ودار الآثار العربية، لكان ذلك إجراءً سليمًا، غير أن التفكير في مثل هذه الخطوة الجريئة الشاملة لا يدخل في الحدود التي رسمتموهما سعادتكم لى لأضمنها تقريري».

الآن، وقد وصلت إلى آخر ملاحظاتي لا أرى ما أضيفه إليها، فقد برهنت المشاهدات التالية على صحة القول بأن اللجنة قد قامت – ومازالت تقوم – بأعمال نبيلة لحفظ آثار القاهرة، ولقد ضمن اللورد كرومر تقريره الشامل جميع الفقرات التي أهملت ذكرها في مقتطفاتي السابقة التي تمس حالة اللجنة المالية، كما تضمن نتائج أبحاثي وملاحظاتي، ووافق على اقتراحاتي بالمحافظة على الآثار من التلف كما أضاف إليها رأيه في أن يشمل نشاط اللجنة فحص حالة الكنائس القبطية، فقد كتب اللورد كرومر: «كنت أعلم منذ عهد بعيد أن الإعانة التي تمنحها مصلحة الأوقاف غير كافية، وأنه إذا أريد لهذه اللجنة أن تزيد في نشاطها، وجب أن تمدها بالمزيد من الإعانات، ولقد كان الدافع الرئيسي الذي دعاني لاستشارة المستر ستانلي لينيول هو أن استخلص منه أحسن الوجوه في صرف الإعانات الجديدة عندما يمكن الحصول عليها.

وعندما تسلمت تقرير المستر ستانلي لينبول اتصلت بالمسئولين في المالية والأشغال العمومية، وكان من أثر هذا الاتصال أن تقدمنا باقتراح إلى مندوبي صندوق الدين ليمنحونا مبلغ عشرين ألفًا من الجنيهات من المال الاحتياطي الذي تصرفه لجنة حفظ الآثار في سنتي ١٨٩٦ و١٨٩٧، ويسرني أن أذكر أن اقتراحنا قد قوبل قبولًا حسنًا، وأن المال المطلوب قد تقرر صرفه لنا، وقد صرف فعلا، ولم يبق إلا أن نقدم الحساب على أنه قد صرف فيما خصص له.

وكان الزيادة السمحة التي أضيفت إلى ميزانية اللجنة نتيجة استفادت منها الآثار فائدة يضيق المقام من تعدادها، إلا أنه يجب أن نذكر بصفة خاصة ذلك الإصلاح الذي أدخل على مسجد المارداني، والذي تكلف أربعة آلاف جنيه، ولا غرور فإن هذا المسجد لم يكن من إصلاحه بد، وقد أثمرت الحكومة التي أنفقت من أجله، أحسن الثمار، ولاشك في أن كل من يزور القاهرة يتملكه العجب لما طرأ على المساجد من تغيير، منذ بدأت تعني هذه اللجنة بأمرها، فكم من مساجد كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح أطلالًا دراسة قد أصبحت اليوم تزهو بعظمتها في جو يسوده الأمن والطمأنينة، وكم من مساجد أخرى أمكن على الأقل إطالة زمن بقائها.

والحق أنه ما من تحفة من تحف الفن العربي أو أثر من آثار أسوار المدينة، وما من قطعة خشبية منقوشة أو منحوتة مهما صغر حجمها، إلا كانت موضع رعاية اللجنة وعنايتها، وفي الحالات التي لم يكن من المستطاع فيها إصلاح الآثار البالية، كانت تجمع برمتها وتنقل إلى دار الآثار العربية،

ذلك المتحف الذي يشهد بدوره على العمل الذي تم في خلال العشرين سنة الماضية وقد أمكن في تلك السنوات تضميد الجروح التي أحدثها البلى والإهمال والجهل، وهذه أسهم نافذة أصابت قلب الآثار في قاهرة العصور الوسطى.

جدول «١»
يبين حكام القاهرة وآثارها

«١» الفترة العربية

السنة الهجرية	الآثار	الحاكم	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
٢١ ٢١ ٩٨ ١٣٣ ٢٤٧	جامع عمرو[*] مدينة الخيمة «الفسطاط» مقياس النيل الأول في الروضة العسكر مقياس النيل الثاني في الروضة	٩٨ حاكمًا في ظل خلفاء دمشق وبغداد	٢٠- ٢٥٤	٦٤٠- ٦٨٦

"٢" فترة الأتراك

١- البيت الطولوني:

السنة الهجرية	الآثار	الحاكم	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
		أحمد بن طولون خمارويه	٢٥٤	٨٦٨
٢٥٦	القطائع	بن أحمد بن طولون جيش	٢٧٠	٨٨٣
٢٥٦	قصور الطلائع	بن خمارويه هارون بن	٢٨٢	٨٩٥
٢٥٦	المارستان	خمارويه شيدان بن أحمد	٢٨٣	٨٩٦

[*] تشير هذه العلامة إلى أن البناء- أو جانب منه -لا يزال موجودًا حتى الآن.

٩٠٤	٢٩٢	بن طولون	جامع ابن طولون† قصور القطائع	٢٦٣-٢٦٥ ٢٧٠

ب- حكام الخلفاء:

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحاكم	الآثار	السنة الهجرية
٩٠٥- ٩٣٤	٢٩٢٩- ٣٢٣	ثلاثة عشر حاكمًا		

جـ - بيت الإخشيد:

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحاكم	الآثار	السنة الهجرية
٩٣٤	٣٢٣	محمد الإخشيد	قصر في حدقة كافور	٣٤٦
٩٤٦	٣٣٤	أبو القاسم أتورجور بن الإخشيد	في الروضة	٣٥٠
٩٦٠	٣٤٩	أبو الحسن على بن الإخشيد	مارستان في الفسطاط	
٩٦٦	٣٥٥	أبو الملك كافور أبو الفوارس		
٩٦٨	٣٥٨	أحمد بن على	جامع الجيزة	

† تشير هذه العلامة إلى أن الأمر قد أعيد بناؤه في نفس الموقع.
«يوجد جدول ملحق بآخر الكتاب لتحويل السنين الهجرية إلى سنين ميلادية»

"٣" فترة الفاطميين

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحاكم	الآثار	السنة الهجرية
٩٦٩	٣٥٨	المعز	تأسيس القاهرة	٣٥٨ ٣٥٨
			القصر الشرقي العظيم إلخ	٣٥٩
			جامع الأزهر	
٩٧٥	٣٦٥	العزيز	القصر الغربي.. إلخ	
٩٩٦	٣٨٦	الحاكم	جامع الحاكم	٣٨٠-٤٠٣
			جامع رشيدة	٣٩٣- ٣٩٥
١٠٢١	٤١١	الظاهر	جامع المقس	
١٠٣٦	٤٢٧	المستنصر	جامع الجيوشي	٤٧٨
			باب النصر	
			باب الفتوح	
			السور الثاني	
			باب زويلة	٤٨٠-٤٨٠
١٠٦٩	٤٨٧			٤٨٥
١١٠١	٤٩٥	المستعلى	جامع مقياس النيل	
				٥١٩
		الآمر	جامع الأقمر	

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحاكم	الآثار	السنة الهجرية
١١٣١ ١١٤٩ ١١٥٤ ١١٦٠	٥٢٤ ٥٤٤ ٥٤٦ ٥٥٥	الحافظ الظافر الفائز العاضد	بضعة مساجد يانس، كافوري، باب الخوخة» محراب الأزهر والسيدة رقية جامع الأقمر جامع الصالح طلائع.	٥٤٣ ٥٥٥

«٤» بيت صلاح الدين

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحاكم	الآثار	السنة الهجرية
١١٦٩	٥٦٥	الناصر صلاح الدين بن أيوب	جامع نجم الدين أيوب	٥٦٦
			مدرسة الناصرية	٥٦٦
			مدرسة القمحية	٥٦٦
			مدرسة القطبية	٥٧٠
				٥٧٠
			مدرسة ابن الأرسوقى	٥٧٢
			مدرسة السيوفية	٥٧٢
			القلعة	٥٧٥
				٥٨٠
			البدء في السور الثالث	٥٩١
			المارستان	٥٩٢

			مدرسة الفاضلية	
١١٩٣	٥٨٩	العزيز بن صلاح الدين	جامع ابن البنا	٦١٢
١١٩٨			مدرسة اشكشيه	٦١٧
١٢٠٠				٦٣٢
	٥٩٥	المنصور بن العزيز	مدرسة غزنوية	
١٢٣٨	٥٩٦			٦٢٢
١٢٤٠		العادل سيف الدين	مدرسة العادلية	٦٦٣
١٢٤٩			مدرسة الشريفية	٦٢٦
	٦١٥			٦٢٦
		الكامل بن العادل	تجديد مسجد الشافعى	
				٦٣٩
			مدرسة الكاملية	
			مدرسة الفخرية	
				٦٤٧
			زاوية قصرى	
			مسجد ابن الشيخى	
			مدرسة الصيرمية	
	٦٣٥			
		العادل «الثاني» بن الكامل	مدرسة الفايزية	
			مدرسة الصالحية	
	٦٣٧			
		الصالح أيوب بن الكامل	جامع الروضة.. رلخ	
			زاوية خدام	
	٦٤٦			
		المعظم توران شاه بن الصالح		

"٥" المماليك الأتراك

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحاكم	الآثار	السنة الهجرية
١٢٥٠	٦٤٨	الملكة شجرة الدر	ضريح الصالح	٦٤٨
١٣٥٠	٦٤٨	المعز أيبك	مدرسة القطبية	٦٥٠
١٢٥٧	٦٥٥			٦٥٤
١٢٥٩	٦٥٧	المنصور على بن أيبك	مدرسة الصاحبية	
١٢٩٠	٦٥٨	المظفر قطز		
				٦٦٠
		الظاهر بيبرس	المدرسة الظاهرية	٦٦٣
			مشهد الحسيني	٦٦٣
				٦٦٣
			المدرسة الماجدية	٦٦٥
			جامع الأفرم	
			جامع الظاهر	٦٧٦
			مدرسة المهذبية	
١٢٧٧	٦٧٦		مدرسة فاركانية	
١٢٧٩	٦٧٨			
١٢٧٩	٦٧٦	السعيد بركة خان بن بيبرس		٦٨٤
		العادل سلامش بن بيبرس		٦٨٤
		المنصور قلاوون		٦٨٤
			المدرسة المنصورية	٦٨٧
			مارستان قلاوون	٦٨٧

			زاوية الجميزي	٦٨٨
١٢٩٠	٦٨٩		زاوية الهلاوى	
١٢٩٣	٦٩٣		خانقاه البندقدارية	
١٢٩٤	٦٩٤			
١٢٩٨	٦٩٦	الأشرف خليل بن قلاوون	باب من عكة	
				٦٩٦
		الناصر محمد بن قلاوون		٦٩٨
		العادل كتبغا		٦٩٨
				٧٠٣-٦٩٩
١٢٠٨	٦٩٨	المنصور لاجين	تجديد جامع ابن طولون	٧٠٠
			مدرسة طنجية	٧٠٣
			مدرسة منجوتمرية	
		الناصر «السلطنة الثانية»	مدرسة الناصرية	٧٠٤-٧٠٣
			مدرسة قراسنقرية	٧٠٧
				٧٠٩-٧٠٦
			مدرسة الجمالية	٧٠٩
			تجيد المسجد الأزهر	٧٠٩
				٧١٣
١٣٠٩	٧٠٨		تجديد مسجد الحاكم	٧١٣
١٣٤١	٧٠٩			٧١٣
			تجديد مسجد طلائع	٧١٥
			مسجد طيبرس	٧١٧
		المظفر بيبرس «جاشنكير»	خانقاه بيبرس	٧١٨
				٧١٩

		الناصر «السلطنة الثالثة»	مدرسة طيبرسية	٧١٩
			زاوية الحمصى	٧٢٣ ٧٢٤
			جامع الجاكي	٧٢٥
			قصر القلعة	٧٢٦
			قناة المياه	٧٢٩ ٧٣٠
			مدرسة السعيدية	٧٣٠
			خانقاه أرسلان	٧٣٠ ٧٣٠
			جامع القلعة	٧٣٤
			جامع الأمير حسين	٧٣٤ ٧٣٥
			مدرسة الملكية	٧٣٦
			مدرسة جاوليه	٧٣٦ ٧٣٦
			مقبرة أردوتجين	٧٣٧
			مدرسة مهمندارية	٧٣٨ ٧٤٠
			مدرسة بكتمرية	٧٤١
			جامع الخزانى	
			جامع الماز	
			البرقية	٧٤٥
				٧٤٨

			جامع قوصون	
			جامع ساروجا	
			مدرسة أقبنجية	
			مقبرة تاشتمر	
١٣٤١	٧٤١		قصر بشتاك	
			خانقاه قوصون	
١٣٤٢	٧٤٢		خانقاه سرياقوس	
١٣٤٢	٧٤			
١٣٤٥	٧٤		جامع بشتاك	
١٣٤٦	٧٤٦	المنصور أبو بكر	جامع أيدمر	
١٣٤٧	٧٤٧			
١٣٥١	٧٤٨		جامع المرداني	
		الأشرف كجك	جامع ست مسكة	
		الناصر أحمد	جامع ابن غازى	
		الصالح إسماعيل		
		الكامل شعبان		
		المظفر حاجى	جامع الطواشى	
		الناصر حسن	جامع ابن الطباخ	
			جامع كجك	

			جامع أقسنقر	
			جامع الإسماعيلى	
			جامع قتلبغا	
			جامع الأسيوطي	
			خانقاه أم أنوك	
			خانقاه الجيغا	
١٣٥٤			جامع منجك	
١٣٦١	٧٥٧ ٧٥٥		جامع شيخو	
			مدرسة الخروبة	
			حوض لاجين	
			مدرسة قيسرانية	
			المدرسة الصغيرة	
		الصالح صالح بن الناصر حسن «السلطنة الثانية»		
			خانقاه شيخو	
١٣٦٣ ١٣٧٦	٧٦٢		المدرسة الفارسية	
	٧٦٤		مدرسة صرغتمشية	

			مدرسة السلطان حسن	
			المدرسة البديرية	
			المدرسة الحجازية	
١٣٧٦			المدرسة البشرية	
١٣٨١		المنصور محمد	مدرسة السابقية	
		الأشرف شعبان	مقبرة الطلبية	
		– أحفاد الناصر	جامع شعبان	
			مدرسة بيكرية	
			مدرسة جاى اليوم	
			مدرسة بقرية	
		المنصور على بن شعبان	مدرسة ابن مرام	
		الصالح حاجى بن شعبان	مقبرة أم صالح	

«٦» المماليك الشراكسة

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحاكم	الآثار	السنة الهجرية
١٣٨٢	٧٨٧	الظاهر برقوق	مقبرة أناس	٧٨٤
				٧٨٥
			مدرسة أيتمش	
				٧٨٨
			مدرسة برقوق	٧٩٠
				٧٩٥
			جامع زين الدين	
				٧٩٧
			مدرسة إينال "أستادار	٧٩٧
			مدرسة محمودية	٧٩٨
			مدرسة دمامية	٨٠٣
			مدرسة ابن غراب	
١٣٩٩	٨٠١	الناصر فرج بن برقوق	مسجد ابن عبد الظاهر	٨٠٤
				٨٠٦
				٨١٣-٨٠٢
			مدرسة السودان	
			مدرسة مهلى	
١٤٠٥	٨٠٨	المنصور عبد العزيز بن برقوق		
			خانقاه ومقبرة برقوق	٨١١
				٨١١
١٤٠٥	٨٠٩	فرج «الحكم الثانى»	مدرسة فرج	٨١٤

				٨١٥
			مدرسة جمال الدين	
				٨١٧
١٤١٢	٨١٥	المستعين «الخليفة»	جامع حوش «القلعة»	٨١٧
١٤١٢	٨١٥			٨١٨
		المؤيد شيخ	جامع بركة الرطلى	
				-٨١٩
			مسجد الضوا «القلعة»	٧٢٣
				٨٢١
			مسجد الباسطى	
				٨٢١
			مسجد الحنفي	
				٨٢٣
			مسجد الزاهد	
			مارستان المؤيد	
			جامع المؤيد	٨٢٧
				٨٣٠
			مدرسة عبد الغنى	
				٨٣٠
١٤٢١	٨٢٤			
			جامع الفخرى	٨٣٥
١٤٢١	٨٢٤	المظفر أحمد بن شيخ الظاهر		
			مدرسة القاضى عبد الباسط	
١٤٢١	٨٢٤	ططر		
١٤٢١	٨٢٥	الظاهر محمد بن ططر		٨٤٤
		الأشرف برسباى		٨٤٥
				٨٥٠-٨٤٨
				٨٥٣
			مدرسة برسباى	
				٨٦٠-٨٥٥
			جامع جام جانى بك	
١٤٣٨	٨٤٢			
			مدرسة فيروز	

١٤٣٨	٨٤٢			
		العزيز يوسف بن برسباى	خانقاه ومقبرة برسباى	٨٦٩
		الظاهر جقمق		٨٧٠
١٤٥٣	٨٥٧			٨٧٠
			مدرسة تغرى بردى	٨٧٠
		المنصور عثمان بن جقمق		
			جامع تانى بك	
١٤٥٣	٨٥٧			
			جامع ومقبرة القاضى يحيي	٨٧٦
١٤٦١	٨٦٥			
		الأشرف إينال		
١٤٦١	٨٦٥		جامع جقمق	٨٨٠
		المؤيد أحمد بن إينال		
			مدرسة وخانقاه ومقبرة إينال	٨٨٠
		الظاهر خوشقدم		
				٨٧٩
				٨٨٠
			مقبرة نانى بك	
١٤٦٧	٨٧٢			
				٨٨٢
١٤٦٧	٨٧٢		مسجد نور الدين	٨٨٤
١٤٦٨	٨٧٣			
			جامع سودان	٨٨٥
		الظاهر بلباى		
				٨٨٦
		الظاهر تمرينا	مدرسة قائم	
				٨٩٠
		الأشرف قايتباى		
				٨٩٠
			جامع تمراز	
				٨٩٦
				٨٨٣
			جامع أزبك بن تتش	
				٨٨٥
			قصر يشبك	
				٨٧٦
			مدرسة ومقبرة قايتباي	٩٠٠

			مدرسة قايتباي في المدينة	٩٠١
			وكالة قايتباي بجوار الأزهر	٩٠٤
			سبيل قايتباى	٩٠٦
			وكالة قايتباي «باب النصر»	٩٠٨
			وكالة قايتباي «السروجية»	٩٠٨
			قبة قايتباي الفضوية	٩٠٩
			قصر ومكان قايتباي	٩٠٩
			تجديد الأبواب الجنوبية	٩١٠
			مدرسة في الروضة	٩١١
			جامع قائم	٤١١
١٤٩٦	٩٠١		مدرسة أبو بكر بن مظهر	
١٤٩٨	٩٠٤		جامع نجماس	
١٥٠٠	٩٠٥		مدرسة زبك اليوسفي	
١٥٠١	٩٠٦	الناصر محمد بن قايتباى	قصر ممای «بيت القاضي»	
١٥٠١	٩٠٦	الظاهر قانصوه	مقبرة قانصوه	
		الأشرف جمبلاط		
		العادل طومان باى	مقبرة العادل طومان باي	
		الأشرف قانصوه الغورى		

			جامع خير بك	
١٥١٦	٩٢١		مدرسة ثانى بك أمير آخور	
١٥١٧	٩٢٢		مدرسة الغوري	
			ضريح الغوري	
			مقبرة سودون	
			مدرسة جانى بك قره	
		الأشرف طومان باى غزو الأتراك العثمانيين	تجديد قناة المياه إلى القلعة	

المراجع:

1. مستشار الري الإنجليزي في ذلك الحين.

١- تركنا هذا الكلام على سبيل التفكه والتندر.

انظر كتابي cairo sketches 120, 140

انظر كتابي cairo sketche pp 174, 50

انظر كتاب «تاريخ مصر في العصور الوسطى» ص ٤

نقل المؤلف هذه الشروط عن يوحنا أسقف نقيوس، ومن أراد الاستزادة فليرجع كتبه ابن عبدالحكم «كتاب فتوح مصر وأخبارها- القاهرة ١٩١٤ ص ٤٦-٦٥» في «خطط حجا ص ٢٩٢-٢٩٣»- المترجم.

١- راجع البحث الذي نشره الدكتور أ.ج. بلتر أخيرًا في Perc.Soc Bibl Archeolgy,1902 فهو يحاول هنا أن يثبت أن المقوقس هذا فيرس Cyrus بطريرك الإسكندرية، غير أن هذا الرأي لا يجد أى تعضيد من كتاب العرب الذين يوثق بهم.

١- وفي اليونانية Aiguptios، وفي العربية قبط «بالفتح» وقبط «بالضم»، وفي الإنجليزية Copt.

١- لعل مما يؤيد رأي الدكتور بلتر ما ذكره بوكوك من أن قصر الشمعة كان يعرف في وقته كذلك باسم قصر كيمان على أنه ليس من المؤيد أن قصر الشمعة هذا يمثل الجزء الأساسي في بابليون، فقد كان هناك بناء روماني آخر على إحدى التلال الصخرية، كان النيل قد اكتسحه يقع جنوب شرقي قصر الشمعة، وهذا البناء- كما ذكر كتاب العرب الذين نقل عنهم المقريزي – هو مدينة مصر أو بابليون التي حاصرها عمرو بن العاص، والتي كانت تحتوي على حصن يسمى قصر بابليون، ولا يبعد أن تكون أطلال هذا القصر هي التي ورد ذكرها في «اسطبل عنتر» التي لا يزال أساسها العظيم باقيًا إلى اليوم، انظر ما كتبه «لين» في كتابه «القاهرة منذ خمسين سنة» س ١٤٦، وقد شوهدت آثار الأسوار بجانب قاع النيل جنوبي مصر العتيقة، ومن المحتمل أن يكون هناك شواهد أثرية عن مدينة مصر الإسلامية التي لاتزال معالمها باقية والتي يحيط بها سوران، وليس من المستحيل – على ما يظهر- أن تكون مصر هذه هي امتداد ممفيس الحاضرة القديمة التي اختفت معالمها وأن المسافة التي بين أطلال ممفيس الحالية وحصن بابليون تربو طبعًا على عشرة أميال، غير أنه يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن ممفيس كانت في وقت من الأوقات على شكل دائرة يبلغ محيطها سبعة عشر ميلًا، وأنها امتدت حتى بلغت مدينة الجيزة.

١- عُرفت الحمراء فيما بعد بخط قناطر السباع «المقامة على النهر»

نسبة إلى الأسود المنقوشة عليه، وهي السبع سقايات، يشير بذلك إلى السقايات السبع التي كانت ترفع ماء النيل إلى القناطر المقامة على أعمدة لتوصيل ماء الشرب– المقريزي: كتاب الخطط في جـ ١ ص ٣٨٦. المترجم.

١– انظر المقالة الرائعة التي كتبها مستر. ك. كوربيت عن «تاريخ جامع عمرو في مصر القديمة» في المجلة الآسيوية الملكية بإنجلترا سنة ١٨٣١.

١– انظر كتاب لين: «القاهرة منذ خمسين سنة ص ١٤٢–١٤٣».
٢– حذفنا من كلام المؤلف بعد هذا الكلام عبارة لا تمت إلى التاريخ الصحيح بصلة، وإنما هي من قبل الخرافات التي تجرى على ألسنة العوام. المترجم.

١– أرميا: إصحاح ٤٣ آية ١٣ «العهد القديم». المترجم.
٢– عائلة السيد المسيح.
٣– السيد المسيح حينما كان طفلًا في ذلك الوقت. المترجم.

١– انظر كتاب الدكتور بتلر: الكنائس القبطية القديمة في مصر جـ ١ ص ٦٨–٦٩.
وقد أمدنا لأول مرة ببحث مبنى على دراسة علمية دقيقة عن هذه الآثار، والدكتور بتلر وأبحاثه ليست بحاجة إلى ثناء لزيادة قيمتها، ولكنى لا

أستطيع أن أفوت هذه الفرصة دون أن أقول كيف يجب أن يدين كل من يهتم بالفن المصري لأحاثه الرائعة التي تدل على مقدار ما أنفقه من جهد في استقصاء الآثار القبطية، ويعد كتابه أعظم ما تملكه من المصادر عن هذا الموضوع الذي يأخذ بمشاعر القلوب، والذي يرجع الفضل إليه فيما أفدته من معلومات.

٢- يوم الجمعة الحزينة هو اليوم الذي يحزن فيه الأقباط على صلب اليهود للسيد المسيح، وهو اليوم الذي يسبق وقفة عيد القيامة. المترجم.

١- للكنيسة القبطية سبعة أسرار، وهي أعمال مقدسة ومنح إلهية مؤسسة من الله لتكون واسطة لنيل المؤمنين فيض نعمته، وهذه الأسرار السبعة هي: ١- سر المعمودية ٢- سر الميرون ٣- سر القربان ٤- سر الاعتراف ٥- سر مسحة المرضى ٦- سر الزواج ٧- سر الكهنوت- المترجم.

١- الدينار: عملة ذهبية يعادل وزنها نصف جنيه من الذهب.

١- يقصد مسلمة بن مخلد «٥٣-٦٢هـ» الذي أقر القبط على بناء الكنائس مع منافاة ذلك لشروط الصلح. المترجم.

١- ساق عبد العزيز الماء إلى البركة عن طريق قناطر معلقة تصل العيون القريبة من المقطم بالبركة، وقد أخذ العرب عن الرومان هذا النوع من

القناطر التي كانت منتشرة في بلاد الدولة الرومانية في القرن الثانى الميلادي – المترجم.

١– للوقوف على سنى حكم ولاة راجع كتاب «تاريخ مصر في العصور الوسطى» للمؤلف ص ١٨–٥٨.

٢– انظر كتاب الولاة وكتاب القضاة لأبى عمر الكندى ص ١٢٢. المترجم.

١– ولى مصر ثلاث مرات: الأولى سنة ١٧١–١٧٢هـ، والثانية سنة ١٧٥–١٨٦هـ، والثالثة سنة ١٧٩–١٨٠هـ. المترجم.

٢– راجع كتاب النجوم الزاهرة لأبي المحاسن «جـ٢ ص٧٨–٧٩» حيث وردت هذه العبارة عند كلامه على ولاية موسى بن عيسى الثانية. المترجم.

١– قرآن كريم. سورة الزخرف، آية ٥١.

١–المقريزي: كتاب الخطط جـ ١ص ٤٩٤.

١– يشير بذلك إلى نظار السراى في أواخر عهد ملوك الميروفنجيين. المترجم.

١- أنشأها حاتم بن هرثمة عامل الأمين العباسى على مصر على جبل المقطم حيث جبل المقطم الآن. المترجم.

٢- انظر كتابنا تاريخ مصر في العصور الوسطى ص ٦٠-٧١. المقريزي خطط جـ١ ص ٣١٣، ٣١٥.

٣- يراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الإنجليز باسم «بولو» Polo وهي شبيهة بلعبة كرة القدم. المترجم.

١- ترى في الواجهة الجنوبية الغربية لمسجد عمرو بن العاص بعد زيادته على يد عبد الله بن طاهر فتحات مدببة هي الأولى في مصر، ظهرت بعدها هذه العقود المدببة في جامع ابن طولون. المترجم.

١- أطلق المقريزي على هذا الرجل «النصراني» ولو كان بيزنطيًا لسماه «الرومي».

وروى المسعودي قصة طويلة عن المحادثات التي دارت بين ابن طولون وبين رجل قبطي ذكي كبير السن من أهالي الصعيد كان من المقربين إليه، وكثيرًا ما كان ابن طولون يجلس معه ويتعلم أشياء عجيبة كثيرة اكتسبها من خبرته.

١- البلاط عبارة عن المساحة المحصورة بين صفين من العقود أو بين صف من العقود Arcade والحائط- المترجم.

٢- يلاحظ تزثير فن سامرا على الزخارف الجصية في هذا المسجد. المترجم.

١- انظر كتاب الفن العربي في مصر من ٥٤-٥٩، وهذه النوافذ لا يبعد أن تكون راجعة إلى عصر متأخر.

٢- سماها لينبول «ليوان» وهي تسمية خطأ وتطلق على القاعة المغطاة بقبو، وهي مفتوحة من جهة ومسددة من الجهة الأخرى، والأصل فيها إيوان كسرى بالمدائن «طيشفون». المترجم.

٣- يلاحظ أنه متأثر بمساجد العراق من ناحية التخطيط ومادة البناء والزخارف الجصية. المترجم.

٤- المقصود بالإيوان هنا رواق القبلة. المترجم.

١- يقول المقريزي «خطط ج ٢ ص ٢٨٥» إن مئذنة جامع أقبغا الصغير «الذي كان من بين مباني الأزهر والذي تم بناؤه في سنة ١٣٣١» كانت أول مئذنة بنيت من الحجر بالديار المصرية بعد المنصورية التي بناها المنصور قلاوون، ومن ذلك نستنتج أن مئذنة قلاوون «سنة ١٢٨٤م» كانت أول مئذنة بالمعنى الصحيح، ومن الواضح أنه لم يعرف شيئًا عن مآذن جامع الحاكم التي بنيت من الحجر. انظر جامع الحاكم.

٢- هناك قبة صغيرة فوق المحراب، غير أن هذه القبة، كالمنبر والزخارف التي عملت في المسجد يرجع تاريخها إلى الإصلاح الذي قام به لاشين في سنة ١٢٩٦م، وكذا الميضأة التي تعلوها قبة في وسط الصحن، فترجع إلى عصر متأخر إذ حلت محل الفوارة الرخامية المسقوفة والمقامة على أعمدة.

١– يلاحظ أن الزخارف الجصية متأثرة بالأساليب الزخرفية في سامرا.

١– توجد في القاعة المجاورة لمدخل دار الآثار العربية إلى يمين الداخل، مجموعة من الزخارف التي تشبه زخارف سامرا والتي نقلت عنها.

٢– هناك بعض نماذج النقوش العربية المحفورة على الخشب من جامع أحمد بن طولون نراها.

٣– M. vak Berchem, Notes dAreheoligie Arabe .Exir. dn Journal Asiatique,125 1891.

١– خطط جـ١ ص٣١٨.

١– انظر صورة قلعة الكبش «شكل ١٥» وهذا البناء العجيب بناه الصالح– حفيد أخي صلاح الدين الأيوبي – حول سنة ١٢٤٥ «ولا يبعد أن يكون قد بناه على أساس قديم»، وكان يستعمله بمثابة قصر ملكي، وفي هذا المكان نصب بيبرس الأول، الخليفة الحاكم العباسى، ثم أعاد الناصر بناء قلعة الكبش في سنة ١٣٢٣، وعاش فيه الأمير صرغتمش، وبنى له السور والأبراج المحيطة به، غير أن الأشرف شعبان هدم جانبًا منه وأصبح يستخدم للسكن «المقريزى جـ٢ ص ١٣٣».

١– ابن سعيد: النصر العربي ص ١٤

١- كان الإخشيد مولعًا بالعنبر، وقد اعتاد الناس أن يقدموا له كميات كبيرة منه في أول العام الجديد وفي أعياد الربيع، وكان يبيعها بأثمان عالية، وبعد وفاته أحرق مترل أرملته ووجد به من العنبر ما يساوي خمسين ألف جنيه «ابن سعيد».

١- المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٤-٣٦٥ ولقد قابل المسعودي المؤرخ أوتيخا Eutychius في مصر حيث انتهى من وضع كتابه «التنبيه» وذلك سنة ٣٤٥هـ.

١- انظر ما كتبه المؤلف تحت عنوان Arab Classic في كتابه Among my Books.p 90 ص٩٠

٢- هذا الشعر هو أبو محمد القاسم بن أحمد الرسى بن طباطبا. انظر كتاب المغرب لابن سعيد ص٤٩-٥١- المترجم.

١- ابن سعيد ص ٨٧.

٢- ابن سعيد: المغرب ص ١٠٣. المترجم.

١-المصدر نفسه ص ٨٦.

١- هو شراب يتخذ من الشعير، سمي بذلك لما يرتفع في رأسه ويعلوه من الزبد.

٢- انظر كتاب Hist. of Egypt in the Middle Ages.pp.88-89 وابن سعيد ص ٧٨ وما يليها.

١- انظر المقريزي جـ ٢ ص ١١٤، ١١٥، ١٦٣، ١٧٧، ١٨٥ وغيرها.

١- ناصر خسرو: سفر نامه «طبعة شيفر» ص ١٤٥ وما يليها.

١- انظر كتاب صلاح الدين للمؤلف ص ٩٣.

١- ابن جبير طبعة Wright ص ٥١، إني مدين لمستر جاي لي سترينيج بهذه العبارة التي ذكرها هنا.

١- المقريزي جـ ١ ص ٣٤١

١- أو الإسماعيلية.

٢- يجمل بنا هنا أن نشير إلى القطيعة التامة التي كانت بينه وبين القرامطة على الرغم من أن هؤلاء كانوا مصدر الانقلاب الفاطمي، مما دعاهم إلى غزو مصر مرتين بعد فترة وجيزة من الفتح الفاطمي وذلك في سنتي ٩٧١، ٩٧٤م، وقد حاصروا القاهرة وشقوا لهم طريقًا من أحد أبوابها، وليس ثمة ريب في أن كره المعز الزائد لهذه العصابات الأعرابية

كان يرجع إلى أسباب سياسية، غير أنه لو كان متمسكًا بآراء الشيعة المتطرفة لما عادى كبير زعمائهم.

١- انظر المقريزي: اتعاظ الحنفا ص٧٦- المترجم.

٢- انظر كتاب مصر في العصور الوسطى

١- كنيسة أبي سيفين بمصر القديمة الآن.

١- أبو صالح طبعة إفنس.

١- هناك أدلة كثيرة على هذه العلاقة الوثيقة بين الخلفاء والرهبان من القبط وردت في كتاب أبى صالح الأرمني المسيحي الذي كتب بين عامي ١١٧٣، ١٢٠٨ والذي ترجمه وعلق عليه ونشره المستر إيفتس بمساعدة الدكتورة بتلر «كنائس وأديرة مصر».

١- المقريزي جـ١ ص٣٧٧.

١- من الواضح أنه يشير هنا إلى سور القصر لأنه يذكر لنا في صراحة أن سور المدينة لم يكن له وجود.

٢- يقع هذا الكتاب في مجلدين يجب أن يرجع إليهما كل من يرغب في دراسة القصور الفاطمية.

١- نسبة إلى إحدى قبائل البربر.

٢- نسبة إلى أحد قواد المعز «وهو سعادة بن حيان»- المترجم.

٣- ينطق الاسم في العادة زويلة بكسر الزاي، أما النطق الصحيح فهو زولة يفتحها نسبة إلى إحدى قبائل البربر- المترجم.

٤- المقريزي جـ ١ ص ٣٨٠.

١- راجع كذلك كتاب صلاح الدين الأيوبي للمؤلف، ويلاحظ أن المؤرخين العرب لم يذكروا أمر هذه البعثة.

١- سفرنامة - طبعة شارل شيفر.

٢- كتاب فن العرب في مصر ص ١٠ و١٦٣و٢٠١ و٣٤١.

١- راجع المقريزي: خطط جـ٢ ص٣١٨.

١- فان برشم - مذكرات عن الآثار العربية طبعة ١٨٩١.

١- مما بناه الحاكم كذلك مصلى العيد بجوار باب النصر وجامع المقس بجوار النيل وآخر في الحي الذي كان يسمى راشدة جنوبي القطائع على مقربة من المقطم. انظر كتاب مصر في العصور الوسطى ص ١٢٦.

١- كان المعتقد أن الخليفة الساسى سوف يرسل أسيرًا إلى القاهرة، وأن منافسه الفاطمي كانت لديه عربة ذهبية صنعت خصيصًا من أجله، وأنه أنفق مليوني دينار لتهيئة القصر الغربي لاستقبال ضيفه، والواقع أن العرش العباسي والملابس والعمامة العباسية قد بقيت جميعها في القاهرة إلى عهد صلاح الدين الأيوبي الذي استرد الملابس، أما العرش فقد احتفظ به، ثم نقل فيما بعد إلى جامع بيبرس الجاشنكير- انظر كتاب مصر في العصور الوسطى ص ١٣٩.

١- يذكر لنا ناصر خسرو أن المدينة كانت في ذلك الوقت مقسمة إلى عشرة أحياء وهي: حارة برجوان، وحارة زويلة، وحارة الجودرية «نسبة إلى قوات خاصة أصلها من بلاد المغرب»، وحارة الأمراء، وحارة الديالمة «الفرس»، وحارة الروم، وحارة الباطليه «نسبة إلى بعض جنود الصمودة»، وهو يذكر لنا أيضًا خمسة أبواب فقط: باب النصر، وباب الفتوح، وباب القنطرة، وباب زويلة، وباب الخليج.

٢- كان يطلق على هؤلاء: عبيد الشراء- المترجم.

١- كانت عمامة صاحب المظلة مزينة بالأحجار الكريمة، وكان ثوبه من جنس ثوب الخليفة. أما المظلة فكانت مرصعة باللالئ والأحجار الكريمة - المترجم.

راجع: الفاطميين في مصر الدكتور حسن إبراهيم حسن ص٢٥٠.

٢- يقصد الفتنة التي حلت بالبلاد في عهد كافور الإخشيد- المترجم.

١- كتب المقريزي كشفًا بأسماء ما كان في قصور الخلفاء من الكنوز، ما لا نستطيع أن نرويه كله، ولكنا تقتبس منه هنا: عدا الكميات الوافرة من الأحجار الكريمة والأواني الفضية والأوعية المصنوعة من الذهب والبلور والملابس الموشاة بالذهب وجميع أنواع الفخار- كؤوس نقش عليها اسم هارون الرشيد وأوانٍ نقشت بالميناء أهديت للعزيز من إمبراطور الروم، وسيف النبى ودرع الحسين شهيد كربلاء وسيف المعز، وكميات من الرماح المرصعة بالجواهر، وجراب وأسلحة وصحاف ومحابر من ذهب، وعدد كبير من الشطرنج، ورقعة من الحرير موشاة بالذهب، وقطعة من الأبنوس والعاج، ومرايا من الصلب، وأكواب من العنبر، ومنضدة من العقيق، وطاووس من الذهب له عينان من الياقوت الأحمر، وريش من المعدن بالميناء وظبي مرصع باللالئ وعمامة مرصعة بالجواهر تزن سبعة عشر رطلًا، وثمانية وثلاثون زورقًا ملكيًا بينها واحد من الفضة وفسطاط الخليفة الظاهر والأوتار المصنوعة من الفضة وفسطاط اليازوري ذي النقوش البديعة التي استغرق صنعها تسعة أعوام كاملة عمل خلالها خمسون رسامًا، وكان يبلغ طول عمودها مائة وعشرين قدمًا ومحيط الفسطاط حوالي ألف قدم.

١- يشير ذلك إلى غزوة بدر، أولى غزوات الرسول.
من سورة آل عمران- المترجم.

١- أبو صالح والمقريزي انظر مذكرات فان برشم «طبعة ١٨٩١» ص٣٧-٧٢ في بحث هندسة الأسوار والأبواب.

١- نشر هذه الكتابة المستر هــ. ل. كاى في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية.

١- نسبة إلى أول ملوك الفرنجة في فرنسا، والاسم مشتق من ميروفنج جد كلوفس ملك الفرنجة- المترجم.

١- هذا المشهد يصفه لنا الأمير العربي أسامة بن منقذ الذي كان يقيم في القاهرة في ذلك الوقت، والذي كان صديقًا لعباس قاتل الخليفة والوزير على السواء، انظر حياة أسامة تأليف ديرامبرج ص ٢٠٥-٢٦٠.
٢- شيد هذا القصر أحد الوزراء السابقين ثم حوله صلاح الدين إلى مدرسة، ويقع بالقرب من جامع الأشرف الحالي في شارع الغورية.

١- بنى مسجد الظافر في سنة ١١٢٩، ومازال قائمًا في أحد أركان شارع السكرية « سوق السكر» ويعرف باسم جامع الفكهاني، وقد أعيد بناؤه في سنة ١٧٣٥م.

١- انظر الباب الخامس.

١- ابن جبير «طبعة رايت» ص ٤٦-٤٧.

وهذا هو نص ما ورد بهذا الصدد ابن جبير، أورده المترجم، كما أثبته هذا الرحالة في كتابه.

٢- عبر المؤرخون عن ذلك بقولهم: فلم ينتطح فيها عتران - المترجم.

١- ستانلي لينبول- صلاح الدين ص٣٥٨ و٣٦٠

١- انظر مذكرات فان برشم طبعة «١٨٩١» ص ٥٥، ٦٨-٧٠.

١- ترجم المؤلف هذا النص إلى اللغة الإنجليزية، وقد رجعنا إلى الأصل وأثبتناه -المترجم.

١- أثبتنا هنا النص الذي أورده في هذا الصدد: الرحالة ابن جبير- المترجم.

١- أثبتنا هذا النص الذي أورده في هذا الصدد الرحالة ابن جبير «طبعة رايت ص٤٩»- المترجم.

وقد أشار المؤلف لينبول في كتابه «حاشية ١ ص١٨٠» إلى أن المقريزي «الخطط جـ٢ ص١٥١» قد تكلم على قناطر الجيزة، لذلك رأينا أن نثبت هنا نص ما أورده المقريزى عن تلك القناطر: «إن القناطر الموجودة اليوم في الجيزة من الأبنية العجيبة، ومن أعمال الجبارين، وهي ونيف

وأربعون قنطة، عمرها الأمير قرقوش الأسدى، وكان على العمائر في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بما هدمه من الأهرام التي كانت بالجيزة وأخذ حجرها، فبنى منه هذه القناطر وبنى سور القاهرة ومصر وما بينهما، وبنى قلعة الجبل وكان خصيًا روميًا سامي الهمة، وهو صاحب الأحكام المشهورة والحكايات المذكورة، وفيه صنف الكتاب المشهور المسمى بالعاشوش في أحكام قراقوش، وفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة، تولى أمر هذه القناطر من لا بصيرة عنده، فسدها رجاء أن يحبس الماء، فقويت عليها جرية الماء، فزلزلت منها ثلاث قناطر، وانشقت، ومع ذلك فما روى ما رجا أن يروى، وفي سنة ثمان وسبعمائة، رسم الملك المظفر بيبرس الجاشنكير برمها، فعمر ما خرب منها وأصلح ما فسد فيها، فحصل النفع بها، وكان قراقوش لما أراد بناء هذه القناطر بنى رصيفًا من حجارة ابتدأ به من حيز النيل بإزاء مدينة مصر كأنه جبل ممتد على الأرض مسيرة ستة أميال حتى يتصل بالقناطر– المترجم.

«١» ابن جبير «طبعة رايت» ص ٤١–٤٢

وقد أثبتنا هنا النص الذي أورده ابن جبير في هذا الصدد.

«١» أثبتنا هنا النص الذي أورده في هذا الصدد الرحالة ابن جبير «طبعة رايت ص ٤٤–٤٥» المترجم.

هذا الرحالة القدير الذي ندين له بشيء من الوصف الخاص بعصر صلاح الدين قد أمدنا بوصف دقيق للقرافة الكبرى جنوبي القاهرة، التي

تعتبر إحدى الأماكن القليلة التي تعود بنا إلى أيام الفتح الإسلامي، فهناك ترقد عظام معظم المحاربين الأولين والشعراء ورجال الدين ينتمون إلى الفساط، على الرغم من أنه لا يميز قبورهم الآن إلا الرواية وحدها، ومن الواضح أن تمييزها في أيام ابن جبير كان يكتنفه الشك، وذلك لأنه أبى أن يجزم بصحة ما نقله عن المؤرخين، ولو أنه يقول إن صحة روايتهم لا يتطرق إليها الشك، ونحن إزاء تلك الروايات عن المقابر مثل ضريح النبى صالح وضريح آسيا زوج فرعون، نجد وصفًا عن أربعة عشر قبرًا من قبور ذرية علي بن أبي طالب من الذكور وخمسة من النساء لكل قبر منها ضريحه الخاص وحارسه وله أوقاف محبوسة عليه، منها ضريح زين العابدين ابن الإمام الحسين، وزينب حفيدة أبنائه وأم كلثوم بنت الإمام السادس جعفر الصادق، وعقبة حامل لواء النبي، وأبو الحسن صفيه، وسارية الجبل الذي له مسجد في القلعة «ولو أن لا علاقة له بمصر»، ومنها قبور اثنين من أولاد أبي بكر الصديق وعبد الله بن الزبير قائد عمرو وابن عبد الحكم والجوهري، وغيرهم ممن اشتهر بالكرامات والأعاجيب من أمثال الرجل الذي كان يتلو القرآن وهو في قبره، والرجل الذي لبث أربعين عامًا لا يتكلم أبدًا، والعروس التي حدثت لها معجزة عندما رفعت عن نفسها الحجاب لزوجها، وكذلك كانت هناك قبور الشهداء الذين سقطوا في الحروب وهم يدافعون عن الإسلام بقيادة سارية تملأ السهل، وكانت جميع المبانى في القرافة سواء منها المساجد أو الأضرحة، ملاجئ يأوى إليها الغرباء من العلماء والأتقياء كما كانت مفتوحة لأبناء السبيل، ولكل بناء نفقة شهرية رصدت له باسم السلطان،

سواء في ذلك معاهد القاهرة أو مصر، ويقال إن هذه الإعانات كانت تزيد على ألفي دينار مصرى في الشهر، وهو ما يساوي أربعة آلاف من دنانير مراكش، وأما جامع عمرو في مصر فقد قيل لنا إن دخله بلغ ثلاثين دينارًا يوميًا للصرف عليه ودفع مرتبات الخدم والمقرئين وغيرهم.

«١» أثبتنا هذا النص الذي أورده في هذا الصدد، الرحالة ابن جبير- المترجم.

«١» أورد المؤلف هنا اشتقاق كلمة Mosque من اللغات الإيطالية والإسبانية.

«٢» يصف لنا المقريزي تسعة عشر مسجدًا فقط بخلاف ما كان بالقرافة من بين سبعة وثمانين مسجدًا، ويبدو أن المساجد التسعة عشر لم يكن لها شأن كبير، وكانت مما بناه الفاطميون أو الأيوبيون، وكلها خارج أبواب زويلة والنصر والقنطرة والسعادة أو في بستان كافور، ولو أن ثلاثة منها كانت بين القصرين أو قريبة منها، وقد زالت معالمها الآن، ويذكر المقريزي كذلك خمسة وعشرين زاوية كانت كلها - عدا واحدة- من بناء المماليك، وكان سبع منها خارج باب النصر أو باب الفتوح وأربع خارج أبواب أخرى، وخمسة عند المقس، وبالجملة فإنه يبدو أن كلمة مسجد كانت تطلق في أيام المقريزي على أماكن العبادة الريفية القديمة، وأما كلمة زاوية فكانت تطلق على ما شيد منها في أيام المماليك.

«١» لينبول: صلاح الدين ص ٢٠

«١» المد: مكيال يسع ٢٥ أقة.

«١» العملة التي تحمل اسم شجرة الدر توجد في المتحف البريطاني «انظر كتاب المؤلف» فهرس العملة الشرقية الفصل الرابع ص ١٣٦، وكان لقب شجرة الدر «عصمة الدين السلطان» لأن «سلطانة» ليس لقبًا عربيًا.

«١» تم زوال سلطان الصليبيين حين غزا قلاوون طرابلس وفتح خليل حصن عكاء عنوة سنة ١٢٩٢م، أما سائر المدن فقد سقطت في أيدي المماليك بعد ذلك بقليل، وهكذا زالت قوة الصليبيين.

«١» من مياه كلب بالشام.

«٢» اكتشف أ.ت روجرز بك في سنة ١٨٨٣م مقبرتين لاثنين من الخلفاء العباسيين وبعض أفراد البيت العباسي في مصر، وذلك بالقرب من مسجد السيدة نفيسة جنوبي القاهرة.

«١» معظم مدلولات هذه الوظائف مستقاة من كتاب «دراسات في تاريخ المماليك» للدكتور على إبراهيم حسن- المترجم.

«١» ابن بطوطة جا ص ٧١-٨٤

«١» انظر الرسم ص ١٩٧، وقارن أعمال هرتز بك - جامع السلطان حسن- وبه صور فوتوغرافية رائعة ورسوم وتصميمات.

«١» انظر كتاب المؤلف تاريخ مصر في العصور الوسطى ص ٣٤٤

«١» لم يكن استخدام الرخام شائعًا قبل القرن الثالث عشر الميلادي، وكان ما استعمل منه في تزيين مداخل الأبنية، ويظهر الرخام في أبهى صورة في تزيين الأرصفة أو ترصيع الجدران بالفسيفساء، وهذا الترصيع يكون إما بإلصاق قطع متعددة الألوان من الرخام بواسطة الملاط أو إدخالها في لوح من الرخام بواسطة الحفر.

«١» عندما كنت في القاهرة سنة ١٨٨٣ استخرجت على ورقة (عليها طبقة من الجص الباريسي الممزوج بالغراء) جميع النقوش الموجودة في هذه الوكالة، ويمكن معاينة بعض النقوش التي صنعت من هذه القوالب في متحف جنوب كنستجون.

«١» انظر كتاب فان برشم: مجموعة الكتابات العربية س ٥٣٣ عن تعديل شكل المدارس.

«١» انظر المقريزى ج ٢ ص ١٣٠ ر١٣١

«١» القاهرة منذ خمسين عاما ص ٣٤ و٣٥

«١» انظر كتاب مصر في القرن التاسع عشر تأليف د. أ. كاميرون ص ١٤و١٥

«١» المقريزى جـ ٢ ص ٩١ وما يليها.

«١» الخطط جـ ٢ من ١٠٥.

«١» انظر فهرس دار الآثار العربية ص ٤٧ و٤٨ جمع هرتز بك، وهو كتيب لا يستغنى عنه الباحثون في الفنون العربية.

«٢» انظر كتاب الفن العربي في مصر تأليف ستانلي لينول س ١١١- **150**

«١» يقصد بكلمة نائب هنا كتخجا أو كما كانوا ينطقونها في مصر كخيا، وهو نائب الباشا، وهو منصب يشبه في اختصاصه وسلطانه منصب وزير الداخلية.

«١» انظر الجبرتي جـ٢ ص١٢٤ -١٤٣

»١» هدم في سنة ١٨٦٩، وكان قد بناه الأمير الشهير أزبك بن طوطوش ومنه سميت الأزبكية.

«١» وصف ماكس فان برشم بعض هذه الساعات الشمسية العجيبة في كتابه: «مذكرات في الآثار العربية» «١٨٩٢م» ص ١٣-١٨، وقد وضعت إحدى هذه الساعات في مسجد ابن طولون في سنة ٦٩٦هـ «١٢٩٦م» على يد لاجين، وهناك ساعة أخرى يمكن رؤيتها الآن في مسجد قوصون يرجع تاريخها إلى سنة ٨٧٥هـ «١٢٨٣م»، وكذلك توجد ساعة ثالثة في مسجد إينال نقشت عليها سنة ٨٧١هـ «١٤٦٦م».

«١» كان رطل اللحم يباع بنحو بارتين.

«٢» المد: مكيال يسع نحو خمسة وعشرين أفة.

«١» هذا ما حدث فعلًا في مسجد السلطان حسن كما جاء في السفر الرابع -مسجد السلطان حسن بمصر- تأليف ماكس هرتز بك وقد قامت اللجنة بنشره في سنة ١٨٩٩م.

«١» أن كل هذه الأعمال قد تمت الآن.

محتويات الكتاب